أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

Looloo
www.dvd4arab.com

أسرار شخصية الإنسان

يوسف ميخائيل أسعد

مقدمة

إن الذى حفزنا على تأليف هذا الكتاب ، هو أن الكثير من المثقفين عشاق علم النفس ، يرغبون فى الوقوف على زوايا متعددة بشخصية الإنسان ، وعلى المحاولات التى بذلها علماء النفس فى سبيل كشف النقاب عن تلك الزوايا . ذلك أن كل واحد من هؤلاء العلماء ، قد ركز على زاوية معينة ، ومن ثم فإن من الضرورى أن يتوافر فى مكتبة عاشق علم النفس ، كتاب أو بعض الكتب التى تحتوى على المحاولات العديدة التى بذلها علماء النفس لكشف النقاب عن أسرار شخصية الإنسان .

والواقع أن علم النفس يختلف عن العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء ، من حيث عدم سريان التقادم على المحاولات التى بذلها علماء النفس المتباينون . ذلك أن نظريات العلوم الطبيعية ، تَجُب بعضها بعضًا ، وتقضى بعضها على بعض . فيكفى أن يقف دارس أى علم من تلك العلوم الطبيعية على آخر ما انتهى إليه ذلك العلم من نظريات ، لأن النظريات التى سبقت ذلك ، قد حكم عليها بالانهيار ، بعد أن ثبت بطلانها فى ضوء المكتشفات العلمية التالية لها . أما علم النفس ، فإنه لا يَجُب بعضه بعضًا ، ولا يلغى بعضه بعضًا . وشأن علم النفس فى ذلك كشأن الفسلفة . فكل محاولة فلسفية وكل محاولة سيكولوجية قام بها فيلسوف أو عالم نفس ، لا تضيع ، ولا يتوقف تناولها أو مدارستها . فعلم النفس يكمِّل بعضه بعضًا . فنحن لا نستطيع أن نقول مثلاً : إن فرويد كان مخطئًا فيما ذهب إليه من تحليل نفسى ، وأن أدلر أو يونج اللذين انشقا

Looloo
www.dvd4arab.com

عليه ، هما اللذان اهتديا إلى الحقائق التى لا تشوبها شائبة . والأحرى أن يقال : إن علم النفس كالبناء المرصوص الذى يتكامل بعضه مع بعض ، ويدعم بعضه بعضًا ، وأن من يريد أن يكتسب بصيرة سكيولوجية ، فعليه أن يغترف من معين مختلف المدارس السيكولوجية ، وأن يعايش جميع رواد علم النفس ، وأن يتفاعل مع ما قرّروه وانتهوا إليه ، ويحاول أن يكوّن لنفسه خطًا شخصيًا يأخذ به نتيجة تفاعلاته الخبرية مع قراءاته المتعددة والمتباينة المتعلقة بالمدارس والاتجاهات السيكولوجية العديدة .

والواقع أن من يرغب فى الوقوف على الجوانب المتباينة فى علم النفس ، فإن عليه أن يطّلع على المسار الذى تطور هذا العلم وفقه ، وأن يقف على الروابط المتينة التى تربطه بعلم الإنسان Anthropology . ونحن نعتقد أن هناك وشائج متينة بين علم النفس وبين علم الإنسان . وحيث إن علم النفس يركز اهتمامه على الإنسان فإن علم الإنسان يفعل الشىء نفسه ، فلابد إذن لكى يتسنى للمثقف أن يقف على حقيقة الإنسان ، أن يولى اهتمامه به ، سواء عن طريق اطلاعه على بحوث السيكولوجيين ، أم عن طريق اطلاعه على بحوث الأنثروبولوجيين .

ونأمل أن يكون مضمون هذا الكتاب ، والمنهج الذى سيق به ، منهلاً شافيًا لإشباع نَهَم محبى الثقافة بصفة عامة ، ومحبى علم النفس بصفة خاصة ، علمًا بأن علم النفس يعتبر من المصادر التى لا غنى عنها للمشاركين بالقلم فى شتى فروع الأدب وبخاصة القصة والمقال الأدبى .

يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول

هربارت Herbart

بينما يعتبر فندت Wundt أبًا لعلم النفس التجريبى لأنه قام بإنشاء أول معمل لعلم النفس فى ليبزج عام ١٨٧٥ ، فإن هربارت يعتبر أبًا لعلم النفس التربوى كعلم مستقل عن الفلسفة ، وذلك بنشره كتابًا بعنوان « مجلد عن علم النفس » ، ثم أتبعه بكتاب آخر بعنوان « علم النفس كعلم » . صحيح إن مين دى بيران Maine De Biran قد نشر فى عام ١٨١٢ كتابًا بعنوان « مقال حول أسس علم النفس » ، ولكن كتابه هذا كان منصبًا على الأسس التى يقوم عليها علم النفس ، ولم يكن يعالج علم النفس بذاته كعلم مستقل له قوامه الخاص . فالواقع أن كتابى هربارت يعتبران أول دراسة تتناول علم النفس كدراسة لفرع معرفى له قوامه الخاص . والسمة الأساسية التى يتسم بها هذا العلم الجديد هو انفصاله عن الميتافيزيقا واتخاذه وجهة النظر التى تشترك فيها جميع العلوم الفيزيائية . على أن الرياضيات لم تلعب عنده أى دور له أهمية فى دراسته لعلم النفس . ذلك أن هربارت استبعد استخدام الرياضيات فى التجريب على العقل . بيد أن الرياضيات قد لعبت لديه دورًا آخر وذلك بتقديم علاقات حسابية بين الأفكار .

لقد كان هربارت ترابطيًا من جهة ، كما كانت وحداته العقلية هى الأفكار وليس القدرات . بيد أنه يختلف عن غالبية الترابطيين فى ناحيتين على الأقل . فهو لم يُعر اهتمامًا كبيرًا للفسيولوجيا ، فاستبعد

Looloo
www.dvd4arab.com

جميع التفسيرات التى تقوم على أساس عصبى ، كما أن الأفكار لديه ، سواء كانت أفكارًا إدراكية أم غير إدراكية ، لم تكن لتترابط فيما بينها بطريقة سلبية وآلية تبعًا لقوانين ترابط معينة ، بل إنها فى نظريته كانت كينونات ديناميكية تتصارع بعضها مع بعض لكى تحتل مكانًا فى الشعور ، وتترابط وفقًا لمبادئ كمية محددة .

ولقد أدى هذا المفهوم الدينامى إلى بزوغ اختلاف ثالث هام يميزه من الترابطية الكلاسيكية . ذلك أن العلاقات التى تقوم بين الأفكار كما ذهبت هذه المدرسة الأخيرة ، هى علاقات وضعية Positive تربط فكرة بأخرى . أما هربارت فإنه يميز نوعين من العلاقة بين الأفكار . فثمة الأفكار التى تترابط فى كليات منسجمة . فعندما تنتمى تلك الأفكار إلى نفس « الإستمرارية » Continuities ، فإنها تنتج « اندماجًا » Fusion . ومن أمثلة ذلك عندما يترابط اللون الأحمر مع اللون الأزرق فإنه ينتج اللون البنفسجى . وعندما تنتمى الأفكار إلى « كليات مترابطة » متباينة ، كما هو الحال بالنسبة للصوت واللون مثلاً ، فإنها تنتج وحدة من نوع أطلق عليه هربارت اسم « التعقيدات » Complications . وظل استخدام مصطلحات هربارت حتى اليوم من خلال فندت . ومن جهة أخرى فإن الأفكار التى تتعارض فيما بينها لا يمكن أن يتم بينها ارتباط ، ولكنها تميل فقط إلى أن تعوق بعضها بعضًا . فعندما تكون ذات قوة متساوية ، فإن الإعاقة تكون تامة ، ولكن إذا كانت هناك فكرتان أو أكثر تعوق كل منهما الأخرى ولكن بقوة متفاوتة ، فإن نتاج اصطراع الواحدة منهما بالأخرى يأخذ طريقه إلى الشعور . وهنا تلعب الرياضيات دورها . فلقد اهتم هربارت بالقياس الكمى للشعور بما يتضمنه من انطباعات وأفكار أو ذكريات نكون قادرين على الوقوف عليها كإمكانية ، وذلك لأن قليلاً من مخزونات الشعور يمكن للمرء إدراكه فى اللحظة الواحدة .

وواضح أنه طالما أن الأفكار لا تبدو واضحة فى الشعور ، أو أنها لا تكون واضحة بكليتها ، فإن علم النفس الهربارتى قد تطرق إلى اللاشعور . فشأن هربارت شأن ليبنتز فى فهمه للاشعور بشكل يقترب بعض الشىء من المفهوم الحديث . والواقع أن هربارت يميز ثلاث درجات فى الشعور : الأفكار البؤرية التى تتضح جيدًا بالذهن أو التى يتم فهمها بوضوح ، ثم الأفكار الهامشية التى توجد بغموض وبغير وضوح ، وفى المرتبة الثالثة توجد تلك الأفكار التى يتم استبعادها تمامًا من الشعور . ذلك أن الفكرة التى تخضع للكف أو الكبت لا تتوقف عن الوجود . إنها فقط تلحق بالمجموعة الهائلة من الأفكار التى خرجت عن نطاق الشعور ، ولكنها قد تعود إما من خلال الضعف الذى يصيب الأفكار المضادة ، وإما بتعاونها مع حليف موازر لها ، ويتأتى عن القوى المتضامنة إمكان التغلب على ألوان المقاومة التى كانت قبلاً قوية جدًا .

وعلى أساس مفهوم « الإدراك بالترابط » Apperception أخذ هربارت فى الوقوف على ما بين علم النفس كما فهمه ، وبين التربية . وبتقديمه لهذا المنظور التربوى فإنه استحق أن يصير « الأب » لعلم التربية العلمى . فإذا كان تركيب العقل ووظيفته يظهران أن بعض الأفكار تجد ترحيبًا طبيعيًا وتلقائيًا ، بينما يجد بعضها الآخر مقاومة ، فمن الواضح إذن أن من المهم جدًا لكى يمكن استيعاب المعرفة الجديدة بسهولة وبسرعة ، أن تقدّم فى صيغة أو بشكل يسمح لها بأن تُقبل من جانب المتلقى لها بشكل طبيعى فيستوعبها بدلاً من أن يرفضها . ولقد قام هربارت فى صدر شبابه بزيارة بستالتزى Postalozzi فى سويسره ، وتعاون معه لمدة عامين فى تربية الناشئة ، فأوقفه ذلك بشكل مباشر على المشكلات الفعلية التى تعترض طريق

Looloo
www.dvd4arab.com

المعلم فى التدريس . ولقد رأى هربارت أن بستالتزى وفروبل Froibel كانا محقّين فى التأكيد على أهمية الملاحظة ، وعلى الاهتمام التلقائى الذى يبديه الطفل ، أكثر من تأكيدهما على التدريس التقليدى . ولقد خطا هربارت خطوة إلى الأمام وذلك بتأكيده على أهمية الخلفية المعرفية ، كما قدم أساسًا نظريًا لتعاليمه بواسطة مذهبه المتعلق بالمعرفة الترابطية . فقال إن من الواجب أن نكون متأكدين من أن كل معرفة جديدة تقدّم للطفل يجب أن تكون مرتبطة برباط وثيق بالخبرة السابقة التى يكون قد استوعبها . وقد أدى هذا بالطبع إلى نشأة المقررات الدراسية التى توضع بطريقة علمية حيث تتدرج من الخبرات المعروفة للتلميذ إلى الخبرات التى لا يعرفها بشكل ترابطى متدرج . وما يزال تأثير هربارت واضحًا فيما ينتحى إليه المربون فى طرائق تدريسهم حتى اليوم .

★ ★ ★

الفصل الثانى

توماس براون Brown. Thomas
وجيمس مل Mll. James
وبينيك Beneke

شغل توماس براون منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية بأدنبرج فيما بين عامى ١٨١٠ و ١٨٢٠ ، ونشر محاضراته حول فلسفة العقل البشرى فى السنة التالية . ولقد جمع براون فى فلسفته بين الأفكار الاسكتلندية والفرنسية والإنجليزية . وورث عن التراث الاسكتلندى التأكيد على الدين والأخلاق فيما يتعلق بنشاط الأنا والسيطرة عليه ، وقد دفعه هذا الموقف إلى مناهضة الآراء الميكانيكية التى أدعاها زعيم الواقعيين كونديلاك Condillac وزعيم النزعة الفسيولوجية كابانيس Cabanis الذى ذاعت آراؤه فى فرنسا ، كما أنه فى الوقت نفسه أخذ بوجهة نظر الترابطيين الإنجليز وطوّرها .

لقد رأى براون أن من غير الممكن تفسير العقل تفسيرًا كاملاً بالقول بوحدات مفردة من الخبرة منفصلة بعضها عن بعض وتترابط فيما بينها بواسطة الترابطات . فهو يرى ويؤكد أن هناك وحدة تعتمل فى طيات الحالات المتتابعة للشعور هى الروح .

وبرغم هذا فإن أهمية براون فى علم النفس لا ترتبط بقوله بالروح ، بل بدراسته المتعلقة بالترابط . بيد أنه أثر فى علماء النفس التالين له وذلك باستبعاده الميول الآلية من نطاق الترابطية . وبراون

Looloo
www.dvd4arab.com

الفضل فى ملء الفجوات التى تركها الترابطيون السابقون عليه فى دراساتهم للترابطية .

واستفاد براون من لوك Locke الذى قال إن الأفكار لا تتأتى لنا عن طريق استقبالنا لها من الخارج بطريق الحواس فحسب ، بل تتأتى أيضًا نتيجة النشاط الذهنى الداخلى . فهناك مبدآن أساسيان تسير الحياة العقلية وفقهما : المبدأ الأول هو « الإيحاء البسيط » ، والمبدأ الثانى هو « الإيحاء النسبى » ، وقد أحل براون لفظ « إيحاء » Suggestion محل لفظ « ترابط » Association ، ويرجع براون الجوانب الإبداعية التى يقوم بها العقل إلى « الإيحاء النسبى » ، كما يرجع إلى هذا الإيحاء النسبى القدرة على تقديم معطيات غير حسية . وهذه القدرة على « الإيحاء النسبى » هى التى تمكننا من الحكم على الأشياء والمقارنة فيما بينها ، وأن نرى مثلاً أن شيئًا ما أكبر أو أصغر من شىء آخر ، أعنى القدرة على ملاحظة وجود علاقات بين الأشياء .

ويعتقد براون أن الإحساس العضلى ذو أهمية خاصة فى اكتسابنا المفهوم الخاص بالمقاومة . وكان قد عرض هذه الفكرة قبله وركز عليها بعض الشىء الفيلسوف اللمّاح مين دى بيران Maine De Biran فى نظريته القائلة إن « الذات » تتشكل أصلاً كنتيجة للمقاومة التى تتعرض لها أطرافنا خلال الطفولة . بيد أن براون كان فى هذا الصدد متحررًا من الاعتبارات الروحية التى كان بيران مقيّدًا بها فى هذا الشأن . والواقع أن الفضل يرجع إلى براون فى إبراز أهمية الحركة الجسمية فى حياتنا العقلية .

أما جيمس مل فإنه خالف عن النزعة الدينامية التى أخذ بها هربارت وبراون والتى تذهب إلى أن العقل إيجابى بشكل رئيسى ، وصار يمثل ذروة الجهد الذى بلغته الترابطية ذات النزعة الآلية .

ومن المعروف أن فلسفة مل ومذاهبه العلمية تعبر فى الواقع عن شخصيته . فهو يمثل بحق أولئك الرجال الذين صار انحيازهم العقلانى معارضًا معارضة تامة للاعتقاد الدينى ، ولكنه مع هذا أخذ نفسه بالإحساس بالواجب ، فصار ذلك دافعًا لديه للانخراط فى الأخلاق والنزعة النسكية والعمل الشاق والعزوف عن الذاتية ، كما أن ذلك دفع به إلى الإنخراط فى مجال الفكر والرضوخ لمنطق آلى لا هوادة فيه بحيث لم يعد فى حياته مجال للعاطفة أو الهوى .

ومع هذا فقد أخذ مل بمذهب اللذة السيكولوجية ، شأنه فى ذلك شأن بنتام Bentham . وجريًا وراء هذا المذهب فإن على الناس أن يسعوا بدأب لنيل السعادة ، ولكنه لم يجد فى نزعته العقلية وطريقة حياته ما يتعارض مع قوله باللذة . وكذا فإن مل لم ير فى فلسفته القائلة باللذة ما يتعارض مع المبادئ التربوية الصارمة التى طبقها على ابنه جون استيوارت مل Mill. John Stuart ، وهى المبادئ التى يمكن أن تدفع بمعظم الأطفال إلى الثورة أو إلى الهرب أو الانتحار .

وليس فى مذهب مل أى مجال لأى نشاط خلاف نشاط العقل . صحيح أن الأفكار تمثل تبعا له حالة أولى من حالات الشعور تقع على خط متواز مع الإحساسات التى تشكل الحالات الأولية الأخرى . بيد أن أفكارنا تنشأ أو توجد بنفس النظام الذى وجدت وفقه الإحساسات التى هى نسخ منها . وفى نهاية المطاف فإن عقولنا تتشكل من جزئيات حسية هى عناصر العقل النهائية التى لا تستحيل إلى شىء آخر . فكان من الطبيعى إذن أن يكرّس مل اهتمامًا كبيرًا لطبيعة الإحساس .

Looloo
www.dvd4arab.com

والذاكرة عند مل مجرد فكرة عن أحد الموضوعات بالإضافة إلى فكرة مستمدة من خبرتنا السابقة عن ذلك الموضوع . والشعور لديه لا يتضمن سوى المشاعر أو الأفكار . فكونك تقول « إنى أحب شعورًا ما » هو نفس قولك « إنى أحس به » .

أما بينيك Beneke فإنه اتخذ لنفسه موقفًا وسطًا بين الاتجاهات المتباينة التى انتحت إليها مدارس علم النفس لوقته . فهو يتحاشى مبالغات النزعة الترابطية المتطرفة التى تنكر النشاط الإيجابى للعقل ، وتقول إن الكائن الحى يستجيب للمثيرات الخارجية بطريقة آلية بفضل ميوله الحيوية التى فطر عليها والخاصة به . فانتحى بذلك إلى إهمال الدور الذى تلعبه القدرات المفطورة بالشخصية فى السلوك والتطور . وبذا فإنه يكون قد ابتعد عن تصور مل الخاص بالنمو من خلال مجرد تسجيل الانطباعات الحسية والتحامها والربط بينها وبين بعض . وهو يتحاشى أيضًا مخاطر القول بعلم نفس الملكات . فهو لا يعرض إلا لأشكال معينة من الخبرة المترابطة كالأفكار والمشاعر أو السلوك المترابط ، وبالنسبة للذاكرة فإنه يعزوها إلى اعتمال الآثار المتبقية فى الشعور والتى تقوم باستدعاء الأفكار . بيد أنه لم يوضح طبيعة تلك الآثار المترسبة فى الشعور .

★ ★ ★

الفصل الثالث

جـول Gall, Franz Joseph

وسبيرزهيم Spurzheim

ومسمر Mesmer

فرانز جوزيف جول مؤسس علم فراسة الدماغ Phrenology ، كان عالم تشريح بالممارسة ، وقد حصل بلا شك على قدرة حقيقية فى هذا المجال . وحتى وهو فى صباه لاحظ ما يمكن اعتباره علاقة أكيدة بين القدرات العقلية والخصائص التى يتسم بها زملاؤه فى الدراسة وبين أشكال رءوسهم . ولقد بدأ فيما بعد بوضع ملاحظات الصبا موضع الاختبار والامتداد بها مُجْرِيًا اختباراته بالسجون والمستشفيات العقلية ، ثم بعد ذلك بين أصدقائه ، كما قام بدراسة جماجم بعض الشخصيات الهامة .

لقد اعتقد جول أن ما قام بجمعه من معلومات يؤكد صحة زعمه بوجود علاقة وثيقة فيما بين السمات العقلية والشكل الظاهرى للجمجمة واستمر فى جمع معلومات كثيرة لتأييد مزاعمه . وبدأ بإلقاء المحاضرات حول هذا الموضوع فى فينا ، وأثارت آراؤه اهتمامًا كبيرًا منذ البداية . ولكن يبدو أن انتشار الاعتقاد فى فراسة الدماغ يرجع إلى شريكه فى دراسة هذا الموضوع سبيرزهيم أكثر مما يرجع إلى جول نفسه . ولقد استمر تعاونهما فيما بين عامى ١٨٠٠ و ١٨١٣ ، وبعد ذلك استمر سبيرزهيم فى الدعوة لتأكيد فراسة الدماغ

Looloo
www.dvd4arab.com

فى كل من أوربا وأمريكا ، فذاعت تعاليمهما من خلال المحاضرات التى قاما بإلقائها لفترة قبل أن يقوما بنشر أبحاثهما . وكان أول بحث لهما قد صدر لهما فى عام ١٨٠٩ للترشيح للإلتحاق بمعهد فرنسا Institut De France فشُكلت لجنة مكونة من كوفيه Cuvier عالم البيولوجيا رئيسًا وبينل Pinel عالم الصحة النفسية وذلك لمدارسة مزاعمهما ولكنهما قدما تقريرًا لغير صالحهما ، ويقال إن نابليون كان له تأثير فى رفضهما وذلك لأنه لم يكن يوافق على التحاق أعضاء من الأجانب فى المعهد المذكور . ولكنهما قاما بعد ذلك وأتباعهما بنشر أعمال أكثر تقدمًا وأكبر حجمًا فيما بين عامى ١٨١٠ ، ١٨٢٥ ، وظهرت « مجلة الفراسة » Phrenological Journal فى بريطانيا أول الأمر فى عام ١٨٢٣ ، وبعد ذلك امتد انتشارها إلى أمريكا وتوقفت فى عام ١٩١١

ويعتمد علم الفراسة على ثلاثة مبادئ رئيسية : الأول ــ تقسيم العقل الإنسانى إلى ملكات . فلا غرو أن يكون علم الفراسة هو علم نفس الملكات بالدرجة الأولى . وقد حددت الملكات فى سبع وثلاثين مَلكة ، وانخرطت تحت مجموعتين أساسيتين : المجموعة الوجدانية ، والمجموعة العقلانية . وتنقسم المجموعة الوجدانية إلى فئتين : الميول (الميل للهدم والتملك مثلاً) ، ثم العواطف (الضمير وتقدير الذات والحَذر مثلاً) . أما المجموعة العقلانية فقد انقسمت بدورها إلى المجموعة الإدراكية (الحجم والشكل والنغمة واللغة مثلاً) ، والمجموعة التأملية (وتتمثل فى ناحيتين هما المقارنة والوقوف على السببية) . والواقع أن علم النفس الحديث لم يتناول الملكات إلا على يد سبيرمان ، وذلك باستخدام الوسائل الإحصائية فى تجميع الظواهر المختلفة فى وحدات متمايزة .

أما المبدأ الثانى الذى قامت الفراسة على أساسه فهو الزعم بأن كل واحدة من السبع والثلاثين ملكة تتموضع فى منطقة محددة بقشرة المخ . فلقد عمد أصحاب هذا العلم إلى وضع خريطة لقشرة المخ ووزعوا عليها الملكات . بيد أن البحوث الفسيولوجية لم تتماش مع ذلك التوزيع ، كما أن علم النفس الإحصائى للفروق الفردية قد أثبت بطلان تلك الخريطة المزعومة .

أما المبدأ الثالث الذى اعتمد عليه علم الفراسة فهو الاعتقاد فى أن درجة نمو الأجزاء المختلفة من المخ المسئولة عن الملكات ، يمكن أن تكتشف وذلك بملاحظة « النتوءات » أو عدم المساواة فى ملمس السطح الخارجى للجمجمة . فلقد اعتقد أصحاب هذا العلم أن السطح الخارجى للجمجمة يناظر بالضبط السطح الخارجى للمخ الملاصق لها ، وبالتالى فيمكن اكتشاف مدى نمو الملكة بالوقوف على الشكل الظاهرى للجمجمة ، وقد أثبت تشريح المخ أن سُمك الجمجمة يختلف إلى حد بعيد وبشكل غير منتظم من جزء لآخر ، وأنه لا توجد علاقة بين سطح المخ وسطح الجمجمة . وهكذا يكون الزعم الرئيسى لعلم الفراسة قد انهار أمام الحقائق العلمية الحديثة .

والعجيب فى أمر الفراسة وما ذهبت إليه من مزاعم أنها حظيت بتصديق واسع النطاق بين الجماهير . وما يزال كثير من الناس فى الدول العربية والدول الأخرى يعتقدون فى صحة الفراسة ، بل إنهم يريدون لهذا العلم الزائف أن يكون علمًا متين البنيان ، وذلك لما فيه من جاذبية خاصة . ولكن ذلك الدَوى الهائل الذى أحدثته الفراسة يُظهر خطورة القول بتعاليم غير مبنية على أسس علمية مكينة . ومما يزيد من خطورة الموقف أن رائده جول كان عالم تشريح ، الأمر الذى أوحى بصدق مزاعمه على نطاق واسع . ولكن عذر جول

Looloo
www.dvd4arab.com

اكتشافه لمطابقات كثيرة بين شكل الجمجمة وبين ما زعمه من ملكات . والواقع أن الاعتماد على المصادفات وحدها ، والاكتفاء ببعض الأمثلة يمكن أن يشكّل طريقًا إلى الضلال .

ولكن يجب ألا تتملكنا القسوة على جول وسبيرزهيم . ذلك أن لكل عالم هفوة ، أو قل إن العلم بشكل عام يسير فى تقدمه وفق مبدأ المحاولة والخطأ . فكل تقدم علمى تال يكشف عن أخطاء فى بعض المحاولات العلمية السابقة . ولاشك أن تقدم علم النفس الفسيولوجى ودخول الإحصاء على نطاق واسع فى الدراسات السيكولوجية قد عملا على إقالة علم النفس من عثرات كثيرة كان قد تردّى فيها .

ولاشك أن المطلب الذى توخاه جول وسبيرزهيم مطلب مشروع وهام ، أعنى اكتشاف أسرار شخصية الإنسان ، وما تتمتع به من مواهب حتى يتسنى الإستفادة من تلك الأسرار والمواهب فى التربية وفى الحياة العملية . فما بدأ جول وسبيرزهيم فى اكتشافه من مواهب وملكات ، كان بمثابة البواكير لدراسات سيكولوجية علمية اضطلع بها سبيرمان وغيره من علماء نفس الملكات .

أما مسمر فهو شخصية غامضة أثيرت حولها ضجة كبيرة ، ومات ومعه أسراره فى عام ١٨١٥ ، ولقد ذاع صيته فى أوساط كثيرة باعتباره قادرًا على تحقيق الشفاء من معظم الأمراض بطرائق سرية تمكّن منها ، وقد رفض قبول عشرين ألف فرنك من حكومة فرنسا نظير الكشف عن سره ، وهو السر الذى لم يكن يفهمه هو شخصيًا . بيد أن الأوساط الطبية لعهده قد تجاهلته ، بل إنه اتهم بالدجل فى النهاية . آمن مسمر إيمانًا مطلقًا بما يسمى « المغنطيسية » كتصور لشىء شبيه بالنظرية الحديثة الخاصة « بالإيحاء » وذلك

باستحداث حالة أشبه ما تكون بالنوم أو « التنويم » بمساعدة أحد تابعيه هو الماركيز دى بوسيجور (انظر ما ورد عن مسمر فى كتابنا المترجم بعنوان « التنويم المغنيسى : ما له وما عليه ») .

وأول لجنة شكلت لمدارسة مزاعم المسمرية عقدت فى فرنسا فى عام ١٧٨٤ ، وكان من بين أعضائها لافوازيه وبنيامين فرانكلين ، فقررت اللجنة أن ما أسماه مسمر « بالمغنطيسية » لا يرتبط من قريب أو من بعيد بالمغنطيسية المعروفة فى علم الفيزياء ، ولكن اللجنة ـ كما كان متوقعًا منها ـ لم تدرك أن « التخيل » الذى تتضمنه وسائل علاج مسمر يمكن أن يشكّل مسألة ذات أهمية جديرة بالدراسة فى ذاتها . وبعد ذلك شُكّلت لجنتان أخريان لنفس الغرض . ويبدو أن اللجنة الأولى من هاتين اللجنتين قد عمدت إلى مدارسة المسمرية بعناية غير عادية وبروح محايدة . وبعد سنوات عديدة من العمل قررت أن الحالات التى شفيت كانت حالات حقيقية ، ولكنها رفضت أن تحمّل نفسها مسئولية تحديد الطبيعة الحقيقية « للمغنطيسية الحيوانية » ، بل إن هذه اللجنة أفادت بأن لديها ما يثبت أن هناك عددًا من الظواهر الغامضة التى لا توجد وسيلة لتفسيرها . أما اللجنة الثانية من هاتين اللجنتين فإن تقريرها أتى متمشيًا مع ما ذهبت إليه اللجنة السابقة ، وقد ركزت اهتمامها على المغنطيسية الحيوانية مقررة أن ما ذهب إليه مسمر ليس خُدْعة تمامًا ولكنه لا يتمشى مع الروح العلمية .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الرابع

فيليب بينل Pinel, Philjppe

وجون ستيوارت مل Mill, John Stuart

واسكندر بين Bain, Alexander

يعتبر فيليب بينل أبًا للطب العقلى العلمى ، وقد تم تعيينه فى البيستر بباريس عام ١٧٩٢ وهى مستشفى للأمراض العقلية ، فأمر بفك السلاسل والأغلال التى كان المرضى مقيَّدين بها . فلقد كان التفسير السائد وقتئذ للجنون يذهب إلى أن المجنون به مس من الجن ، أو أن الشياطين تسكنه ، وبالتالى فإن التعذيب الذى كان يلاقيه المجنون تعذيبًا يوقع على ما اعتقد أنه شياطين تقطن فى أعماقه ، بل إن المجنون نفسه كان يعتبر مسئولاً عن إيواء الشياطين فى جسده لأن الشياطين لا تسكن إلا فى الأماكن النجسة . فأخذ بينل يعلن لمعاصريه أن الجنون ليس سوى مرض كسائر الأمراض الجسمية التى قد تصيب أى إنسان ، ومن ثم فإن المجنون يستحق الشفقة والعناية ، ولا يستحق الامتهان والقسوة والرذل .

والواقع أن تحطيم الاعتقاد فى أن الجنون مردُّه إلى قوى روحية يتلبس بها المجنون ، وأن لا سبيل إلى فهم الجنون ، قد مهد الطريق لفتح ميادين جديدة أمام علم النفس وعلم وظائف الأعضاء والطب .

على أن جهد بينل لم يقف عند هذا الحد ، بل إنه حاول أن يقدم نوعًا من التنظيم أو التصنيف لمفاهيمنا حول الأنواع المتباينة للجنون ، وبذا فإنه يكون قد قدم أول تصنيفات منهجية للجنون ، وتبعه فى هذا المشوار اسكيرول الذى بدأت كتاباته فى عام ١٨١٧ وعلى أساسها استمر تصنيف علم النفس خلال القرن التاسع عشر .

ولقد اهتم بينل أيضًا - ولكن بشكل غير مباشر - بتقديم المحاولات الأولى للدراسة المنهجية للتخلف العقلى ، على الرغم من أن إيتارد يعتبر الرائد الحقيقى فى هذا المضمار . لقد كان إيتارد مهتمًا بصفة أساسية بطرائق التدريس الخاصة بالصم ، وفى عام ١٧٩٨ عرضت عليه حالة « طفل أفيرون الوحشى » الذى عثر عليه بعض الصيادين حالما كان فى حوالى العاشرة من عمره ، وكان واضحًا عليه من سلوكه أنه قد ظل خلال فترة عمره إلى أن عُثر عليه وهو بعيد كل البعد عن جميع المجتمعات البشرية . فاستمر إيتارد لمدة خمس سنوات وهو عاكف على تربية هذا الكائن الإنسانى الوحشى لكى يجعل منه كائنًا بشريًا اجتماعيًا ومكتسبًا للخبرات التى تؤهله للتكيف للحياة الاجتماعية . ولما كان إيتارد واقعًا تحت تأثير علم النفس الترابطى الذى يقول إن الخبرة هى العامل الوحيد الذى يحتاج إليه المرء فى التعليم ، فإنه توقع بإخلاص أنه سوف ينجح فى هذه المهمة . بيد أن بينل الذى كان متمتعًا أيضًا ببصيرة نافذة ، أخذ يشك فى النتيجة ، وتنبأ بأن النجاح فى تعليم ذلك الولد الوحشى لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تحرر من تخلفه العقلى المهيمن عليه . وتحقق ما توقعه بينل ، فلم يستطع ذلك الولد أن يلعب دورًا عاديًا بالمجتمع المتمدن . بيد أنه استطاع أن يكتسب بعض العادات التى عملت على التخفيف بعض الشىء من وحشيته . والواقع أن ما قام به إيتارد كان فتحًا

www.dvd4arab.com

جديدًا . ذلك أنه وضع اللبنات الأولى فى تدريب ضعاف العقل . فلقد حمل سجوين تلميذ إيتارد مسئولية الاستمرار فى جهود أستاذه ، فشق هذا الطريق الجديد ببصيرة ونجاح . وفى عام ١٨٢٨ أنشئ أول معهد لتعليم المتخلفين عقليًا فى باريس ، وفى عام ١٨٤٢ صار سجوين مديرًا له . ومنذ ذلك الوقت ازداد الإحساس بضرورة وضع طرائق تربوية خاصة لهذه الفئة من الأشخاص ، ومن ثم بدأ انتشار مدارس المتخلفين عقليًا بأقطار كثيرة .

أما جون ستيوارت مل ابن جيمس مل فإن أهم مؤلفاته كتابه « المنطق » الذى نشر عام ١٨٤٣ وكتاب آخر بعنوان « مُذارسة فلسفة السير وليم هاميلتون » الذى نشر فى عام ١٨٦٤ ، وأهم ما أسهم به فى النظرية السيكولوجية مذهبه الخاص « بالكيمياء العقلية » الذى أعلنه بكتابه الأول .

وتبعًا لطبيعته المتسمة بالرغبة فى التحرر والتعاطف والخلو من الحذلقة ، فإنه قدم فى مذهبه اتجاهًا يحاول فيه ملاشاة التصلبات التى كانت تتسم بها النزعة الترابطية والتى اتسم بها فكر والده جيمس مل . فلقد أحل جون ستيوارت مل مفهومًا « كيميائيًا » محل المخطط الميكانيكى الصارم للتفاعل بين الأفكار المتفردة والمتباينة بعضها من بعض . وتبعًا لهذا المفهوم الكيميائى ، فقد ذهب جون ستيوارت مل إلى أن الأفكار والمشاعر تنشأ نتيجة تفاعل عناصر أبسط منها بعضها مع بعض . بيد أن هذا لا يحدث فى جميع الحالات . ففى بعض الحالات يحدث تفاعل شبيه بالتفاعل الكيميائى بين الأفكار بحيث لا يمكن أن نميز فى النتائج المتأتية ، تلك العناصر التى دخلت فى التفاعل . وبتعبير آخر فإن التفاعل العقلى يسير فى خطين متوازيين : أحدهما خط ميكانيكى تتفاعل بموجبه العناصر بعضها مع بعض لكى

يتأتى نتيجة ذلك تركيبات جديدة يمكن أن نميز فيها العناصر أو المقومات الأصلية . والخط الثانى خط كيميائى تتفاعل بموجبه العناصر لكى ينتج عن تفاعلها مركب عقلى لا يمكن أن نميز فيه العناصر التى اشتركت فى التفاعل . بيد أن جون قد أبدى شكوكه فيما إذا كان التفسير بالكيمياء يكفى لكشف النقاب عن حقيقة الاعتقاد . ذلك أن الاعتقاد يحتاج إلى تفسير جديد .

وبالنسبة لموضوع « الانتباه » فقد أبدى جون اهتمامًا به ، وذلك فى ارتباطه بكل من الشعور الوجدانى والإرادة ، ولكنه حاول أن يتناول الانتباه نفسه من حيث اعتماده على قوانين الترابط . وعرض جون أيضًا لموضوع النسيان . فرأى أن الأفكار التى تترابط فيما بينها يمكن أن يسقط بعضها إذا لم يوجه المرء الانتباه إليها مدة طويلة .

أما اسكندر بين فعلى الرغم من أنه كان متسمًا بالعناد والإصرار ، فقد كانت تنقصه الأصالة . وهو مدين بمكانته فى التاريخ إلى جمعه المضنى للمعلومات وتصنيفها وإلى عرضه المنهجى للنتائج وليس لامتيازه بقدرة أخّاذة فى الكشف عن الحقائق الجديدة أو تفسيرها . على أن بين سوف يظل بالضرورة شخصية ذات أهمية ، وذلك لأنه يعتبر على نحو ما أول عالم نفس بمعنى الكلمة ، أعنى أول عالم نفس جعل هذا العلم عمله الأوحد الذى يكرس له حياته . ذلك أنه جعل دراسة العقل مهمة جديرة بأن تقوم برأسها وأن يخصص لها المرء أفضل جهوده الذهنية . فالواقع أن الفسيولوجيين والأطباء وغيرهم ومن قبلهم الفلاسفة ، قد جعلوا من علم النفس مادة مساعدة تتواكب مع دراساتهم واهتماماتهم ، أما بالنسبة لبين فإن العقل الإنسانى يعد غاية فى ذاته ، وليس مجرد فرع من المعرفة يمكن

Looloo
www.dvd4arab.com

أن تكتسب ، أو أن يتم تناولها فى سياق نشاط ثقافى آخر أو فى تواكب معه .

صحيح أن بين لم يكن أستاذاً متفرغاً لتدريس علم النفس ، بل كان مجرد أستاذ للمنطق فى أبردين . وحتى هذا الكرسى لم يكن من السهل حصوله عليه إلا بعد فترة انتظار طويلة وبعد تقديم طلبات كثيرة بلا جدوى للحصول على وظائف أخرى . وكان السبب فى رفضه المستمر لمدة طويلة تحرريته وعدم ولائه للكنيسة . وأكثر من هذا فإنه لم يعيّن حتى بعد أن قام بنشر كتبه الرئيسية . تاهيك عن أن مادة علم النفس كانت ملحقة بالدراسات الأخرى وليست « مادة » قائمة برأسها . فهى لم تكن لتستحق أن يخصص لها مدرس يكرس كل جهده لها .

ولم يكتسب بين أهميته لأنه كان أول شخص يجعل علم النفس اهتمامه الأول فى الحياة فحسب ، بل لأنه كان أول مؤلف لمجلد فى علم النفس كتب بالطريقة الحديثة . وقد ظهر كتابه هذا الذى كلّفه عشر سنوات من عمره كرسها لتأليفه فى جزأين ظهرا على التوالى فى عامى ١٨٥٥ و ١٨٥٩ وكان الجزء الأول بعنوان « الحواس والعقل » ، والثانى بعنوان « الانفعالات والإرادة » . وعلى الرغم من أن الجزء الأول قد حمّل الناشر بعض القلق بسبب قلة مبيعات النسخ ، فإن الجزأين قد وجدا رواجاً فى النهاية ، وأعيد طبعهما بعد تنقيحهما عدة مرات فى مناسبات عديدة ، وظلا المرجعين البريطانيين النموذجيين إلى أن حلّت محلهما كتب سلى وستوت فى نهاية القرن التاسع عشر .

ومن الملامح الأساسية فى كتابات بين اهتمامه بدراسة المخ والجهاز العصبى وأجهزة الحواس كمدخل للدراسة السيكولوجية . ومن جهة أخرى فإن بين اهتم ببنية المخ وأعصاب الحواس والحركة وأجهزة الحواس وأقواس الانعكاس والعضلات . ثم إن بين اعتقد أن عالم النفس سوف يكون فى المستقبل عالم فسيولوجيا أكثر من كونه فيلسوفاً .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الخامس

هرمان لوتزى Lotze, Hermann

وجون إليوتسون Elliotson, John

وجيمس بريد Braid, James

لا يمكن القول بأن هرمان لوتزى عالم نفس بالمعنى الذى يتصف به بين ، ولكنه كان إلى حد بعيد عالم فسيولوجيًا وفيلسوفًا مع اهتمامه بعلم النفس باعتبار أن علم النفس لديه جزء هام بازغ من خطوط اهتمامه الرئيسية . احتل لوتزى فى عام ١٨٤٤ ـ وهو فى العشرين من عمره ـ كرسى الفلسفة فى جوتنجن الذى خلا بموت هربارت . ولقد كان هذا الكرسى ذا شهرة بعيدة وقد تركه لوتزى بدوره بموته ليحتله جورج مولر الذى ظل يحتله حتى عام ١٩٢١ .

كان لوتزى كاتبًا خصبًا فى مجال الفلسفة وعلم النفس والفسيولوجيا والمنطق . ولم ينشر كتابًا عامًا فى علم النفس يغطى منهجيًا جميع أنحاء هذا العلم كما فعل بين ولكنه ألقى المحاضرات فى هذا المجال لمدة سبع وثلاثين سنة . وبعد موته مباشرة نشرت محاضراته بل وترجمت إلى الإنجليزية . على أن أهم كتاب له فى علم النفس هو « علم النفس الطبى » الذى نشر فى عام ١٨٥٢ ، وفى هذا الكتاب أكد وجهة النظر التى سبق أن قال بها بين قبل ذلك بثلاثين عامًا والقائلة إن العقل والجهاز العصبى يجب أن يدرسا فى علاقاتهما بعضهما ببعض . ولقد اعتقد فى الوقت نفسه أن الفسيولوجيا لا يمكن

بحال أن تقدم تفسيرًا كاملاً للعقل . وكان لوتزى من أوائل من أدركوا أن من الأهمية بمكان قيام علم النفس الإنسانى بدراسة العقل الحيوانى والحالات غير السوية ، بالرغم من أنه لم يمتد إلى شوط بعيد فى هذا المضمار .

وأهم إسهامات لوتزى فى علم النفس كان فى مجال إدراك المسافات حيث قدم نظريته الخاصة « بالعلاقات المساحية » . فمنذ عهد بركلى ، بل وقبله كانت هناك مناقشات تدور حول ما إذا كان إدراكنا للمسافة عبارة عن قدرة أو وظيفة للعقل (كما ذهب كانط إلى ذلك مثلاً) ، أم أن من الممكن تحليل تلك القدرة إلى عناصر غير مكانية أبسط منها ، فيُقضى ذلك إلى إدراك المسافات . وعلى الرغم من أنه ذهب إلى أننا مجهزون منذ البداية بقدرة معينة على إدراك العالم الخارجى فى ضوء المسافة ، فإنه اعتقد أن توصُّلنا إلى إدراك المكان بدقة ، إنما ينبنى على أساس عملية ترابط بين المفاتيح الحسية ، وهى مفاتيح ليست من طبيعة مكانية . وفى حالة الرؤية فإن هذه المفاتيح تكون متمثلة فى الميل الإنعكاسى للعين لكى تتحرك على نحو معين بحيث إن صورة أى شىء يجذب انتباهنا تحتل مكان البؤرة فى المشاهدة .

وعلى الرغم من أن العلماء لا يأخذون اليوم بتفاصيل نظرية لوتزى ، فإن من الواجب أن نقرر أنه أثار اهتمام العلماء بهذا الموضوع . ولعله بمدارسة موضوع الإدراك البصرى يكون قد أثبت أهمية دراسة الفسيولوجيا لعالم النفس ، وبخاصة فسيولوجية المخ والأعصاب والحواس . فكلما ازداد تعمق عالم النفس فى الفسيولوجيا ، زادت بالتالى قدرته على شق خطوط جديدة فى علم النفس .

Looloo
www.dvd4arab.com

أما إليوتسون فإنه كان رجلاً ذا قدرة غير عادية وذا أصالة فى تفكيره ، وكان يجمع فى شخصيته ملامح العالم والمدافع عن الإنسانية والثائر ، مع امتلائه بأمل عظيم فى المستقبل ، كما كان متفتحًا على جميع الأشياء الجديدة وغير المطروقة ، ومحتقرًا فى الوقت نفسه لأخطاء وانحيازات الماضى . كان أول طبيب استخدم المسماع (سماعة الطبيب) فى انجلترا ، كما كان أول من أدخل الكثير من أشكال العلاج التى شاعت بعد ذلك على نطاق واسع . وفى عام ١٨٣١ صار أستاذًا للنظرية والممارسة الطبية بكلية لندن الجامعية التى كانت قد أنشئت حديثًا فى عام ١٨٢٨ ، ولقد افتتحت مستشفى كلية الجامعة فى عام ١٨٣٤ بفضل حماس ومعاضدة إليوتسون ، وهى أول مستشفى أنشئت لهدف محدد هو أن تكون مركزًا للبحوث والتجارب فى ارتباط بإحدى المعاهد الطبية ، وفى عام ١٨٣٧ حضر إليوتسون عرضًا للمسمرية قام به رجل فرنسى أطلق على نفسه اسم البارون ديبوتيه ، فالتهب خياله فى الحال بإمكان استخدام الطريقة المسمرية فى معالجة الأمراض العصبية .

ولم يضيّع إليوتسون الوقت ، بل سارع إلى تطبيق أفكاره ، وسرعان ما خضعت جميع أنواع الحالات لهذه الطريقة بالمستشفى . ولكن من سوء الحظ أن واحدة من مرضاه تسمى اليزابيث أوكيى أبدت ملكة قوية للإستبصار Clairvoyance استطاعت بواسطتها أن تشخص ما لديها من أمراض ، وما لدى المرضى الآخرين أيضًا ، كما ادعت أن بمقدورها أن تتنبأ بوقوع المرض وموعد الوفاة . والواقع أن المسمرية لم يكن مسموحًا بها فى أروقة المستشفى ، ولكن عقدت مع ذلك جلسات متكررة بها عرضت على مسرحها ، وحضرها جمهور غفير وشخصيات بارزة من بينهم أساقفة وفلاسفة

ومنوّمون مغنطيسيون ، وكان من بين تلك الشخصيات البارزة توماس مور وشارلز ديكنز . بيد أن المسمرية كانت معتبرة وقتئذ خطرًا على العلم ، كما أن إدارة الكلية استبد بها القلق على سمعة المعهد الجديد ، فحاول المسئولون بها أن يوقفوا هذه الجلسات أو العروض غير المهذبة . فأخذ عميد الكلية فى تقديم النصح إلى إليوتسون للتراجع عن تلك العروض إذ أن مصالح كليته سوف تتعرض للاهتزاز وتتلوث سمعتها العلمية والإنسانية ، وأن الحفاظ على ثقة الجمهور أكثر أهمية من الحقائق المزعومة التى يمكن استخلاصها من تلك العروض . فاشتط غضب إليوتسون وقال « إن هذا المعهد قد أنشئ لاكتشاف الحق ونشره . أما جميع الاعتبارات الأخرى فإنها يجب أن تعتبر ثانوية . فعلينا أن نقود الجمهور ، لا أن يقودنا الجمهور » . وكان رد مجلس إدارة الكلية بمنع ممارسة المسمرية فى المستشفى ، بينما كان رد إليوتسون على ذلك الفرار هو تقديم استقالته فى عام ١٨٣٨ ، وبعد ذلك قام توماس واكلى رئيس تحرير مجلة لانست بدعوة إليوتسون لإحضار اليزابيث أوكيى إلى منزله حيث تم فحص حالتها جيدًا وقد وجد ـ كما سبق أن اكتشف بنيامين فرانكلين قبل ذلك بحوالى خمسين عامًا ـ أن ظاهرة « التنويم المغنطيسى » تعتمد على اعتقاد المريض فى القوة المغنطيسية المزعومة فحسب .

بيد أن هذا لم يفُت فى عضد إليوتسون . فعلى الرغم من أن كتاباته حول المسمرية قد قوبلت برفض جميع الدوريات الطبية المعترف بها ، فإنه قام بتأسيس مجلة خاصة بالمسمرية فى عام ١٨٤٣ سماها زويست ، استمر صدورها حوالى ثلاثين سنة . وقد شكّلت هذه المجلة أداة لجميع أولئك الذين كانوا يعملون وفق الخطوط الجديدة . ولقيت المجلة أيضًا ترحيبًا من جانب المشاركين فى عملية الاستبصار

Looloo
www.dvd4arab.com

التى وجدت رواجًا لها مع ذيوع « تحضير الأرواح » الذى انتشر كانتشار النار فى الهشيم عبر العالم كله ، وخاصة بعد وقوع الدقدقة التى لم تجد لها تفسيرًا فى بيت أسرة فوكس فى هيدسفيل عام ١٨٤٧ ، كما لقيت المجلة ترحيبًا أيضًا من جانب الذين كانوا يهتمون بفراسة الدماغ . وكانت الفراسة ذائعة وقتئذ إلى حد بعيد ، وقد لقيت اعترافًا وتقديرًا واهتمامًا من جانب كثير من الشخصيات البارزة . فلكى ترضى الكاتبة المعروفة جورج إليوت صديقها براى ، فإنها حلقت شعر رأسها تمامًا حتى تتم دراسة النتوءات الموجودة بجمجمتها بأكثر سهولة . وكذا فإن هربرت سبنسر قام بكتابة بعض المقالات حول موضع عضو الحب ، كما قدم نظرية حول عضو الإندهاش ، وإن كان قد غير وجهات نظره بعد ذلك حول هذه المسائل .

لقد كشف إليوتسون عن أفكار تتعلق بمعاملة المجرمين والأطفال استمر تأثيرها حتى وقتنا هذا . لقد وجه عواطفه دائمًا نحو الضعفاء والمظلومين ، وقدّم صورة حية تظهر ما يعانيه الأطفال من عذاب على أيدى الآباء والأمهات المتهورين وعلى أيدى المدرسين القساة أو الأطباء المتغطرسين ، وذهب إلى أن الأطفال إذا ما عوملوا بلطف ، فإن قيادتهم تكون عندئذ سهلة ، بل إن الأطفال فى معظم الحالات يكونون من الناحية الخلقية أفضل من الكبار . أما أخطاؤهم فإنها تتأتى عن معاملتهم بقسوة وبغير تبصُّر ، ويمكن تصحيح مسار حياتهم بتوفير عطف أكثر لهم بعد فهمهم على نحو أفضل . وإنك لتجد أن الكبار أنفسهم كثيرًا ما يصيرون عنيدين وسريعى الغضب بإزاء بعض المسائل التافهة . فليس من المستغرب إذن أن يفعل الأطفال الشىء نفسه . ناهيك عما يتصفون به من حساسية أكبر ومن خبرة ضئيلة . ولقد قدم إليوتسون أفكارًا مشابهة بصدد الكثير من المجرمين . والواقع

أنه كان مغرمًا بالتصدى للقسوة غير المتبصرة فى معظم أشكال العقوبات التى يوقعها القانون على المذنبين .

ومن خلال مجلة زويست افتتحت عيادات مسمرية فى لندن وإدنبرج ودبلن وغير ذلك من مدن . ووجه الاهتمام بادئ الأمر إلى معالجة المرض العصبى ، ولكنه سرعان ما اتجه إلى الإفادة من الغيبوبة المسمرية فى إجراء الجراحات كبديل للتخدير . ولقد أجريت كثير من العمليات الجراحية بغير معاناة للألم بالطريقة المسمرية . وشهد وارد وهو جراح من نوتنجهام بأنه شاهد عملية استئصال فخذ من مريض بغير ألم بالطريقة المسمرية .

أما جيمس بريد فإنه يعتبر المحوّل لدفة المسمرية من مفهوم المغنطيسية الحيوانية إلى مفهوم التنويم ، أو بتعبير آخر من التفسير الروحى إلى التفسير السيكولوجى . وهكذا دخلت المفاهيم المسمرية إلى المجال الطبى بعد أن استحالت على يديه إلى ممارسة علمية . ذلك أن بريد قد اكتشف أو أعاد اكتشاف الطبيعة السيكولوجية الحقيقية والنقية لظاهرة التنويم . كان بريد طبيبًا من منشستر ، وقد بدأ اهتمامه بهذه الظاهرة عندما قام لاقونتين وهو واحد من المسمريين بزيارة لتلك المدينة فى عام ١٨٤١ ، وبعد أن كان معارضًا تمام المعارضة للمسمرية ومنكرًا لصحتها ، فإنه عاد واقتنع بأنها ليست مجرد خداع ، وأخذ على عاتقه أن يكتشف حقيقة الأمر .

كان بريد متسمًا بالروح العلمية وبالحذر ، وقد حدا به هذا إلى التجريب على أفراد أسرته . ولشد ما كانت دهشته أن يجد أنه يستطيع أن يستحدث حالة صناعية تشبه النوم بواسطة عملية بسيطة

Looloo
www.dvd4arab.com

وذلك بجعلهم يحدّقون باستمرار فى شىء لامع موضوع فوق مستوى العينين بقليل . وقد انتهى من ذلك إلى أن المسمرية لم تكن سوى نوع من النوم يستحدث نتيجة شلل مؤقت فى عضلات الجفون الرافعة ، وذلك كنتيجة لاستمرار عملها خلال التحديق المستمر فى ذلك الشىء اللامع . ومن هنا فإن نظرية المغنطيسية الحيوانية تكون مرفوضة ، وأن الظاهرة المسمرية تعتمد برُمّتها على حالات المرء النفسية وليس كما كان يُعتقد أنها تعتمد على نقل قوة معينة تصدر عن المنوّم نفسه .

ولقد قام برايد بتقديم عروض عامة لإثبات اكتشافه الجديد وذلك بعد أن غادر لافونتين المدينة ، وكان هذا بالطبع أكثر تمشيًا مع وجهات النظر التقليدية ، وكان قبوله باعتبار أنه مناهض لإدعاء القوة الخاصة التى يدعيها المسمريون . ناهيك عن أن برايد نفسه كان منذ البداية معارضًا للمسمرية ، وقد كشف الغطاء عن خدعتها ولو أنه فى الواقع لم يزعزع الأساس الذى تقوم عليه ، بل إنه كان مجرد مفسّر جديد لظاهرة المسمرية . وهكذا يكون برايد قد استطاع أن يعقد مصالحة بين الرأى الطبى العلمى وبين المسمرية التى اتخذت اسمًا جديدًا لها هو « التنويم » . وقام فى عام ١٨٤٣ بنشر عمله الرئيسى تحت عنوان « حقيقة النوم العصبى » .

ذهب برايد فى ضوء تجاربه الأولى إلى أن النعاس يتأتى عن التعب الذى يصيب الجفون ، ولكنه صار مقتنعًا بعد ذلك بأن تضييق نطاق الانتباه لدى المرء هو المسئول عن إحداث النعاس . فإذا ما تسنى تضييق الانتباه بأى وسيلة ، فإن النعاس يحدث . وكذا فإن برايد

استطاع أن يفهم شيئًا عن الطبيعة الحقيقية للعلاقة بين المنوّم وبين المريض ، كما وقف على الآثار التى يحدثها التنويم فى الذاكرة . وبذا فإنه يكون قد فتح الطريق أمام دراسة الإيحاء والفصام المؤقت الذى ينتج فى المراحل التالية من التنويم . وتوفى برايد فى عام ١٨٦٠ وهو راضى النفس لأن آراءه وجدت قبولاً وترحيبًا من الأوساط العلمية .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل السادس

هربرت سبنسر Spencer, Herbert
وفرانسس جالتون Galton, Sir Francis
وفرانز برنتانو Brentano, Franz

لم يكن دارون ووالاسWallace الداعيين الوحيدين للتطور ، بل إن هربرت سبنسر كان أيضًا من دُعَاته ، وقد نشرت الطبعة الأولى لكتابه « مبادئ علم النفس » فى عام ١٨٥٥ ، وكان قد نشر قبل ذلك مقالاً بعنوان « الفرض الخاص بالتطور » الذى يعتبر بمثابة النتيجة المباشرة لجدل احتدم بينه وبين صديق له حول إمكانية « تحول الأنواع » . وتبعًا لما ذهب إليه سبنسر فإنه اهتم بالتطور بعد قراءته لكتاب ليل Lyell « الجيولوجيا » فى عام ١٨٣٩ ، أى بعد عام من قراءة دارون لمقال مالثوس « مقال حول السكان » . ولما بلغ سبنسر حوالى الأربعين من عمره ، قرر أن يكرس بقية حياته لتقديم عرض منهجى لمفهوم التطور بإزاء مجال المعرفة برُمّته ، وطالب بمنحة حكومية لتحقيق هذا الهدف . بيد أن الدولة لم تجد أن من مسئوليتها تمويل هذا العمل ، ولكن سبنسر صمم برغم ذلك على البدء فى مشروعه وشغل نفسه به ابتداء من عام ١٨٦٠ حتى عام ١٨٩٣

والتطور فى رأيه هو التغير من التجانس الغامض والمشوش إلى التباين المحدد والمتّسق من خلال تكاملات وتمايزات مستمرة . والواقع أن علم النفس عند سبنسر بيولوجى منذ بدايته حتى نهايته . فالحياة تتحدد بأنها « التوافق المستمر للمتطلبات الداخلية والخارجية المتعلقة بالعلاقات الخارجية . ومهمة علم النفس أن يُظْهر بالتفصيل

كيف يعتمل هذا التوافق فى سياق التطور لكى يصير أكثر اكتمالاً ، فيصير السلوك والشعور أكثر تكاملاً ، وأكثر تمايزًا فى سياق عملية التطور .

ولا يبدى سبنسر سوى اهتمام قليل بالتمييز فيما بين الجسم والعقل ، كما أنه يبدى اهتمامًا ثانويًا بتصنيف أو وصف الحالات العقلية . وتمشيًا مع نظرته الشاملة ، فإن اهتمامه لا ينصب كثيرًا على طبيعة أى ظاهرة سيكولوجية بالذات فى ذاتها ، بل ينصب أكثر ما ينصب على وسائلها ومكانها فى خطة التطور . ولقد تناوّل الترابطية إلى حد بعيد كما وجدها ، ونظر إليها فى ضوء مفهومه حول التكيف . وهكذا فإن القانون العام للترابط يمكن أن يوصف على النحو التالى « إن استمرار وجود العلاقة بين حالات الشعور يتعين بقدر استمرار وجود العلاقة بين العوامل التى تستجيب لها تلك الحالات » . فالكائنات الحية البسيطة تستجيب بطريقة بسيطة وغير متمايزة للمثيرات الفجة وغير المتمايزة . فسلوكها يشبه رد الفعل فى حالة الكائنات الحية العليا ، فسلوكها يتسم بأنه بسيط وغير متمايز ، وبالتالى فإنها لا تتكيف للبيئة إلا بطريقة فجة وعامة . أما الغريزة فإنها « سلوك انعكاسى مركّب قادر على التكيف لظروف خارجية أكثر تنوعًا وأكثر تعقيدًا » . وكلما صارت الظواهر أكثر تُعقيدًا ، فإنها تصير أيضًا أقل تكرارًا ، والعلاقة بين الظواهر الخارجية وبين الحالات الداخلية للشعور ـ وبالتالى السلوك الناتج عن ذلك ـ تصير لذلك وتبعًا للقانون العام أقل حتمية وسريعة وغير متباينة . وبهذه الطريقة تنشأ الظواهر التى نعرفها كالذاكرة والعقل والإرادة إلخ . ذلك أننا يمكن أن ننظر إلى الذاكرة باعتبارها نوعًا من الغريزة الأولية . وعندما يصير المثير والاستجابة فى ارتباط قوى بعضهما ببعض ، فإن السلوك المناسب

Looloo
www.dvd4arab.com

يصير آليًا ، ولا تكون ثمة حاجة إلى تذكر المواقف السابقة . وهكذا فإن الإرادة تكون بعيدة عن التذكر الشعورى . وعندما يُستحدث موقف معقّد ، عندئذ تحدث حيرة بين الاستثارات الآلية الوليدة ، فينتج عندئذ تردد بإزائها . وعندما يحدث ذلك التردد بين استجابات متعددة ممكنة ، عندئذ يبدأ الفكر فى البزوغ . وفى النهاية فإن استجابة واحدة تسود على جميع الاستجابات الممكنة الأخرى . ولكن المسئول عن تنفيذ تلك الاستجابة هو الإرادة ، وهى عند سبنسر شىء غامض ومعقّد للغاية . أما الأنا الذى يقوم بتنفيذ الفعل ، فإنه ليس سوى ما يكون موجودًا بالشعور فى لحظة الإرادة . وهذا المضمون الموجود بالشعور بعيد عن متناولنا أو سيطرتنا ، ومن ثَمّ فإن حرية الإرادة لا تعدو أن تكون وهمًا نخدع به أنفسنا . أما المشاعر فإنها تنمو على نحو معقّد أكثر فأكثر بنفس درجة تعقيد الفكر والفعل ، كما أن عواطفنا العميقة تستمد قوتها من الدوافع العديدة الموجودة ، وهكذا فإن العاطفة التى توجد بين الجنسين هى أكثر المشاعر تعقيدًا ، وبالتالى فإنها تكون أكثرها ترددًا . فهى تتكون من عناصر ترتبط بالرغبة الحسية وبالجمال الشخصى وبالجاذبية والإعجاب وحب التملك وتقدير الذات والاستحسان والتعاطف وأخيرًا الامتداد بحرية العمل الذى يتأتى عن الإطاحة بالعوائق التقليدية .

والواقع أن سبنسر يوافق على أفضل ما فى تراث الترابطية بالرغم من أنه يصبغ العناصر التى استقاها منها بصبغة بيولوجية وإلى حد ما بصبغة سلوكية . على أن عناصره أبسط من العناصر التى تضمنتها الترابطية السابقة ، وذلك لأنه حاول أن يرد العقل برُمّته فى نهاية المطاف إلى « صدمات عصبية » أو إلى موجات تحدث نتيجة اضطراب جزئى يتزايد فى التعقيد كلما استمر التطور . ومن جهة

أخرى فإنه يعترف خلافًا لكثيرين ممن سبقوه ، بوجود علاقات بين المشاعر الوجدانية التى تتأتى عن الصدمة الوقتية التى تحدث عند بداية وقوع حالة جديدة ، وعند الانتقال من حالة متسقة إلى حالة أخرى . وهذه العلاقات نفسها يمكن أن تصنّف فى علاقات تشابه وعلاقات تخالف ، وإلى علاقات متواكبة وعلاقات متتالية . وكذا فإن سبنسر يؤكد أكثر من الترابطيين الذين سبقوه على المدى الضيق للشعور الذى يعد فى الواقع بالنسبة له أهم الخصائص السيكولوجية إذا ما قورن بالخصائص الفسيولوجية . ذلك أن التوترات الفسيولوجية تتسم بأن التغيرات التى تعتورها تكون آنية وتتابعية فى الوقت نفسه . أما الظواهر السيكولوجية فإن التغيرات التى تعتورها تكون تتابعية فقط .

ويتباين سبنسر بصفة رئيسية عن سائر الترابطيين من حيث تأكيده على الوراثة والعوامل التى تتعلق بالأجناس . ولقد حاول أن يوفق بين أولئك الذين يؤكدون على أهمية الوراثة وبين أولئك الذين يعتبرون أن الخبرة الفردية هى المسئولة عن كل شىء ، وذلك بأن زعم أن ما يكتسبه الفرد يميل إلى حد ما — مهما كان صغيرًا — إلى أن يصير من المقومات المفطورة فى الجنس الذى ينتمى إليه . وبهذا الزعم فإنه عرّض نفسه للهجوم على أساس أنه بالغ جدًا فى التأكيد على قيمة الميل الذى تتخذه الخصائص المكتسبة لكى تنتقل بالوراثة إذا كان لها أن تنتقل على الإطلاق . ولا شك أن ما أظهرته الدراسات التالية مباشرة وبخاصة دراسات ويزمان بصدد هذه المسألة الأخيرة . قد كشف النقاب عن بطلان زعم سبنسر ، ومن ثم فإن ذلك ساعد على فقدان مذهبه للكثير من بريقه وأهميته .

Looloo
www.dvd4arab.com

بيد أن الفضل يرجع إلى سبنسر فى إلقاء الضوء بشدة على العلاقة بين البيولوجيا وعلم الاجتماع ، وما يتأتى عن تلك العلاقة من نتائج مهمة للدراسات السيكولوجية . فلم يعد العقل هو ما يقوم الفيلسوف بدراسته بعيدًا عن الواقع البيولوجى وعن الواقع الاجتماعى ، بل انتقلت الدراسات السيكولوجية من البرج العاجى للفيلسوف إلى المعمل لإجراء التجارب من جهة ، وإلى الدراسات الميدانية الاجتماعية من جهة أخرى . فالإنسان لم يعد ذلك الكائن المتفرد الذى يُدْرس بعيدًا عن الكائنات الحية أو بعيدًا عن البيئة القريبة والبيئة البعيدة ، بل صارت الدراسات السيكولوجية مرتبطة برباط وثيق بدراسة الكائنات الحية الأخرى . ناهيك عن الاهتمام بدراسة القبائل البدائية . وهكذا نجد أن علم النفس منذ سبنسر قد انفصل عن الفلسفة وصار علمًا معمليًا وإحصائيًا بالدرجة الأولى .

أما فرانسس جالتون فإنه خير من يمثل الاتجاه التطورى مطبقًا على علم النفس . وقد ولد ذلك العبقرى الإنجليزى فى عام ١٨٢٢ فى لارشز بجوار سبار كبروك ببرمنجهام ، وكان والده صاحب بنك ناجح . وهو يأتى بعد دارون . ولقد دفعه طموحه المستمر إلى تناول مشكلات جديدة مُضفيًا عليها من عبقريته وأصالته وشجاعته بالرغم من أنه ترك الكثير منها فى خطوطه العريضة لكى يتابعه من يأتون بعده . ولقد تناول العديد من الموضوعات ابتداءً من الأرياء حتى بصمات الأصابع ، ومن التوزيع الجغرافى للجمال الأنثوى إلى تطبيق الإحصاءات بإزاء توزيع الجوائز التقديرية ، ومن رفع الأثقال إلى مستقبل الجنس . ولقد أجرى بحثًا حول فاعلية الصلاة مجريًا التجارب على نفسه وعلى الآخرين من حوله .

وأول كتاب مهم له هو « العبقرية الموروثة » الذى نشر فى عام ١٨٦٩ بعد عشر سنوات من ظهور كتاب « أصل الأنواع » لدارون . وفى هذا الكتاب استخدم جالتون مفاهيم إحصائية بإزاء مشكلات الوراثة ، وحاول أن يصنف الناس المشهورين فى طبقات فى ضوء تكرار ظهور مستوى معين من القدرة فى عينات سكانية ذات حجم معين . فالمستوى (ب) وجد بمقدار شخص واحد بين ٤٣٠٠ شخص . أما المستوى (جـ) فقد وجد بمقدار رجل واحد بين ٧٩٠٠٠ شخص . أما المستوى (×) فقد وجد بمقدار شخص واحد بين مليون شخص . وقد حاول أن يثبت أن العبقرية موروثة . وأنها توجد فى أسر معينة ، وهو أمر يبدو اليوم جليًا . وأكثر من هذا فإن جالتون قال : إن الوراثة لا تقتصر على ما يتعلق بالاتجاه العام للعبقرية ، بل فيما يتعلق بأشكال معينة من العظمة .

والواقع أن الإسهام السيكولوجى البحت الذى قدمه جالتون قد احتواه كتابه « تحقيقات حول الملكة الإنسانية » الذى ظهر عام ١٨٨٣ ، ويتكون هذا الكتاب من سلسلة من المقالات القصيرة ، وجميعها تقريبًا يشق خطوطًا جديدة ، ولمعظمها أهمية تاريخية حقيقية . ولعل أهم بحوث جالتون كانت تلك المتعلقة بالمخيلة التى استحالت حاليًا إلى ما يسمى بطريقة الاستخبار . لقد كان جالتون يسأل الأشخاص الذين يقوم بدراستهم أن يستحضروا أمام « عين العقل » صورة لمائدة الإفطار ، وبعد ذلك يلاحظ مدى نصوع وتحديد وألوان الصورة المستحضرة . ومن الصور البصرية المتخيلة ذهب جالتون إلى « الترابطات بين عناصر مجالات الحواس المختلفة والأصوات والأسماء والحروف ، أو العلاقات الموسيقية التى تستثير للتو صورًا أو أفكارًا لألوان معينة » .

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى قسم آخر من الكتاب اضطلع جالتون بدراسة الترابط . فلقد وضع سلسلة من الكلمات وقدمها أولاً لنفسه . ثم أخذ يلاحظ الترابطات التى تستدعيها ، كما أخذ يسجل الوقت الذى تتم فيه هذه العملية ، ثم أخذ يلاحظ الترابطات التى تستدعيها ، كما أخذ يسجل الوقت الذى تتم فيه هذه العملية . وبهذا يكون جالتون قد سبق فندت Wundt بل وفتح أمامه المجال للتوسع فى هذا المضمار فى معمله بليبزج . وبهذه التجارب أيضًا يكون جالتون قد أوجد الجنين لطريقة الاستبطان المنهجى الذى تطور بعد ذلك على أيدى كولبه Külpe وفرزبورج .

وفى تجارب أخرى وجه جالتون الاهتمام إلى دراسة أعضاء الحواس البشرية ووظائفها ، وهنا أيضًا نجده قد ترك بصمته وبخاصة فيما يسمى « صفارة جالتون » التى صارت أداة مألوفة بالمعمل . ولقد قام جالتون بوضع اختبار للحساسية للطبقات الموسيقية العالية جدًا واستخدمها على نطاق واسع سواء بإزاء الناس أم بإزاء الحيوانات .

والواقع أن جالتون يعتبر أبًا للاختبارات العقلية ولكل ما تولد عنها من فروع وتطبيقات بصدد مشكلات التخلف والاستعدادات وللتوجيه المهنى والاختيار للمهن كما يعتبر أبًا للتحليل الإحصائى واكتشاف « العوامل » بوساطة منهج الترابط . ولقد بدأ جالتون نفسه فى دراسة الترابط لتحديد السمات العقلية ، وهو العمل الذى استمر على أيدى سلسلة من الباحثين الأفذاذ من بينهم بيرسون ووليام برون وجوذفرى وتومسون وأهم منهم جميعًا سبيرمان .

ويمكن تشبيه جالتون بشخص يركب طائرة يكتشف بها الكثير من الآفاق الجديدة التى لم يسبق لأحد من قبله اكتشافها . ولكن سرعة طائرته لا تسمح له بالتمعن والتعمق فيما استطاع أن يكتشفه .

أما فرانز برنتانو فإنه يعتبر مؤسس « علم النفس الأدائى » Act Psychology ويتضح مذهبه فى كتابه الذى صدر فى عام ١٨٧٤ تحت عنوان « علم النفس من وجهة نظر تطبيقية » . وعلم النفس الأدائى يقف فى مقابل « علم نفس المضمون » Content Psychology الذى كان شائعًا لدى التجريبيين الأولين . فالعقل فى هذا الاتجاه الأخير يسير بطريقة آلية فيعمل آليًا مستخدمًا المادة التى تتوافر له عن طريق الحواس الخمس . أما العقل من وجهة نظر علم النفس الأدائى ، فإنه هو نفسه يكون عاملاً إيجابيًا وخلاقًا . فهو شىء لا يمكن التحكم فيه ، ولا يمكن التنبؤ بنشاطه ، بل إنه بالأحرى مشمول بالغموض . ولا غرو فإن الروحانيين ينحازون باستمرار إلى هذا الاتجاه فينوطون العقل بقوى علوية فوق مستوى الواقع ، الأمر الذى يباعد بين هذا التصور للعقل وبين المعالجة العلمية .

بيد أن برنتانو يمتاز بأصالة تتجلى فى إصراره على النظر إلى العقل كعامل نشيط وفى تمسكه فى الوقت نفسه بالنزعة التجريبية . على أن الخبرة فى نظر برنتانو لا تكشف النقاب عن مضمون داخلى للإحساسات وما ترتبط به . بل تكشف النقاب عن « الأفعال » العقلية . صحيح أن الإحساسات موجودة ، ولكنها ليست عقلية فى ذاتها . وما هو عقلى هو النشاط الذى يحدث عندما « يرى » الشخص لونًا ، أو عندما « يسمع صوتًا » ، أو عندما « يشم رائحة » . وثمة ثلاث طبقات أساسية فى النشاط النفسى : الأولى ــ التصور أو التخيل ، والثانية ــ الحكم ، والثالثة ــ الحب أو الكراهية . والعقل يمكن أن يتأمل نشاطه الذاتى .

Looloo
www.dvd4arab.com

والواقع أن أهم ما أسهم به برنتانو هو تأكيده على أهمية النشاط ، أو بالأحرى عمل العقل كقوة فاعلة ومؤثرة . ولقد كان تأثيره المباشر واضحًا فى ياحثى المدرسة الأسترالية الذين أخذوا بالنظرة الجشطلتية . وبعد ذلك امتد تأثيره إلى انجلترا وبخاصة وارد وستوت ، الأمر الذى أدى إلى الإطاحة نهائيًا بالترابطية فى شكلها الكلاسيكى . واتضح تأثيره فى أوائل القرن العشرين فى أعمال مدرسة فرزبرد فيما يتعلق بعلم نفس العمليات الفكرية ، وفيما بعد فى المدرسة الحديثة للجشطلت ، كما أنه أثر فى سبيرمان بصدد تشكيله لمبادئ المعرفة .

وبالرغم من أن برنتانو نفسه لم يكن واقعيًا ، فإنه لم يكن تجريبيًا وإن كانت فاعليته قد امتدت إلى المعمل ، ومن ثم فقد صارت نتائج تأثيره على جانب كبير من الأهمية . وكان من أهم تلاميذ برنتانو بالمدرسة الاسترالية فون أفرنفلز ومينونج . ولقد قدم الأول صيغة واضحة عن مبدأ خاصية الصيغة ، كما أوضح أفرنفلز أن الصيغة أو الشكل فى المكان أو الزمان هى عنصر جديد أو خاصية مستقلة عن الأسس الحسية التى ترتكز عليها . فشكل المربع أو الدائرة أو النغمة يتم الوقوف عليه وإدراكه فى تواز مع الوقوف على العناصر الحسية المرتبطة به . أما مينونج فقد امتد بنظرية إفرنفلز وقام بتخصيبها .

★ ★ ★

الفصل السابع

وليم جيمس James, william

وهلمهولتز Helmholtz, Heinrich

وولهلم فندت Wundt, Welhelm

بدأ وليم جيمس حياته الثقافية كفسيولوجى ، ثم استحال إلى عالم نفس ، مرورًا إلى الفلسفة . ويعتبر كتابه « مبادئ علم النفس » كما يقول فلوجل Flugel, J. C. أهم مرجع فى علم النفس خلال القرن العشرين . والواقع أن جيمس لم يخطط لهذا الكتاب تخطيطًا متكاملاً ، وعندما ظهر فى هيئة كتاب ، كان قد ظهر معظم فصوله فى مجلات متباينة . وبالرغم من أن هذا الكتاب لا يتمتع بالاتساق الداخلى ، فإن محاسنه تغطى جدًا على عيوبه ، وهو يعبر فى الواقع عن شخصية مؤلفه ، فجيمس رجل عنيف ، ومع ذلك فهو عطوف ، ومتسامح ، وهو شخصية تتمتع باهتمام حقيقى وحيوى بالجنس البشرى ، أى بأفكار الناس وأفعالهم . لقد كان فيلسوفًا ، ولكنه اعتقد أن الفلسفة يجب ألا تنسلخ عن حقيقة الآمال الإنسانية وعن جوانب نضالها . أما أسلوب جيمس فإنه يتسم بالتحدى والالتزام والجاذبية . ناهيك عن أنه أسلوب أدبى رفيع . فثمة بالكتاب بعض العبارات والفقرات التى ما إن يقوم المرء بقراءتها لأول مرة حتى تصير جزءًا لا يتجزأ من مقومات ثقافته السيكولوجية . أضف إلى هذا أن الاتجاه العام فى تفكيره يتمشى بصدق مع الاتجاه الأمريكى السائد وبخاصة الفكر السيكولوجى ، أعنى الاتجاه نحو النزعة النشاطية والوظيفية ودراسة الشخصية

www.dvd4arab.com

الإنسانية والوقوف على الفروق بين الأشخاص ، بدلاً من البحث عن القوانين العامة أو اكتشاف الخصائص المتفرقة . وفى ضوء هذا يمكن أن نفهم إلى أى حد كان تأثير هذا الكتاب . ولقد صار من بين تلاميذه شخصيات سيكولوجية بارزة يكفى أن نذكر منهم أنجل وكالكنز وهيلى وسيديس وثورندايك وودورث ويركس بالرغم من أنه لم يؤسس مدرسة كما فعل فندت .

ومن الطريف فى موقف جيمس اتجاهه نحو التجريب ، فكان أول شخص يقوم بتدريس هذه المادة بأمريكا مع إجراء التجارب المعملية . ذلك أنه عندما كان يقوم بتدريس الفسيولوجيا فى هارفارد قام بتدريب طلبته على التجريب فى عام ١٨٧٥ ، أى قبل أن يقوم فندت بإنشاء معمله بأربع سنوات . وكان يشجع التجريبيين دائمًا ، كما كان على نحو ما مقتنعًا بالأهمية النهائية لنشاطهم التجريبى ، ولكنه كان شخصيًا يكره التجريب ، كما أنه كان ضيّق الصدر بحدوده ، وكان يحس بالإعجاب الممزوج بالدهشة والاحتقار تجاه أولئك الذين يتمكنون من تحمل عنائه .. ولذا فإنه انتهى إلى حل الصعوبة التى كانت تجابهه شخصيًا بأن أحضر مونستربرج إلى هارفارد فى عام ١٨٩٢ لكى يتحمل عبء هذا الموضوع .

ومن جهة أخرى فإن جيمس كان من أوائل علماء النفس الذين وقفوا على أهمية الظواهر « غير السوية » للعقل ، وما يمكن أن يستفاد منها من دورس . لقد اصطحب تلاميذه لزيارة مستشفيات الأمراض العقلية ، على الرغم من أنه فى أول الأمر كان مناهضًا لفكرة العقل اللاشعورى زاعمًا أنه يعمل على تحويل ما يمكن أن يكون علمًا إلى خزعبلات ، ولكنه صار فيما بعد موافقًا جدًا على هذه الفكرة ، بل إنه أعلن إلى مدى أبعد أن اكتشاف العمليات العقلية خارج

نطاق الشعور يعتبر أهم خطوة على الإطلاق اتخذت منذ أيام تلمذته للتقدم إلى الأمام ، إذ إنه كشف النقاب عن خاصية غير متوقعة تمامًا فى تكوين الطبيعة البشرية .

أما الاتجاه العام لدى جيمس فإنه لم يبعد كثيرًا عما ذهب إليه وارد وستوت . فهو لم يستخدم العناصرية **Elementarism** بل نظر إلى العقل بطريقة تجمع بين تشديد برنتانون على النشاط ، وبين النظرة التطورية البيولوجية . فهو يقول : إن الشعور ــ شأنه شأن جميع الوظائف الأخرى ــ قد تطور فى أغلب الظن لاستخدامه لتحقيق أهداف معينة . وذهب فى توقع منه للاتجاه البرجماتى فى الفلسفة ، إلى القول بأن « الحقائق الضرورية » ذاتها ــ التى يبدو أن لا مناص منها كالعلاقات الهندسية أو البنيات المنطقية ــ ليست حتمية فى الواقع بأى معنى مطلق ، بل اختيرت عبْر أجيال لا حصر لها من السابقين علينا من الأسلاف بفضل تلبُسهم بأنماط معينة من الفهم والاستجابة للكون . وتناظر هذه « الحقائق الضرورية » بالمعنى البيولوجى آثار الخبرة الفردية التى توطدت فينا بالتكرار ، ولكنها ما تزال تبدو أنها عارضة وليست حتمية . وعلى الرغم من المفارقة الشاسعة بين جيمس وسبنسر ، فإننا قد نشاهد هنا شيئًا شبيهًا جدًا بمحاولة هذا الأخير للجمع بين النظرية الواقعية التى تذهب إلى القول : بأن كل خبرة إنما يتم اكتسابها فرديًا ، وبين نظرية الميول الفطرية القائلة بأن ما يتم تعلمه بوساطة الفرد ينحو فى نهاية الأمر إلى أن يصير إرثًا طبيعيًا للجنس البشرى . بيد أن سبنسر يقترب من القول بتوريث الصفات المكتسبة بينما لا يذهب جيمس إلى ذلك .

Looloo
www.dvd4arab.com

وتتجلى النظرة البيولوجية لدى جيمس أيضًا فى التأكيد على الغرائز . والواقع أن جيمس هو الذى بدأ فى إذاعة التصنيفات الخاصة بالغرائز وفئاتها ، وإن كانت قائمته فجة إلى حد ما .

ولعل من أهم النظريات التى قال بها جيمس والتى أعلنها فى عام ١٨٨٤ والتى قال بها عالم الفسيولوجيا لانج بعد ذلك ، هى النظرية الخاصة بالانفعالات . وكما هو معروف جيدًا فإن هذه النظرية تحاول أن تفسر الخبرات الانفعالية فى ضوء ما يصاحبها من تغيرات جسمية . فهو قد عكس الافتراض التقليدى المتعلق بالسبب والنتيجة ، وذهب إلى القول بأن إدراك التغيرات الجسمية هو الانفعال ، وليس الانفعال هو التغيرات التى تحدث كنتيجة للإدراك . فإذا نحن قمنا بتحليل العوامل الجسمية المتباينة التى تحدث فى حالة الغضب والخوف وغير ذلك من انفعالات ، فإننا بعد إدراكنا للتغيرات التى تحدث فى دقات القلب والقشعريرة والتوترات فى العضلات وغير ذلك ، لا نجد شيئًا بعده لنذكره حول هذه الانفعالات . وفى عباراته الأصلية المتعلقة بالنظرية ، نجد أنه بالغ فى التأكيد على العضلات الإرادية ، ولكن الواضح أنه انتحى منذ البداية إلى تضمين التغيرات الحشوية أيضًا . والواقع أن هذه التغيرات هى التى أخذ يؤكد عليها بصفة رئيسية فى عرضه التالى لنظريته .

أما ثورة جيمس على العناصرية التى قال بها فندت ، فإنها تتضح فى نظريته الخاصة « بتيار الشعور » . أما نزعته النشاطية **Activism** فإنها تتبدى بوضوح فى معالجته لموضوع الإرادة . وهو يقدم وصفًا حيًا لأنماط متباينة من الاختيار واتخاذ القرارات . ولقد وجهت إليه الاتهامات بأنه لم يقدم معالجة متسقة لعلاقة العقل بالجسم .

أما هلمهولتز فإنه كان فيزيائيًا وفسيولوجيًا وسيكولوجيًا فى الوقت نفسه . وقد كان عالمًا وتجريبيًا متحمسًا . والواقع أن تجريبيته كانت من النوع المشابه جدًا لتجريبية الكتّاب البريطانيين العظام الذين كان يُكن لهم إعجابًا شديدًا . كان هلمهولتز غير راض عن العنصر الأسطورى والترانسدنتالى فى الفلسفة الألمانية ، وفى التراث القرابطى ، وقد ظل يجاهد طوال حياته لشرح الظواهر السيكولوجية فى ضوء ما يكتسبه المرء من خبرة وما يناله من تعلم رافضًا القول بالوراثة أو الملَكات . ولا يبدو أنه كان موافقًا على محاولة سبنسر للربط بين هذين الموقفين . ولقد بدا له أن هذه النظرة هى النظرة الوحيدة التى تتمشى مع الموقف العلمى . والواقع أنه كان عملاقًا علميًا ، ويشهد بذلك إنتاجه واستيعابه وأصالته وقوته فى العرض المنهجى .

وبالإضافة إلى اكتشاف هلمهولتز لسرعة التيار العصبى ، فإن علينا أن نذكر أهم مكتشفاته فيما يتعلق بالرؤية وآلية التوافق البصرى . فلقد وصف الطريقة التى تغير بها عدسات العينين درجة انحناء سطحها الخارجى تحت تأثير عضلات العين الداخلية ، كما حدد فى بحث آخر الوظائف المعقدة للعضلات الخارجية للعين التى تُمكّن العين من التحول إلى الاتجاه المرغوب . ولقد أكد نظرية العالم بل الخاصة « بالنقط المناظرة » ، وذهب إلى القول بأنه بوساطة عملية لاشعورية ، فإننا نتعلم أن نرى الأشياء بمفردها . والواقع أن هذه النظرية الخاصة بالاستدلال اللاشعورى هى إحدى النظريات التى تلعب دورًا مهمًا فى مدارسة الإدراك برُمّته . ولقد ظل فندت يأخذ بها لفترة ، وإن كان قد أسقطها من حسابه بعد ذلك . وبوجه عام فإن مذهبه يقوم على أساس المشابهة بين التأملات التى تتجر أنفا وبغير علم من

Looloo
www.dvd4arab.com

جانبنا ، وبين تلك التكاملات الأخرى الصريحة التى تنتج عن العملية اللاشعورية للتفكير .

ولا تقل نظرية هلمهولتز المتعلقة بالسمع أهمية عن نظريته الخاصة بالرؤية . فهو هنا يستخدم بإقدام وشجاعة نظرية الطاقات الخاصة . ولقد انتهى إلى القول بأن هناك عددًا كبيرًا من الخصائص الحسية الأولية لكل طبقة صوتية بدءًا من أخفضها حتى أعلاها . ولقد تدارس هلمهولتز تمييز عتبة الصوت بالنسبة للأنغام المختلفة . وتطرّق إلى اللغة فدرس الأصوات المتعلقة بالحروف المختلفة .

والشخصية الوحيدة التى يمكن مقارنتها بهلمهولتز فى تاريخ علم النفس هو جالتون . فلقد كان يتسم بالطاقة التى لا تهدأ وبحب الوقوف على الغريب والغامض ، كما كان متمتعًا بالأصالة والتشوف لاكتشاف كل جديد في مجالات بحثه . بيد أنه يتفوق على جالتون من حيث التطبيق المتسق لنظرياته وفروضه . والرجلان يشتركان فى التغطية الواسعة لمجال بعيد المدى فى بحوثهما ، وقد ترك كل منهما بصمته على جميع المشكلات تقريبًا التى قاما بالتعرض لها . وبينما كان جالتون يشق خطوطًا جديدة ويتركها لمن يأتون بعده لمدارستها بتعمق ، فإن هلمهولتز لم يكن يترك المشكلة حتى يصل إلى أغوار أغوارها دون أن يترك فجوة أو جانبًا منها بغير دراسة وتعمق .

أما ولهلم فندت فإنه يعتبر آخر ثلاثة من الشخصيات المهمة المسئولة عن ميلاد علم نفس تجريبى جديد بعد جالتون وهلمهولتز . لقد كان فندت بلا شك أقل مستوى من هلمهولتز ، سواء من حيث إحساساته العلمية فى اختيار المشكلات ، أم من حيث المناهج التى استعان بها . بيد أنه جمع بين الشجاعة والأصالة مع قدرة هائلة على العمل وتحمل المشاق . فمجرد تعداد كتاباته يدعو إلى الإعجاب .

يقول بورنج إن ما كتبه فندت قد بلغ ٥٣٧٣٥ صفحة ، وكان قد بدأ فى الكتابة وهو فى الحادية والعشرين حتى وفاته فى عام ١٩٢٠ عن ثمانية وثمانين عامًا . وقد كتب أو راجع بمعدل ٢٢ صفحة كل يوم .

وبالنسبة لعلم النفس فإنه كان بلا شك أهم الرواد جميعًا . ويرجع هذا إلى ثلاثة أسباب رئيسية : أولاً ـ لقد كان خلافًا لفختر وهلمهولتز عالم نفس بالدرجة الأولى ، بينما كانت كتاباته الفسيولوجية والفلسفية ثانوية بالنسبة لكتاباته فى علم النفس . ومن جهة ثانية فقد كان فندت أول من تصور علم النفس التجريبى كعلم وقد أطلق عليه هذا الاسم . ومن جهة ثالثة فإنه أنشأ أول معمل لعلم النفس كبيت للفرع الجديد من العلم فى سنيه الأولى . وفى ذلك البيت تم تدريب دراسى علم النفس ، ومنه انطلقوا إلى مجالات السيكولوجية لكى يضيفوا إليه مكتشفاتهم الجديدة .

لقد بدأ فندت ـ شأنه شأن هلمهولتز ـ كطبيب وسرعان ما صار فسيولوجيًا . وبدأ عمله فى هيدلبرج وقضى فترة دراسية مع جوهانز مولر فى برلين ، وبعد ذلك عاد ليحصل على درجته العلمية ولكى يدرس فى هيدلبرج ، حيث قضى ثلاثين عامًا كان فيها أستاذًا مساعدًا فى معهد هلمهولتز للفسيولوجيا . وفى عام ١٨٧١ وهو العام الذى ترك فيه هلمهولتز هيدلبرج للتوجه إلى برلين ، صار فندت أستاذًا فوق العادة ، ولكنه لم يعيَّن خلفًا لهلمهولتز . وخلال السبع عشرة سنة من الفترة التى قضاها فندت فى هيدلبرج تحول من كونه فسيولوجيًا إلى كونه عالم نفس .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد بدأ فى عام ١٨٦٧ فى إلقاء المحاضرات حول علم النفس الفسيولوجى . وفى عام ١٨٧٩ أنشأ معمله فى ليبزج . بيد أن اهتمامه بمعمله لم يستنفد طاقته ، فتحول إلى الفلسفة . وفى خلال العشر سنوات التالية ألف بحوثًا ضخمة فى المنطق والأخلاق كما ألف كتابه « نظام للفلسفة » . وبعد ذلك قام بتأليف كتابين فى علم النفس ، ثم أنشأ مجلة للدراسات الفلسفية فى عام ١٨٨٣ لكى ينشر بها البحوث التى تتم بمعمله .

وكان اهتمام فندت فى معمله بكل ما يمكن أن يخضع للتجريب السيكولوجى . وتصدر ذلك التجريب الإحساس والإدراك وتداعى المعانى . وكذا فإن فندت أجرى التجارب حول الإرْجاع وخلص من تلك التجارب إلى نتائج مهمة . وبعد ذلك امتد نشاط المعمل إلى مدارسة مجال المشاعر الوجدانية والجانب الوجدانى للعقل ، كما تمت فيه دراسات حول الانطباع والتعبير . وكان معمل فندت بمثابة نقطة الانطلاق الحقيقية لعلم النفس العلمى .

★ ★ ★

الفصل الثامن

هرمان إبنجهاوس Ebbinghaus, Herman

وجورج إلياس مولر Muller, Georg Elias Muller

وجيمس مكين كاتل Cattell, James Mckeen

وماكس فرتهيمر Wertheimer, Max

كان هرمان إبنجهاوس كعالم نفس صانعًا لنفسه إلى حد بعيد . وقد بدأ كمجرّب بغير تدريب جامعى وبغير خلفية فى الموضوع . بيد أن فخنر قد أثّر فيه ، فبعد أن حصل على درجة الدكتوراه فى بون عام ١٨٧٣ ، وكان موضوع رسالته حول فون هارتمان وفلسفته الخاصة باللاشعور ، فإنه قضى سبع سنوات فى دراسة خاصة ، وفى زيارات إلى فرنسا وإنجلترا . وتصادف وهو فى باريس أن عرّج على مكتبة تبيع الكتب المستعملة ، فوقع على نسخة من كتاب فخنر المسمى « العنصر » ، فسيطرت عليه فكرة تطبيق الطرائق التجريبية بصدد « العمليات العقلية العليا » ، وربما يكون الترابطيون الإنجليز قد حملوه على أن يجرب فى مجال الذاكرة . فأجرى خلال السنوات القليلة التالية سلسلة طويلة من الاختبارات على نفسه فحسب ، وفى عام ١٨٨٥ قدم النتائج التى توصل إليها فى كتاب .

Looloo
www.dvd4arab.com

لقد كان الترابطيون يعزون أهمية أكبر فأكبر إلى مبدأ التكرار المترابط كشرط للاستدعاء ، فاتخذ إبنجهاوس هذا المبدأ كمعيار أساسى فى الدراسة التجريبية للذاكرة . وأدرك من دراسات فخنر السيكوفيزيائية ضرورة استبعاد تأثير الأخطاء المتباينة بوساطة عدد كاف من التجارب . فلكى يكرر التجربة نفسها ، فإنه وجد أن من الضرورى توفير مادة من نفس المستوى من الصعوبة يتم تعلمها فى تجاربه المتتابعة . فكما يعرف الجميع فإن بعض القطع من الشعر والنثر يمكن أن تحفظ بسهولة أكثر من قطع أخرى . فهنا تبدّت مشكلة أمام إبنجهاوس لم تصادف العلماء السيكوفيزيائيين . ولقد استطاع هو أن يحلها بمهارة كافية وذلك باستخدام مقاطع لا تحمل أى معنى . وهكذا أعد إبنجهاوس قائمة بتلك الكلمات وبدأ فى إجراء تجاربه .

شرع إبنجهاوس فى التجريب فى « منهج التعليم » الذى فيه يلاحظ عدد مرات التكرار اللازمة لتسميع صفوف من المقاطع ذات الأطوال المتباينة ، وأيضا وفق « الطريقة التحفيظية » التى لاحظ فيها عدد مرات التكرار اللازمة لإعادة حفظ مادة معينة بعد فترات متباينة . فبوساطة الطريقة الأولى صار قادرًا على أن يرسم منحنيات تظهر كيف أن عدد مرات التكرار المطلوب تتزايد كلما كانت المادة أطول . ووجد أن الزيادة كانت سريعة جدًا . ذلك أنه بينما استطاع أن يحفظ فى المتوسط سبعة مقاطع فى المرة الواحدة ، فإنه كان فى حاجة إلى خمس عشرة مرة لحفظ اثنى عشر مقطعًا ، وثلاثين مرة لحفظ ستة عشر مقطعًا .

والواقع أن إبنجهاوس قد شق خطًا جديدًا عظيمًا فى علم النفس التجريبى ، فبوساطته فتح مجالٌ جديدٌ واسعٌ للدراسة . والعجيب أن إبنجهاوس قد شق هذا الطريق وحده متحملاً مشقة التجريب على نفسه

بدأب وشجاعة وصبر . وبفضل دراسته التجريبية حول الذاكرة ، فإنه عُين فى عام ١٨٨٦ أستاذًا غير عادى فى برلين . وإلى جانب تجاربه على الذاكرة ، فإنه قدم نظرية عن رؤية الألوان كما أنه أنشأ مجلة فى عام ١٨٩٠ لعرض التجارب التى صار من الممكن القيام بها فى هذا المضمار .

أما مولر فقد ولد عام ١٨٥٠ أى فى السنة نفسها التى ولد فيها إبنجهاوس ، وكان تلميذًا للوتز Lotze فى جوتنجن ، وخلفه على كرسيه فى عام ١٨٨١ ، وخلال شغله لهذا الكرسى لمدة طويلة فإنه صار شيئًا من ذات قوامه كما كان يقال ، وذلك كما كان حال فندت فى ليبزج . والواقع أن تأثيره فى علم النفس يمكن أن يقارن من أوجه كثيرة بتأثير فندت على الرغم من أنه كان أقل بالطبع منه مستوى . لقد صار معمله مركزًا للنشاط ، جذب إليه كثيرًا من الطلبة النابغين . والواقع أن مولر كان تجريبيًا بحتًا أكثر من فندت . فلم يقم بتأليف سوى كتاب عام صغير ، وكان ذلك فى عام ١٩٢٤ ، كما أنه لم يبلور نظامًا جديدًا فى علم النفس .

أما إسهاماته فى علم النفس ، فإنها كانت فى ثلاثة ميادين رئيسية : فى الميكروفيزياء ، وفى الإحساس البصرى ، وفى الذاكرة . أما بحثه لنيل درجة الدكتوراه فى عام ١٨٧٣ فقد كان له تأثير بعيد المدى فى جميع المجالات التالية للانتباه وبخاصة من خلال دراسة تتشنر Titchener .

وأهم البحوث التى قام بها مولر كان فى مضمار الذاكرة . ولقد شرع هو ومعاونوه فى التجريب من حيث انتهى إبنجهاوس ، وبرهنوا على فاعلية تقنية إبنجهاوس وذلك باستخدام الأدوات التى تساعد على تقديم المادة بأى سرعة مطلوبة ، لكى يتم تعلمها وإدخال قواعد معينة

Looloo
www.dvd4arab.com

بصدد اختيار المقاطع . ولقد وضعوا طرائق جديدة ، كما اضطلعوا بدراسة مشكلات جديدة . ومن حيث المنهج فإن « منهج المقاطع » Method Of Hits أثبت نجاحه وفائدته بصفة خاصة . وتبعًا لهذا المنهج يقدم المقطع إلى الشخص المختبر الذى يكون عليه عندئذ مهمة استدعاء المقطع التالى الذى تبعه فى الأصل . فهذا المنهج لم يسمح فقط بقياس عدد المقاطع التى استدعيت بطريقة صحيحة ، بل سمح أيضًا بتحديد سرعة الاستدعاء بالنسبة لكل مقطع . وبهذه الطريقة استطاع مولر أن يحدد سرعة الترابط .

وعمد مولر أيضًا إلى استخدام « منهج الترابطات المزدوجة » وهو المنهج الذى وضعه أصلاً كالكنز Calkins ، وقد وجد أن هذا المنهج مفيد فى دراسة الكثير من مشكلات الذاكرة . وفى سياق كل هذا العمل تأتت نتائج جديدة ذات قيمة . فلقد وجد على سبيل المثال أن اتجاه المتعلم كان ذا أهمية بالغة ، وأيضًا فإن نية المتعلم فى أن يتعلم كانت مسألة أساسية فى تحقيق التعلم السريع . أما التكرار بغير توافر ذلك القصد ، فإنه لم يكن ذا فاعلية على الإطلاق . ولقد وجد أيضًا أن أول سلسلة المقاطع وأواخرها كانت أسرع فى الاكتساب من وسط السلسلة ، وأنه عندما يكون هناك نوعان من الترابطات على نفس المستوى من القوة بينما يكون الأشخاص الذين يتم اختبارهم مختلفين فى العمر ، فإن التركيز يكون أقوى لدى من هم أكبر عمرًا عما لدى من هم أصغر عمرًا .

وقبل أن يعتزل مولر فى عام ١٩٢١ ، فإنه قام بتلخيص وتنظيم عمله بصدد الذاكرة فى ثلاثة مجلدات ضخمة ، ما تزال لها أهمية بالنسبة للباحثين فى هذا الموضوع .

أما كاتل فإنه يعتبر واحدًا من الرواد الأمريكيين . جاء إلى فندت من لوتزى ، ولم ينقطع عمله فى ليبزج إلا خلال فترات كان يعود خلالها إلى أمريكا حيث تتلمذ على يد هول لفترة فى جون هوبكنز . ولدى عودته إلى ليبزج فى عام ١٨٨٣ حيث قضى ثلاث سنوات ، أخبر فندت بشجاعة أنه فى حاجة إلى مساعد مع استمراره فى الاضطلاع بالمهمة التى أوكلت إليه . ومنذ البداية أبدى كاتل فكرًا مستقلاً واهتمامًا واضحًا بدراسة الفروق الفردية . وكان هذا الاهتمام نتيجة طبيعية لوجهة النظر التطورية التى صارت ملمحًا مهمًا من ملامح التفكير الأمريكى خلافًا لما يذهب إليه الألمان . ولدى عودته إلى أمريكا أنشأ كاتل معملاً سيكولوجيًا بجامعة بنسلفانيا فى عام ١٨٨٨ ، وبعد ثلاث سنوات تركه فى عُهْدة وتمار Witmer وأنشأ معملاً جديدًا فى كولومبيا حيث ظل هناك حتى عام ١٩١٧ عندما فصل من منصبه بسبب إعلانه عن وجهات نظر سلمية . وبعد ذلك أنشأ اتحادًا سيكولوجيًا ، وهى منظمة للخدمة السيكولوجية للأهداف الصناعية والعامة .

وفى عام ١٩١٤ قام طلبة كاتل بتجميع أعماله الأصلية التى كانت مبعثرة فى مقالات قصيرة وصنفوها فى ستة موضوعات رئيسية هى : وقت الإرجاع ، والقراءة ، والإدراك ، والترابط ، والسيكوفيزياء ، والفروق الفردية .

وفى عام ١٨٩٢ قام كاتل بنشر دراسة حول إدراك الفروق البسيطة حيث قدم معلومات إحصائية دقيقة لتطبيقها بصدد المناهج السيكوفيزيائية ، وحيث قدم نقدًا لنقط كثيرة تتعلق بالإجراءات والمحاولات لإحلال مفهوم الخطأ المحتمل محل مفهوم العتبة Threshold .

Looloo
www.dvd4arab.com

ويعتبر كاتل بالإجماع أهم علماء النفس فى زمانه ، وقد يشهد على ذلك انتخابه رئيسًا للمؤتمر الدولى لعلم النفس الذى عقد فى أمريكا فى عام ١٩٢٩

والواقع أن ستانلى هول وكاتل هما ألمع تلاميذ فندت وذلك بفضل دورهما المؤثر الذى لعباه فى تطوير علم النفس الأمريكى ، وقد كان لهما الفضل فى التقدم السريع لعلم النفس الأمريكى خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر . فبحلول عام ١٨٩٢ صار هناك فى أمريكا خمسة عشر معملاً لعلم النفس . وبحلول عام ١٩٠٠ صار هناك ستة وعشرون معملاً . وبذا فإن أمريكا قد بزّت أوربا فى هذا المضمار منذ عام ١٨٩٢ ، ومما يدل على أن أمريكا قد شجعت علم النفس ورحبت به أكثر من أوربا ، أن الأستاذ المتخصص فى علم النفس فى جامعاتها كان يلقب بلقب أستاذ علم النفس ، بينما ظل فى أوربا يلقب بأستاذ الفلسفة ، مما يشير إلى أن أمريكا قد سبقت أوربا فى الترحيب بعلم النفس والاعتراف به كمادة مستقلة عن الفلسفة . ناهيك عن أن علم النفس الأمريكى قد امتاز بثلاث خصائص أساسية : (١) توجيه اهتمام أكبر لوجهة النظر التطورية ، (٢) نبذ الاستبطان ، (٣) التأكيد على الفروق الفردية بدلاً من توجيه الاهتمام إلى العقل وخصائصه العامة .

أما فرتهيمر فقد اهتم بدراسة إدراك الحركة ، وكان قد تم اختراع الستروبوسكوب Stroboscope وهو الجهاز السابق على آلة السينما الحديثة ، وهو جهاز يمكن بواسطته استحداث الحركة الطبيعية بتمرير صور ثابتة فيه وذلك بتقديم سلسلة من الصور أمام العين . فتكون هناك عدة صور للشىء الواحد المتحرك ، ولكن كل صورة تكون مزاحة بعض الشىء عن الصورة السابقة عليها . فعمد فرتهيمر إلى

اختصار هذه الظاهرة إلى أبسط حدود ممكنة وذلك بأن قام بتقديم صورتين فقط كل واحدة منهما بخط واحد الأول أفقى والثانى منحدر نوعًا فى أحد الاتجاهين . وبتغيير طول فترة الانتقال بين الصورتين ، فإنه استطاع بسهولة أن يدرس الشروط التى يتسنى إدراك الحركة فى ضوئها . فوقف على أنه إذا كانت الفترة الزمنية تبلغ خمس الثانية أو أكثر ، فإن المشاهد يرى أولاً الخط الأول ، ثم يرى الخط الثانى . ولكن عندما تبلغ المدة جزءًا من الثلاثين من الثانية ، فإن الخطين يظهران بجوار بعضهما ، ولكن فيما بين هذين الحدين من الزمن . فإن المشاهد يحصل على انطباع بوجود خط واحد يتحرك من وضع إلى آخر ، وهو أمر لا يجد له ما يبرره فى الواقع الموضوعى للخطين .

وعلى الرغم من أن البحوث قبل فرتهيمر قد اهتمت بدراسة الوقت والمسافة ، فإنها أهملت دراسة الحركة التى من شأنها مدارسة إدراك الوقت والمسافة مجتمعين . بيد أنه قدم مركبًا جديدًا لا يمكن رده إلى ما هو أبسط منه . فهذا الإدراك لهذا المركب ليس مجرد إحساس أو وقوع سلسلة متتابعة من الإحساسات ، بل هو ظاهرة جديدة قائمة بذاتها أطلق عليها اسم الفيفينومينون Phi -- Phenomenon .

إذن فالقيام بالتحليل إلى عناصر حسية لا يجدى نفعًا بهذا الصدد . وعلى هذا الأساس بزغت فكرة جديدة هى دراسة الإدراك نفسه . وكان السؤال الذى أثير هو : هل نحن ندرك الكليات أولاً ، أم أننا ندرك الجزئيات ثم نقوم بعد ذلك بتركيب كليات منها ؟ وبدأ التجريب فى المعمل ووجد بما لا يدع مجالاً للشك - وبتأييد من الشواهد اليومية - أننا فى عملية الإدراك ندرك كليات كالشكل والحجم والوضع ،

Looloo
www.dvd4arab.com

ولا ندرك العناصر التى تتبنى منها تلك الأشياء كما زعم الترابطيون ، أو كما حاول بعض علماء النفس ذلك بتحليل العقل والمدركات الذهنية .

وهكذا بدأ فرتهيمر ومعه عالمان آخران هما كهلر Kohler وكوفكا Koffka بشن حرب على علم النفس الذى يعتمد على العناصر والترابط . وقد ظل هؤلاء الرجال الثلاثة يقودون الحركة الجديدة التى سميت بالجشطلت ، وتتابعت تجاربهم التى تركزت بصفة خاصة فى مجال الإدراك برغم امتدادها أيضًا إلى مجالات السلوك الإنسانى والحيوانى فيما يتعلق بالتعليم والذكاء ، كما امتدت أيضًا إلى الفسيولوجيا والبيولوجيا والفيزياء .

★ ★ ★

الفصل التاسع

بافلوف Pavlov, Ivan Petrovich

وواطسون Watson, John

ومكدوجال Mcdougal, Willeam

ولد بافلوف فى عام ١٨٤٩ فى ريازان وهى بلدة إقليمية فى وسط روسيا . وكان أكبر إخوته الذين مات معظمهم فى الطفولة . وكان جده فلاحًا بينما كان والده قسيسًا . اشتملت قراءاته الأولى على مؤلفات هربرت سبنسر وقد صار أثيرًا لديه ، ثم مؤلفات شارلز دارون الذى سيطر بمؤلفاته على ذهنه طوال حياته . وانكب على قراءة الفسيولوجيا وبخاصة ما كان متعلقًا بالجهاز الهضمى وحصل بعد أربعين عامًا من العكوف على قراءة ومدارسة الجهاز الهضمى على جائزة نوبل .

وكان أكثر من تأثر بهم وهو طالب بجامعة بترسبرج هو أستاذه الياسيون أستاذ الفسيولوجيا . فصمم على أن يصير عالمًا تجريبيًا فى مجال الفسيولوجيا برغم أن هذا المضمار لم يكن ليدر عليه إلا قليلاً من المال .

لاحظ بافلوف أن الكلب يمكن أن يفرز اللعاب ، ليس فقط عندما يقدم إليه الطعام ، بل أيضًا عندما يقدم إليه مثير مرتبط بالطعام . وعلى أساس هذه الملاحظة استطاع هو وتلاميذه تناول العديد من

Looloo
www.dvd4arab.com

المشكلات . والواقع أن العمل بمعمل بافلوف يعتبر واحدًا من أعظم الأمثلة على التنسيق بين البحوث والتآزر خلال فترة طويلة لم يسبق لها مثيل فى مجالى الفسيولوجيا وعلم النفس .

ولقد أفضت بحوثه وبحوث تلاميذه ومعاونيه إلى نتائج مهمة فى مجال الفعل المنعكس الشرطى نركز كلامنا على أربع منها على النحو التالى :

أولاً ـ إن المشكلة الأولى والأساسية التى جابهت التجريب بصدد الفعل المنعكس الشرطى كانت عملية خلق الانعكاسات المتعلقة بسيلان لعاب الكلب . فمن الناحية العملية فإن أى مثير يمكن أن يعمل كمثير شرطى بشرط أن يقدم قبل المثير الطبيعى وليس بعده . وحتى بالنسبة للمثيرات التى تثير الألم فإنها لا تستثنى من هذه القاعدة . وهذا فى ذاته كان سببًا فى ظهور صعوبة معينة ، هى أن أى حركة غير مقصودة من جانب المجرب يمكن أن تلعب أيضًا دورًا كمثير شرطى . فلكى يتسنى تجنب هذه المشكلة فإن معملاً خاصًا قد تم بناؤه على نفقة الحكومة السوفيتية لبافوف ، وظل الجهد فى هذا المضمار مستمرًا لتوفير الانضباط فى التجريب طوال إجراء التجارب المتعلقة بالفعل المنعكس الشرطى .

ثانيًا ـ صار من الممكن أيضًا تدريب الكلاب على أن تُسيل لعابها فى فترات متباينة بعد وقوع المثير الشرطى . والمدهش أنه صار بالإمكان تدريب الكلب على أن يُسيل لعابه بعد ثلاثين دقيقة من وقوع المثير الشرطى وليس قبل أو بعد ذلك بدقيقة واحدة .

ثالثًا ـ أجريت التجارب أيضًا بصدد انطفاء الاستجابة الشرطية وذلك بالاستمرار فى تقديم المثير الشرطى دون أن يتبعه تقديم المثير الطبيعى عدة مرات .

رابعًا ـ وأهم من كل هذا تلك التجارب التى أجريت بصدد حدة الحواس والتمييز فيما بين المحسوسات . وعلى هذا فقد وجد أنه إذا ما وجهت العناية لتجنب اللمعان ، فإن الكلاب لم تكن تستطيع إدراك اللون باعتباره متمايزًا من الضوء والظل . ومن جهة أخرى فكما كان متوقعًا فإن قدرتها على تمييز المشمومات كانت كبيرة جدًا . فهى تستطيع أن تكتشف بسهولة المثيرات الشمية الضعيفة جدًا حتى ولو خلطت بخليط من المشمومات الأخرى . أما بالنسبة للسمع فقد أمكن إثبات ما ذهب إليه جالتون من أن مدى السمع لدى الكلاب أعلى منه لدى الإنسان . فالناس يستطيعون سماع طبقات الصوت التى تصل إلى خمسين ألف ذبذبة فى الثانية على الأكثر ، بينما تستطيع الكلاب سماع الأصوات التى تبلغ مائة ألف ذبذبة فى الثانية .

وأفضت التجارب أيضًا التى قام بها بافلوف وتلاميذه إلى أن الانعكاسات الشرطية لا يمكن أن تحدث خلال النوم ، وكذا فإن استئصال مناطق معينة بقشرة المخ يُفضى إلى فقدان الانعكاسات الشرطية ، أو يُفضى إلى العجز عن تشكيلها ، بالرغم من أن هذه القدرة على تشكيلها يمكن أن يعاد اكتسابها على أية حال بدرجة ما ، مما يثبت أن هذه الوظيفة يمكن أن توكل إلى مناطق أخرى بقشرة المخ .

وبوساطة استخدام طرائق أكثر تطورًا فى التجريب خلال فترة طويلة ، أمكن تحديد نوع من العتبة التمييزية لدى الكلب بالنسبة للإحساسات المتباينة . وعلى هذا الأساس فإذا ما قدم الطعام باستمرار بعد تقديم علامة صوتية ذات طبقة معينة ، وليس بعد علامات من أية طبقة ، فإن الكلب قد يتمكن فى نهاية المطاف من تمييز الفترات حتى ولو بلغت ثُمن نغمة . فإذا قصُرت الفترة عن ذلك فإن الكلب يبدى

Looloo
www.dvd4arab.com

عجزًا تامًا عن التمييز ، ويصير هائجًا ، مما يشير إلى إحداث نوع من العصاب لديه .

والواقع أن بافلوف قد ركز خلال حياته العلمية التجريبية على ثلاث مشكلات تجريبية فقط : المشكلة الأولى تختص بوظيفة أعصاب القلب . ولقد قدم جانبًا من هذا العمل فى بحثه الذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراة فى الطب ، وهى الدرجة التى نالها فى عام ١٨٨٣ ، أما المشكلة الثانية فقد كانت متعلقة بنشاط الغدد الهضمية الرئيسية ، وساعدته تجاربه الرائعة والرائدة فى هذا المضمار على نيل شهرة عالمية . أما المشكلة الثالثة ـ وهى التى تناولها ابتداء من عام ١٩٠٢ حتى وفاته فى عام ١٩٣٦ ـ فقد انصبت على وظائف المراكز العصبية العليا بالمخ . والواقع أن استخدامه لمبدأ الاشتراط كوسيلة لتناول هذه المشكلة ظل أعظم منجزاته العلمية . ولا شك أنه كان يمتاز بالدأب وبتكريس جماع طاقته لمشكلات قليلة محددة تحديدًا جيدًا ، ثم استمراره فى تناولها بتعمق مستمر بحيث يصل إلى أغوارها .

وبالنسبة لمدارسته للجهاز الهضمى فإنه اتبع فيها خطين أساسيين : الأول ـ تحليل التحكم العصبى والنظام الذى تتبعه الغدد الهضمية ، والثانى ـ دراسته للوظيفة العادية للغدد فى ظل الظروف العادية . والواقع أن نجاحه الملحوظ فى هذه التجارب إنما يعزى إلى حد بعيد إلى استخدامه لطريقة الإعداد طويل الأمد بدلاً من طريقة الإعداد الجاد المتقطع . ففى التجريب الجاد تجرى التجربة على الحيوان المخدّر ، ويقوم الملاحظ بتسجيل الملاحظات التجريبية مباشرة ، بينما تكون الأعضاء التى خضعت للجراحة معروضة أمامه . ولكن بافلوف اكتشف أن الجراحة ذاتها تحول فى ذاتها دون إحداث السيلان

المطلوب دراسته . فلكى يحاول التجريب دون حدوث أى آثار غير طبيعية للعملية الجراحية ، فإنه اضطلع بمهمة على جانب أكبر من الصعوبة هى القيام بالاستعدادات طويلة الأمد . فبهذه الطريقة يمكن أن تدرس العمليات الهضمية لدى الكلاب فى ظل ظروف حياة طبيعية . ولقد كان الهدف من العملية الجراحية هو جعل عملية الهضم مرئية من جانب العالم المجرّب . فالمشاهدات التجريبية لم تكن لتبدأ حتى تكون العملية قد انتهت كما أن الجرح يكون قد التأم . ولقد كانت الحيوانات الخاضعة للتجريب الممتد لمدة طويلة فى معمل بافلوف من الكلاب دائمًا ، وكانت خاضعة للتجريب الطويل ولإجراء تجارب متنوعة عليها ، وأهم من ذلك أن أجهزتها الداخلية كانت تعمل بطريقة طبيعية على النحو الذى كان بافلوف يرمى إلى تفهمه .

أما الطريقة العامة التى استخدمها فى إعداد الحيوانات الخاضعة للتجريب الطويل ، فإنها تتلخص فى تحويل مجرى سيلان اللعاب أو إفراز أية غدة أخرى من خلال أنبوبة إلى خارج جسم الحيوان ، حيث يتسنى جمعه وقياسه . وطالما كان فى الإمكان ملاحظة وقياس العصارة الهضمية ، فقد أمكن اكتشاف الظروف التى أثرت فيها ، أى التى عملت على زيادة أو نقص معدل التدفق . وفى بعض الأحيان كانت العمليات صعبة للغاية ، وذلك لأنه كان من الضرورى أخذ الحذر من إصابة الأعصاب بضرر أو من عدم توافر توزيع الدم بطريقة سوية . ولقد صارت قدرة بافلوف على حل هذه المشكلات ببراعة ومهارة مذهلة فى إجراء الجراحة الضرورية ، أسطورة بين علماء الفسيولوجيا .

أما نتائج هذه التجارب جنبًا لجنب مع التفسير النظرى الذى قدمه بافلوف، فقد لخصت فى عام ١٨٩٧ تحت عنوان « عمل الغدد الهضمية » .

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى ذلك الكتاب قام بذكر بعض أنواع الشذوذ والتوقفات التى بدت كأنها وظائف طبيعية للغدد الهضمية ، وقد عزا ذلك إلى أسباب سيكولوجية . فقد لاحظ مثلاً أن الغدد فى بعض الأحيان قد تبدأ فى العمل قبل أن يقدم الطعام إلى الكلب . فالكلب يبدأ فى إفراز العصارات الهضمية حالما يرى الرجل الذى اعتاد أن يقدم إليه الطعام . ولقد أدت هذه الملاحظة التى لم يكن من الممكن ملاحظتها إلا فى ظل الإعداد الطويل ، قد أدت إلى اكتشاف مبدأ الانعكاس الشرطى .

ومن تجاربه الشهيرة بصدد الانعكاس الشرطى تجربة مصاحبة الجرس لتقديم الطعام . فلقد وجد أن الجرس وحده يمكن أن يعمل على سيلان لعاب الكلب . وفى ضوء هذا الاكتشاف الذى يبدو بسيطًا للغاية ، والذى يمكن أن يلاحظه أى شخص فى حياته اليومية بإزاء نفسه أو بإزاء الآخرين من حوله ، انفتح مجال ضخم فى علم النفس هو السلوكية Behaviorism .

ولقد استطاع واطسون أن ينتقل بالانعكاس الشرطى الذى كشف بافلوف النقاب عنه إلى ميدان الإرادة . فلقد استطاع أن يستحدث إرجاعات خوف شرطية لعدد من المثيرات ، كما فعل بصدد الطفل عندما يريه حيوانًا وفى الوقت نفسه يحدث صوتًا عاليًا ، فوجد أن إرجاع الخوف يتأتى مباشرة بعد مشاهدة هذا الحيوان . فالانعكاسات الشرطية من هذا النوع كان من الصعب العمل على انطفائها . ولقد اعتقد واطسون نفسه أن تلك التجارب تكشف النقاب لنا عن الطريقة التى تحدث بها المخاوف غير المعقولة لدى الشخص العصابى . والواقع أن الكثير من السلوكيين ينظرون إلى الانعكاس الشرطى باعتباره النمط الذى تكتسب بوساطة جميع التعديلات السلوكية . ذلك أن الانعكاس الشرطى قد أخذ يضطلع بالدور الذى كان يلعبه قبلاً

« ترابط الأفكار » . فالسلوكية بهذا التفسير هى فى الواقع نوع من الترابطية الموضوعية . فلقد ينظر إلى الدور الذى يحتله واطسون باعتبار أنه المناظر للدور الذى كان يحتله جيمس مل فى القرن السابق ، أعنى القرن التاسع عشر . ولا شك أن نفس الاعتراضات التى سبق أن وجهت إلى جيمس مل لأنه ألغى الهدفية من النشاط العقلى توجه بالمثل إلى واطسون .

وأهم تجربة اضطلع بها واطسون بصدد علم النفس الحيوانى قام بها عام ١٩٠٧ ، أى قبل أن يبلور برنامجه السلوكى بست سنوات . فلقد درّب الفئران البيضاء على أن تجرى فى متاهة ، وأخذ يستأصل حاسة بعد أخرى بوساطة عمليات جراحية مناسبة ، ووجد أن الفئران قد استطاعت أن تجوب المتاهة عندما لم يبق لها سوى حاسة الحركة . وخلُص إلى أن تلك العملية التى استطاعت الحيوانات أن تجد طريقها بوساطتها قد تشكّلت من سلسلة من الانعكاسات العضلية . وبعد ذلك قام لاشلى Lashley باستئصال هذه الحاسة أيضًا وذلك بقطع ممر التوصل فى السلسلة الفقرية ، فكان أن استمرت الفئران قادرة على أن تجوب المتاهة بنجاح . وفى محاولة تفسير هذه النتيجة المدهشة فإنه قال : بأن الفئران قد اكتسبت نوعًا من التوجه العام فى اتجاه فتحة الخروج بالمتاهة . والواقع أن هذا تفسير يؤيد ما ذهب إليه الجشطلتيون أكثر مما يؤيد ما ذهبت إليه السلوكية .

المهم أن واطسون ـ وأيضًا بافلوف ـ قد أنكرا وجود الشعور . وحتى إذا كان هناك ما يسمى بالشعور ، فإنه لا يمكن أن يشكّل ركيزة لعلم النفس . وعلى هذا فمن الواجب أن يكون هذا العلم هو علم السلوك وليس علم الشعور . ويرجع واطسون قول بعض علماء النفس بالشعور والاستبطان ونحو ذلك من مفاهيم إلى النقص الشديد فى

www.dvd4arab.com

قدرتهم على الوقوف على أسرار علم الفسيولوجيا . ولا شك أن الهجوم الذى شنه واطسون على طريقة فندت الاستبطانية كان هجومًا ناجحًا لدرجة أن بعض علماء النفس اليوم يستشعرون الخجل عندما يسمحون لأنفسهم بالإشارة إلى العقل والشعور والانتباه والإحساس ... إلخ .

وهذا يظهر كيف أن مفهوم الانعكاس الشرطى قد أثّر بشكل واضح فى السلوكية . فإذا نحن تناولنا هذه النزعة السلوكية باعتبار أنها مطلب منهجى لا باعتبارها عقيدة ميتافيزيقية ، فإننا سنجد أنها قد أحلّت مفهوم الاستجابة الشرطية محل المفهوم الذرى الذى كانت تقول به الترابطية .

والمهم فى السلوكيات التى قال بها واطسون أنها استطاعت أن تحل مفهوم السلوك محل مفهوم الشعور بصدد الكثير من جوانب الحياة السيكولوجية . ولو أن واطسون كان ذا فكر فلسفى راسخ ، لكان إذن قد قدم السلوكية كنظرية برجماتية للعقل كما فعل بيرس Pierce بصدد نظريته الخاصة بالمعنى ، أو كما فعل جيمس بصدد نظريته البرجماتية حول الحق ، أو كما فعل ديوى Dewey فى نظريته البرجماتية حول القيمة . ولكن فضل واطسون يتبدى فى أنه فتح المجال أمام جميع السلوكيين الذين أتوا بعده وأكملوا مشواره . والمهم أن السلوكية بجميع صورها وامتداداتها تعتبر العقل شيئًا يعتمد فى وجوده على السلوك الذى نلاحظه . فالوجود الحقيقى ليس وجود المفهوم ، بل وجود الأداء أو السلوك .

وما يؤكده واطسون أن هدف علم النفس السلوكى هو أن يكون قادرًا على تقديم المثير وأن يتنبأ بالاستجابة التى سوف تحدث بعد اعتمال ذلك المثير ، أو بتعبير آخر أن علم النفس السلوكى يمكننا من

مشاهدة الاستجابة التى تقع ، فنستطيع أن نقف على المثير الذى أحدث تلك الاستجابة . وهكذا نجده يؤكد هذه الحقيقة البسيطة ، وهى أن كل شىء نقوم بفعله إنما يتكون فى النهاية من حركة شىء مادى من مكان لآخر . فليست هناك استنتاجات استبطانية حول أى شىء عقلى غامض . فالظواهر العقلية قد رُدّت إلى شواهد سلوكية استخلصت منها . فالإحساس والإدراك هما مجرد استجابات تمييزية . وكذا فإن التعلم والذاكرة يمكن ردهما إلى الاشتراط . ويمكن رد الفكر إلى الكلام وإلى حل المشكلات . ويمكن رد الباعث والقيمة إلى الخيار من بين الأشياء . ويمكن رد الانفعال إلى نشاط الجهاز العصبى الأوتونومى وإلى الغدد والعضلات الناعمة . فكل شىء غير محسوس يمكن رده عند السلوكيين بزعامة واطسون إلى ما هو محسوس . وهكذا نجد أن السلوكية كانت خلال العشرينيات ذات أهم تأثير فى التفكير السيكولوجى بالولايات المتحدة .

وفى ضوء السلوكية يجب تحاشى استخدام كلمة « إحساس » ، وأن تحل محلها ألفاظ مثل « الاستجابة السمعية » و« الاستجابة للضوء » إلخ . والشىء نفسه ينطبق بإزاء « الصور الذهنية البعدية » التى لا تعدو أن تكون أشكالاً من الاستجابة المتأخرة . وحيث إن الإحساس والصور الذهنية البعدية لا تُفضى إلى سلوك خارجى يمكن ملاحظته ، فلا يكون هناك مناص إذن من الاستعانة بطريقة خاصة هى التقرير « اللفظى » فى حالة الأحاسيس التى يدركها المرء ذاتيًا ، وكذا بإزاء الصور البَعْدية ، فلم لا يسمح بالشىء نفسه بالنسبة لما يدور بخلد المرء من فكر وشعور وعاطفة ؟ بيد أن السلوكيين ــ وعلى رأسهم واطسون ــ يحاولون الإجابة بالتمييز فيما بين السلوك الظاهرى وبين السلوك الباطنى وكلاهما لا يخرجان عن نطاق الحركات الجسمية .

www.dvd4arab.com

أما مكدوجال فإنه على الرغم من أنه كان مهتمًا فى الأصل بموضوع الطاقة العصبية ، فإنه وجه اهتمامه فيما بعد إلى موضوع يرى أنه أهم موضوع فى علم النفس ، هو موضوع الغائية أو وجهة النظر الغرضية للحياة والعقل ، وهى وجهة النظر التى سميت فيما بعد بالنظرية « الغريزية » Hormic . وهذه النظرية الغريزية هى التى جعلته فى صراع عنيف مع النظريات الميكانيكية التى نادى بها السلوكيون ، فصار المعارض الرئيسى لهم فى أمريكا حيث احتل كرسيًا فى هارفارد بعد نهاية الحرب بعد أن قام بالتدريس فى كامبردج ولندن وأوكسفورد . ولقد بدأت نظريته الغريزية فى البزوغ مع ظهور كتابه « مدخل إلى علم النفس الاجتماعى » فى عام ١٩٠٨ ، وهو الكتاب الذى فاق أى كتاب آخر فى علم النفس من حيث عدد طبعاته . وكان هدفه من تأليف هذا الكتاب أن يوفر أساسًا سيكولوجيا للعلوم الاجتماعية . فلقد أدرك أن علم النفس الحديث لم يُقم الاعتبار للجانب الإرادى والعاطفى للعقل . فهو برغم تقدمه الأكيد الذى أحرزه فى العديد من الاتجاهات ، فإنه لا يزال عديم الفائدة إلى حد بعيد فى نظر المؤرخ وعالم الاجتماع وعالم الأنثروبولوجيا وعالم الاقتصاد ، الأمر الذى حدا بهم جميعًا إلى إنشاء علم نفس خاص بهم يخدم أهدافهم . فحاول مكدوجال أن ينشىء علم نفس يسد حاجات العاملين فى هذه العلوم الشقيقة ، وإن كان فى الواقع لم يف بالغرض الذى صبا إليه .

بيد أن « علم النفس الاجتماعى » لديه كان تعبيرًا بلا شك عن تقدم عظيم فى معالجة الغريزة والانفعال والقيم الخلقية ، بالإضافة إلى أن تحليله لهذه العوامل كان أكثر منهجية وأكثر دقة وأكثر ارتباطًا بالحياة الواقعية من أى محاولة سابقة فى هذا الاتجاه .

ويذهب مكدوجال إلى أن الوقوف على دور الغريزة مهم للغاية فى فهم السلوك . فالغرائز هى قنوات محددة وراثيًا لتفريغ الطاقة العصبية . فهى « استعدادات سيكوفيزيائية » .

وللغرائز ثلاثة جوانب أساسية : جانب مورد Afferent أو إدراكى ، يكون لدينا بفضله ميل « لإدراك موضوعات من فئة معينة أو للإنتباه إليها » ، ثم جانب مركزى أو وجدانى أو عاطفى نميل بوساطته إلى « ان نمر بخبرة أو استثارة معينة ذات خاصية معينة » وذلك لدى إدراك تلك الموضوعات ، ثم أخيرًا جانب مصدّر efferent أو جانب حركى نميل بواسطته إلى تقديم رد فعل على تلك الموضوعات بطريقة معينة .

والملمح الجديد لهذا المفهوم المتعلق بالغريزة هو تضمينه للفهم المركزى الذى يتضمن علاقة مباشرة بين الغريزة والانفعال . فلكل غريزة رئيسية انفعالها المميز لها ، بحيث يمكن إيقاظه فيُشكّل جزءًا رئيسيًا من وظيفة الغريزة . وهكذا نجد أن انفعال الخوف يتوافق مع غريزة النبذ ، وأن انفعال العطف يتوافق مع غريزة الأمومة وهلم جرا .

بيد أن هناك صعوبة واضحة تنشأ عن أن بعض الميول تعتبر فى العادة من بين أهم الغرائز ، ولكن ليس لها ذلك الجانب الوجدانى الذى اعتدنا أن نعنته بأنه « انفعال » . مثال ذلك غريزة الاغتذاء . ولكن مكدوجال يحاول تذليل هذه الصعوبة بالإشارة إلى أن الغرائز تتباين فى مدى تعقدها بالنسبة للتكيف الجسمى ، وأن الانفعالات تتباين فى نوعياتها . فإذا نحن صنّفنا الغرائز فى سُلّم بترتيب تنازلى من حيث مدى تعقُّد التوافق الجسمى ، فإننا نجد أن نوعية الاستثارة الانفعالية تقل شيئًا فشيئًا من حيث تحديد نوعياتها . والواقع أن اللغة اليومية

Looloo
www.dvd4arab.com

تتضمن ألفاظًا محددة تشير إلى انفعالات محددة مثل الخوف والغضب والتقزز ، وهى تلك التى توجد فى قمة السُلم ، بينما هناك ألفاظ غير محددة تحديدًا جيدًا تشير إلى الانفعالات الأقل تحديدًا ، وهى التى تقع فى أسفل السُلم ، حيث نجد « غريزة التملك » ومعها على الجانب الانفعالى « الشعور بالملكية » ، ثم هناك أيضًا غريزة البناء ومعها على الجانب الانفعالى « الشعور بالإبداع » . ثم هناك « غريزة الضحك » ومعها على الجانب الوجدانى « اللهو » و« البهجة » و«« الاسترخاء » . وإلى جانب هذه الغرائز هناك غرائز ثانوية مثل غريزة « الهرش » وغريزة « العطس » وغريزة « السعال » وغريزة « التبول » وغريزة « التبرُّز » إلخ . وهى غرائز بسيطة جدًا فى تعبيرها الجسمى بحيث لا نستطيع أن نحدد خصائص استثارية محددة تتواكب مع ممارستها .

وواضح أن هناك صعوبات سواء بصدد المفهوم العام أم بصدد التصنيف الخاص بالرغم من أن المشكلتين تترابطان ببعضهما . ذلك أن تصنيفنا للغرائز يجب أن يعتمد بالضرورة على وجهة نظرنا فيما يتعلق بتركيب الغريزة كائنة ما تكون ، وبغض النظر عن الصعوبة التى ذكرناها هنا فيما يتعلق بالعلاقة بين الغريزة والانفعال ، فإن هناك مشكلات أخرى تتعلق بالخط الفاصل بين الانعكاسات وبين الغرائز ، إذ كيف نستطيع أن نميز بين الغرائز وبين العادات ؟ إن مذهب مكدوجال كان عُرْضة لكثير من الهجوم فيما يتعلق بهذه النقاط . فقد قيل ـ كما فعل درفر Drever فى كتابه « الغريزة عند الإنسان » (١٩١٧) ـ إن من الممكن أن ننظر إلى الانفعال كعامل مساعد من وجهة النظر الغريزية عند مكدوجال فى حالة إعاقة الغريزة فحسب ، وفى حالة بعض الغرائز وليس بإزائها جميعًا . بيد

أن هذا الاعتراض الأخير قد أجاب عليه مكدوجال بتمييزه بين النوعيات المتباينة للانفعالات المختلفة . ولقد يقال أيضًا بصدد الاعتراض السابق إن الغريزة هى أيضًا لا تستثار إلا عندما يكون هناك عائق أمامها على الأقل ، بمعنى أن الكائن الحى لا يبدى غرائزه إلا عندما يكون معرَّضًا لمثير معين يعمل على إحداث اضطراب فى توازنه السيكولوجى . وهكذا فإن الغرائز يمكن أن توجه النظر إلى التوتُّرية فى النشاط العقلى ، وهى وجهة النظر التى وجدناها متجلية عند هربرت سبنسر ومدرسة الجسطلت ، والتى أخذت تلعب دورًا كبيرًا فى علم النفس بوجه عام . ومكدوجال نفسه بالرغم من اهتمامه بالطاقة الوجدانية ، فإنه نادرًا ما تناول هذه الزاوية .

أما الصعوبة الأخرى التى ذكرناها قبلاً ، أعنى التمييز بين الغريزة من جهة ، والانعكاسات والعادات من جهة أخرى ، فإنها قد شكّلت أرض معركة بين مكدوجال والسلوكيين . فلقد شن عليه جويسى وبرنار وآخرون حملة عاتية وقوية بصدد مفهوم الغريزة برُمَّته لدرجة أن هذا اللفظ صار الآن مستبعدًا تمامًا من أقسام علم النفس بالجامعات الأمريكية . هؤلاء السلوكيون يعتبرون الغريزة مفهومًا غامضًا ومشوَّشًا يجب ألا يحتل أى مكان بين المصطلحات العلمية ، ومن السهل عليهم لدعم مقصدهم أن يشيروا إلى الطرائق المختلفة التى استخدم فيها هذا اللفظ وإلى التصنيفات المتباينة للغرائز الإنسانية التى صنفها أولئك الذين ظلوا يؤمنون بها . والواقع أن الاختلاف الأساسى بين هؤلاء الكتاب وبين مكدوجال هو أنهم غير مستعدين لاعتبار الأعمال الغريزية هى تلك الأفعال التى تؤدى بوساطة استعداد فطرى لدى الفرد والتى لا علاقة لها بالخبرة بأى حال من الأحوال . وبالتالى فإن الغرائز تكون مرادفًا للانعكاسات .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكن الأمر ليس كذلك عند مكدوجال . ذلك أن جوهر النظرة الغريزية لديه هى أن الغرائز تمدنا برغبات أولية وأهداف أولية تظل تعبر عن نفسها بطرائق متباينة تبعًا للخبرة الماضية ، وتبعًا للمواقف الراهنة إلى أن يتم إشباعها . وفى سياق هذه العملية الخاصة بالبحث عن الإشباع ، فإن الغرائز تخضع للتراكب والتعديل ، بمعنى أنها تستثار بوساطة موضوعات تختلف كثيرًا أو قليلاً عن تلك الموضوعات التى تستحثها بالفطرة ، وهو الأمر الذى يقره السلوكى بالرغم أن من الأرجح أنه سوف يستخدم لفظ « الانعكاس الشرطى » بصدده .

وعلى أساس مفهوم الغريزة فإن مكدوجال شيّد مذهبًا سيكولوجيًا للإرادة والعاطفة . فالغريزة لا تنحو إلى أن تتخذ طريقًا فى اتجاه بالذات أو بصدد موضوعات بالذات كما يحدث مثلاً بالنسبة للغريزة الجنسية فى التكيف الناجح للزواج الأحادى ، بل إن الغرائز المتباينة تصير منتظمة بصدد أشياء بالذات بوساطة العواطف . وهكذا فإن الأم التى تحب طفلها سوف تحس بالخوف عندما يكون ذلك الطفل فى خطر ، كما تحس بالغضب عندما يُجرح أو يُهدد ، وبالحزن عندما تفقده ، وبالفرح عندما يزدهر ، والإمتنان لأولئك الذين يُسْدون له المساعدة . أما العاطفتان الرئيسيتان فهما عاطفة الحب وعاطفة الكراهية بالرغم من أننا نستطيع بالطبع أن نصنف العواطف تبعًا لموضوعاتها التى قد تتمثل فى أشخاص ، وذلك عندما نحب شخصًا بالذات ، أو قُطْرًا أو طبقة أو فئة أو خصائص مجردة كأن نحب الفضيلة أو الإخلاص . ويرى مكدوجال أن هذا التنظيم للغرائز فى عواطف هو الذى يُضفى النظام والاتساق على حياتنا الإرادية والوجدانية .

ومن الأهمية بمكان بهذا الصدد أن نذكر « عاطفة اعتبار الذات » Self -- Regarding Sentiment وهى العاطفة التى تنتظم الغرائز والانفعالات المتباينة فيها حول الذات . فلدى الشخصية المتكاملة تكامل جيد . فإن العواطف ذاتها تنتظم فى شىء يشبه السُلّم مع احتلال عاطفة اعتبار الذات المركز الأعلى . والواقع أن الطبيعة الخُلقية للفرد تتحدد إلى حد بعيد بوساطة طبيعة وقوة هذه العاطفة . وفى قمة أنماط الشخصية تتربع عاطفة اعتبار الذات بفضل طبيعتها مستعينة فى ذلك بمثل أعلى سلوكى معيّن . ومن المعروف أن المثل الأعلى فى ذاته يتحدد إلى حد بعيد بوساطة أشخاص ينالون الإعجاب يكونون معروفين فى الحياة الواقعية أو بتعاليمهم الدينية أو الخلقية ، أو يكونون من الشخصيات التاريخية المهمة ، سواء فى مجال السياسة أم فى مجال الأدب . ولا شك أن الإرادات التى تنتظم فى إطار عاطفة اعتبار الذات تضاف إلى الباعث المثالى الضعيف فتمكنه من أن يحوز السيطرة على بعض الرغبات الأقوى والأكثر بدائية .

وعندما يتناول مكدوجال الشخصية ككل ، فإنه يميز بين « الاستعداد المزاجى » الذى يتطور بوساطة جماع الخصائص الغريزية ، والذى يتحدد أيضًا بوساطة الوراثة والمزاج الذى هو جماع المؤثرات التى توجه إلى الحياة العقلية من جانب التغيرات المتعلقة بالهدم والبناء أو التغيرات الكيميائية التى تحدث بالجسم ، بما فيها بالطبع ما تؤثر به الغدد الصماء التى لها تأثير كبير كما هو معروف ... نقول إن مكدوجال يميز بين الاستعداد المزاجى وبين « الشخصية » باعتبار أنها مجموع الميول المكتسبة التى تبنى على أساس ما لدى المرء من استعداد مزاجى . وهنا كما هو الحال بإزاء نقاط أخرى ، ينجح مكدوجال فى استحداث نوع من النظام فى علم النفس وهو ما كان قبله فى حالة من الفوضى .

Looloo
www.dvd4arab.com

ونستطيع أن نقرر فى الواقع أن مكدوجال قد قدم لنا معالجة منهجية لموضوعى الإرادة والوجدان بحيث لا نجد له منافسًا سوى فرويد فى هذا الصدد . بيد أن من المؤكد أن الكثير من نظامه يتطلب التعديل كلما تقدمت معرفتنا .

والواقع أن مكدوجال فى كتابه « مدخل إلى علم النفس الاجتماعى » ، كان قد وضع نصب عينيه أن يوفر الأساس السيكولوجى الضرورى للعلوم الاجتماعية . وإنا لنجده فى كتابه التالى المسمى « علم نفس الجماعة » قد طبّق نظامًا يتعلق بالإرادة بصدد المهمة الحقيقية التى قصد إليها ، فلقد بدأ فى معالجة علم نفس الجماهير والانتماءات للجماعة والمثل العليا التى تؤدى إلى بزوغ الخصائص السيكولوجية للمجموعة الأكبر التى نسميها الأمة . وبعد ذلك نجده فى كتاب أصغر بعنوان « الرفاهية القومية والتدهور القومى » يطبق مكتشفاته بصدد مشكلات عملية معينة ، مع الإشارة إلى علم تحسين النسل وهو تطبيق لعلم البيولوجيا الذى استهواه منذ البداية .

ولقد قادته أيضًا اهتماماته البيولوجية فى سنواته الأخيرة إلى الإضطلاع بسلسلة من التجارب لاختبار نظرية لامارك الخاصة بوراثة الخصائص المكتسبة . فظل لعشر سنوات يدرّب الفئران ، وانتهى بتجاربه إلى تأييد لامارك فى انتقال تلك الخصائص المكتسبة إلى حد ما .

★ ★ ★

الفصل العاشر

فرويد Freud, Sigmund

(١٨٥٦ - ١٩٣٩)

ولد فرويد فى فريبرج بمورافيا فى عام ١٨٥٦ ، وباستثناء السنوات الثلاث الأولى والسنتين الأخيرتين من حياته ، فإنه ظل فى فينا وصار جزءًا لا يتجزأ منها . وفى سن السابعة عشرة التحق بجامعة فينا حيث تعلم التشريح وعلم النبات والكيمياء والفيزياء والفسيولوجيا وعلم الحيوان . وبعد ذلك تخصص فى علاج الأعصاب . ودرس على يد شاركو Chrcot فى باريس ، وكان هو وجانيه Janet أكثر تلاميذ شاركو نبوغًا وتفوقًا . ولكن بينما اقتفى جانيه أثر التراث الفرنسى ، فإن فرويد بعد أن غادر باريس مباشرة قابل باحثًا آخر هو بروير Breuer الذى حول فكره فى اتجاه مختلف نوعًا عما كان قد تعلمه من شاركو . وربما تكون أهم الظواهر التى أخذت بجماع قلبه ما عرضه عليه بروير من فقدان التكامل الذى يبديه المرضى الذين يعانون من جميع أشكال المرض العصبى الوظيفى . فمدى الشعور لدى هؤلاء لا يبدو واسعًا أو قويًا بالدرجة الكافية التى تسمح لهم بأن يُلمّوا بالأحداث العقلية التى تبدو أنها شعورية لدى الأشخاص الأسوياء .

أخذ فرويد على عاتقه إلقاء الضوء على هذه الظاهرة . فذهب إلى القول بأن ذلك الانفصال إنما يعزى إلى عدم الاتساق بين العناصر

Looloo
www.dvd4arab.com

المنفصلة وبين باقى العقل . ولاحظ أنه بالنسبة لحالة الهستيريا فإن استرجاع ومناقشة الذكريات لدى المريض قد يكون كافيًا لعلاجه . وأطلق فرويد على هذا اسم « العلاج بالكلام » أو « التفريغ » Catharsis . وواضح أن هذه العملية شبيهة بعملية الاعتراف التى تمارس بالكنائس المسيحية ، ولكنها تختلف عنها فى أنها تخلو من المقومات الخلقية واللاهوتية ، كما أنها تذكرنا بما ذهب إليه أرسطو من أن التراجيديا تحدث أثرًا تطهيريًا عن طريق الإيقاظ العنيف لانفعالات الشفقة والرعدة .

أما عن قصة التحليل النفسى فقد بدأت بحالة مريضة كان بروير يقوم بعلاجها وهو طبيب من فينيسيا ، وكان فرويد فى ذلك الوقت شابًا فى الخامسة والعشرين ، وكان قد انتهى لتوه من دراساته الطبية . وربطت الصداقة بين بروير وفرويد لبضع سنوات . تحادث بروير مع فرويد بشأن تلك الفتاة التى لم تكن متعاونة معه وغير منصاعة لما كان يمارسه معها من تنويم مغنطيسى ، بل كانت تعالج نفسها بوساطة الكلام . فهى كانت تستمر فى التعبير عن خبراتها وذكرياتها ، ولم يكن الدور الذى يلعبه بروير أكثر من الإصغاء إليها . ولشد ما كان دهشته عندما وجد أن تلك المريضة قد شفيت مما كانت قد أصيبت به من تقلصات وفقدان الحس واضطراب فى الرؤية ولجلجة فى الكلام وضعف فى السمع ، ومما كانت تعانى منه من ألم عصبى (نورالجيا) وسعال ورعشة ومخاوف مرضية متباينة . وبينما كان بروير يستميلها للنوم مغنطيسيًا ، فإنها كانت تصر أن تُفضى له بخبراتها بالتفصيل سواء كانت خبرات حقيقية ، أم هلوسات . وعلى الرغم من أنه كان يصغى لكلامها بصبر ، فإنه لم يكن يقيم الاعتبار للفوائد النفسية العلاجية التى يمكن أن تتأتى عن ذلك الأسلوب من العلاقة بين المريض والطبيب .

وعندما وقف فرويد على هذه الحالة ، فإنه أبدى اهتمامًا كبيرًا بينما لم يُبْد أى واحد ممن ناقشوها أى اهتمام حتى شاركو نفسه . ومن هذا المنطلق بدأ فرويد فى عام ١٨٩٥ بإرساء قواعد التحليل النفسى وذلك عندما قام بالتعاون مع بروير بنشر بحوثهما تحت عنوان « دراسات فى الهستيريا » . وبعد ذلك استمر فرويد فى العمل وحده وكانت خطوته التالية هى تركه لمنهج التنويم واستبداله ، وذلك بأن أحل محله عملية التداعى الحر بينما يكون المريض فى حالة يقظة تامة . وكان الباعث له على اتباع هذا المنهج هو أنه لم يكن ينجح دائمًا فى إخضاع المريض للتنويم . ناهيك عن اقتناعه بأن بعض الحالات لا تستجيب لطريقة التنويم . أما الطريقة الجديدة فإنها تعتمد على الترابط أو تداعى المعانى والتى بمقتضاها كان يطلب من المريض أن يُفضى بكل شىء يخطر بباله ، ضاربًا عُرْض الحائط بأى ضابط شعورى لأفكاره ، أو الخضوع لأى قوانين تحول بينه وبين التعبير عما يدور بخلده من أفكار وذكريات كما هى بغير إلجام منطقى أو ذوقى أو أخلاقى أو التقيد بأى قيم اجتماعية كائنة ما تكون .

وهنا لاحظ فرويد أن هناك قوة إيجابية معينة تقف حائلاً دون دخول العناصر المعزولة إلى نطاق الشعور . على أنه فى النهاية بقدر ما كان الإجراء ناجحًا ، فإن المريض قد صار شاعرًا بتلك العناصر التى برهنت على أنها من طبيعة انفعالية عالية . وفى بداية الأمر كان التأكيد موجهًا إلى خبرات معينة يبدو أنها قد أيقظت درجة لا يمكن تحملها من الوجدان ، ولذا فإنها قد « كبتت » فى اللاشعور . ولكن فيما بعد رؤى أن هذه الخبرات « الجارحة » كانت هامة لأنها أثارت « رغبات » معينة ، أو ميولاً كانت متعارضة مع الاتجاهات الخلقية

www.dvd4arab.com

السائدة بالشخصية . وتنقسم هذه الرغبات إلى نوعين : رغبات عدوانية ، ورغبات جنسية ، مع الاعتراف بأن الرغبات الأخيرة هى الأكثر شيوعًا وسيطرة .

ولقد اعترف فرويد بأن شاركو قد سبقه إلى هذا الاكتشاف وهو بصدد علاجه لإحدى مريضاته وكانت شابة . وكان السبب فى مشكلاتها العصابية هو النقص فى كفاءة زوجها جنسيًا . بيد أن شاركو كان حذرًا من أن يعلن عن ذلك رسميًا . ولكن فرويد على العكس من ذلك لم يجد فى ذلك حرجًا ، بل تقدم وأعلن اكتشافه هذا ضاربًا عُرْض الحائط بما كان يحيط بموضوع الجنس من حُرمان ومحاذير .

واستمر فرويد لبضع سنوات وهو يعمل فى عزلة ، وقد أخذ فى تطوير آرائه بهدوء مع تقديم قليل من المقالات التى تشير إلى تقدمه فى هذا المضمار . ولكنه برز فى عام ١٩٠٠ ككاتب له أهميته فى علم النفس بعد نشره كتابًا بعنوان « تفسير الأحلام » حاول فيه أن يظهر أن الأحلام ما هى إلا تعبير ملتو عن الرغبات المكبوتة ، كما أنها تفصح عن نفس الآليات السيكولوجية التى توجد بفاعلية فى حالة الأعراض العصابية . وفى الوقت نفسه بلْور فرويد مفاهيمه الأساسية الخاصة « بالتكثيف » Condensation . (الدمج اللاشعورى للأفكار) « والإزاحة » Displacement (نقل وجدان من فكرة إلى أخرى) « والرمزية » Symbolism ... إلخ . ولم تنل هذه الآراء القبول إلا تدريجيًا . ومع هذا فإنه فى حوالى عام ١٩٠٢ وما بعدها تألفت مجموعة صغيرة من التابعين لفرويد وانتهى بها الأمر إلى عقد مؤتمر التحليل النفسى الأول فى عام ١٩١٠ وهو الذى صار منذ ذلك الوقت المنظمة المركزية للمحللين النفسيين عبر العالم . ولقد قام ابراهام Abraham وفرنزى Ferenczi ويونج Jung وغيرهم بأوربا بتطوير

الجوانب العلاجية إلى مدى أبعد مستخدمين فنون التحليل النفسى ، بينما أخذ رانك Rank فى إجراء تطبيقات هامة مستخدمًا المعرفة الجديدة بصدد مجالات الفن والأدب وعلم الاجتماع . أما إرنست جونز Ernest Jones وبرل Brill فإنهما أدخلا التحليل النفسى فى أمريكا الشمالية . وفى عام ١٩١٢ قبل فرويد ويونج دعوة من ستانلى هول Stanley Hall لتقديم سلسلة من المحاضرات فى جامعة كلارك . وبعد ذلك قام ريك Reik وروهيم Roheim بدعم من بعض الكتاب المذكورين آنفًا بإقامة ارتباط فيما بين التحليل النفسى والأنثروبولوجيا . وامتد نشاط التحليل النفسى إلى آفاق كثيرة وأفاد منه كثير من المرضى النفسيين .

وفى أثناء ذلك طبق فرويد آراءه بإزاء ثلاثة ميادين جديدة هى الحياة اليومية والسخرية والجنس . فبالنسبة للميدان الأول فقد أظهر فرويد أن الآليات التى وجدها فى الحالات العصابية والأحلام تعمل بالمثل فى كثير من زلّات القلم واللسان واليد أو الذاكرة وهى الزلّات التى ينظر إليها عادة باعتبار أنها بسيطة ، وهى التى نمر بها جميعًا فى حياتنا اليومية ، والتى نعزوها عادة إلى « الصدفة » أو إلى الترابط الخاطئ أو إلى عامل عام مثل التعب . وكذا فإنه بالنسبة للمجال الثانى ـ أعنى التنكيت والسخرية ـ فإن المسألة لا تعدو ذلك .

وبالنسبة للميدان الثالث فإن فرويد قدم نظرية عن تطور الغريزة الجنسية من عدد من « الغرائز المركّبة » التى تتبدى لدى الطفل منذ الميلاد فصاعدًا ، والتى ترتبط ارتباطًا أساسيًا بجزء معين أو بعضو معين بالجسم ، فتتمركز أولاً فى مرحلة الإشباع الجنسى الذاتى حيث ينشد كل منها الإشباع باستقلال نسبى عن الأخريات . ولكن مع النمو الطبيعى تصير متكاملة تحت سيطرة الغرائز التى ترتبطها مع

www.dvd4arab.com

الأعضاء التناسلية . وبذا فإنها تكون فى خدمة الإنجاب . ويفسر فرويد « الانحرافات الجنسية » لدى الكبار بأنها نتيجة الفشل فى إحراز تلك السيطرة ، وبالتالى استئثار إحدى الغرائز المركّبة بالسيطرة بدلاً من سيطرة غريزة الإنجاب ، وعندئذ يمكن أن يوصف مثل ذلك الشخص بأنه « شاذ جنسيًا » .

وفى عام ١٩١٤ قام فرويد بتعقيد مذهبه بإزاء الجنس وذلك بأن أدخل مرحلة جديدة هى مرحلة « عشق الذات » Narcissism التى تقع بين المرحلة غير المتكاملة لاجتزار اللذة ذاتيًا وبين مرحلة النمو الكامل الخاصة « بالحب الموضوعى » حيث يوجه الدافع الجنسى خارجيًا نحو شخص (أو نحو شىء فى الحالات الشاذة) . وفى هذه المرحلة النرجسية يوجه الليبيدو (وهو لفظ أطلقه فرويد على مجموعة الغرائز المركّبة) إلى الذات . فثمة تكامل ولكن لا يكون هناك توجيه للدافع نحو موضوع آخر خارج نطاق الذات . وبالطبع فإن مرحلة الاجتزار الذاتى للذة وأيضًا مرحلة النرجسية لا تتلاشيان ، شأنهما فى ذلك شأن أى وظائف أولية للعقل والجسم . وثمة كمية معينة من الليبيدو تجد إشباعًا لها بالاجتزار الذاتى للذة . فنحن جميعًا نتمتع بأحاسيس من المناطق الخاصة باجتلاب اللذة ، أعنى الأعضاء التناسلية والفم والشرج والجلد والعضلات إلخ . ونحن جميعًا نوجه بشكل طبيعى كمية معينة من « الحب » إلى أشخاصنا بالرغم من أن هناك فى إطار « السوية » قدرًا كبيرًا من الفروق الفردية ، سواء فى القوة النسبية لمختلف الغرائز المركبة ، أم بالنسبة لمقدار ما يوجه من النرجسية إلى الحب الموضوعى . والواقع أن النمو « السوى » لدى الإناث يتطلب درجة أعلى بعض الشىء من النرجسية عنه لدى الذكور ، كما هو واضح فى الأهمية الكبيرة التى ينوطها النساء بالجمال الجسمى والتزين .

على أن النمو الكامل يتطلب درجة أكبر من التوجيه الخارجى لليبيدو ، وبذا يوجه قدر أكبر إلى الحب الموضوعى . ويترتب على هذا ما أسماه فرويد « بالتسامى » أو التحول بعيدًا عن الأهداف الجنسية إلى الموضوعات المتباينة والأنشطة التى تشكل فى مجموعها « الثقافة » الإنسانية . ولكل غريزة مركّبة أشكالها المميزة من التسامى ، وبالتالى فإنها تساهم بطريقة خاصة فى الحضارة . وحتى فى نطاق « الحب الموضوعى » نفسه فإن هناك بالطبع عملية إزاحة مستمرة من موضوع لآخر . فالموضوعات الجنسية فى الطفولة الأولى توجد بالضرورة فى نطاق الأسرة . وبذا فإن الولد الصغير يحب أمه ، وإلى حد ما فإنه كنتيجة حتمية لذلك ينظر إلى والده كمنافس له فى حب تلك الأم . وبالتالى تنشأ عقدة أوديب . ذلك أن أسطورة أوديب التى فيها أوديب يقتل أباه ويتزوج من أمه ، إنما يعبّر فى حياة الكبار عن الرغبات الأولية للولد الذكر . ولكن مع مرور الوقت فإن الليبيدو ينحو إلى أن يعثر على موضوعات جديدة بالرغم من أن هذه الموضوعات تظل دائمًا إلى حد ما ممثّلات أو متجسدات جديدة للموضوعات القديمة . فالمرأة المحبوبة والمدرّسة أو البلدة أو القطر ما يزال ينظر إليهم بالمشاعر التى كانت موجهة أصلاً إلى الأم . أما السلطات التى تفرض علينا كالمدرس وصاحب العمل ورجل الشرطة والقاضى والكاهن ورئيس الوزراء والملك ، فإنهم ما يزالون يتلقون منا خليطًا من الحب والإعجاب والرهبة والكراهية التى كانت قد استُحدثت فينا بواسطة الأب . وعلى النحو نفسه تحس البنت تجاه الأم وتجاه من يمثلونها بعد ذلك كالحماة ونحوها .

وهكذا نرى أن فرويد قد عزا أهمية بالغة للجنس . والجنس فى الواقع دافع على أكبر جانب من الأهمية ، ولكنه كان قد أهمل من

Looloo
www.dvd4arab.com

جانب علماء النفس لفترة طويلة ولم يلق حظه من الاهتمام إلا على يد فرويد . والواقع أن المسوّغ البرجماتى لأرائه حول الجنس وحول اللاشعور يكمن فى الضوء المذهل التى ألقته تلك الأراء على الكثير من مشكلات العقل والسلوك الغامضة . وبعد أن بدأ التحليل النفسى كمجرد طريقة بسيطة للعلاج النفسى ، فإنه صار الآن يمثل جانبًا هامًا أو عاملاً أساسيًا فى إلقاء الضوء على كثير من الأنشطة الإنسانية .

ويعتبر ظهور كتاب فرويد بعنوان « الأنا والهى » الذى نشر فى عام ١٩٢٣ بمثابة مرحلة جديدة فى التحليل النفسى . فلقد بدأ فرويد فى هذا الكتاب بإلقاء الضوء على موضوع الكبت . فقسم العقل إلى ثلاثة أجزاء أساسية هى : « الأنا » وهى الجزء الذى يشعر ، و « الهو » وهى الجزء الخاص بالتخزين اللاشعورى للدوافع الغريزية ، و« الأنا الأعلى » وهو الجزء الخاص بالعناصر الخُلُقية . والأنا الأعلى هو أهم هذه الأجزاء الثلاثة ، وهو يتأتى نتيجة عمليات ثلاث أساسية ومتمايزة هى : أولاً ــ إيلاج « السلطات الخُلُقية الخارجية » فى الذات ، كما تتمثل بخاصة فى الوالدين وغيرهما من شخصيات هامة فى المرحلة الأولى من العمر . ثانيًا ــ توجيه جانب من هذه المقوّمات الأخلاقية التى أولجت إلى جانب معين من الليبيدو النرجسى ، فيصير الفرد محبًا لنفسه لا كما هو فحسب ، بل كما يجب أن يكون عليه . ثالثًا ــ ارتداد دوافع الكراهية والعدوانية إلى ذات الشخص إذا لم يتسن لها الإفصاح عن نفسها إلى الخارج .

★ ★ ★

الفصل الحادى عشر

إسهامات فرويد فى علم الإنسان

كيف يتسنى للدراسات المتعلقة بعلم النفس الفردى التى تمارس من خلال التحليل النفسى أن تلقى بالضوء على الثقافة وعلى الحياة الجمعية للناس بالمجتمع ؟ إن فرويد يجيب عن هذا التساؤل من خلال اضطلاعه بسلسلة من الأبحاث التى كان يشير إليها فى بعض الأحيان بأنها « الكتب الثقافية » ، وهى تتضمن كتاب : الطوطم والتابو Totem And Taboo (١٩١٢ ــ ١٣) ، وكتاب : علم النفس الجمعى وتحليل الأنا Groub Psychology And The Analysis Of The Ego (١٩٣٠) وكتاب : موسى والتوحيد Moses And Monotheism . ولسوف نقوم فيما يلى باستعراض هذه البحوث مؤكدين على وحدتها وتطورها كنظرية فى إطار التحليل النفسى .

والواقع أن هذه الكتب تنصب على الثقافة ، إذ أنها تقوم باستكشاف جوانب الفكر واللغة والرموز التى تشارك فيها المجتمعات الغربية . على أنها لا تتناول الكيفية التى تتشكل فى ضوئها الثقافة البشرية والمجتمع بوجه عام ، على الرغم من أن هذه الكتب تتصف بفهم دقيق للمضمون الاجتماعى بصفة عامة .

وعلينا أن نؤكد فى البداية أن علم النفس الفردى عند فرويد لم يكن بمعزل عن المجتمع وغير متأثر به . وشاهد ذلك قوله فى مقدمة كتاب علم النفس الجمعى إنه فيما يتعلق بالحياة العقلية الفردية ، لابد أن تكون هناك صور خيالية بذهن المرء لشخص أو أكثر كنماذج أو

Looloo
www.dvd4arab.com

كموضوعات مطروحة أمام عقله ، سواء كان صديقًا أم عدوًا . وهكذا فعلى الرغم من أن علم النفس الفردى ينصب على دخيلة المرء ، فإنه لا ينعزل فى الوقت نفسه عن علم النفس الجمعى .

وأكثر من هذا فإن من الممكن اعتبار مقالات فرويد حول الفن والأدب والأسطورة داخلة ضمن إطار الثقافة لأنها تتصف جميعًا بأنها ظواهر ثقافية . صحيح أن فرويد قد تناول بعض الشخصيات فى بحوثه باعتبارهم أفرادًا مشتملين على بواعث وديناميات سيكولوجية ، وكان يركز كلامه بإزائهم على الجانب الكلينيكى ، ولكنه كان فى أعمال أخرى كما هو الحال لدى دراسته لشخصية ليوناردو Leonardo (١٩١٠) ولشخصية دوستويفسكى Dostoevsky (١٩٢٨) ، يركز كلامه على سيكولوجية الفنان كخلفية أقام عليها دراسته . وثمة أمثلة أخرى من كتاباته منها دراسته للفولكلور (الأدب الشعبى) بالاشتراك مع أوبنهيم Oppenheim (١٩٤٧) نجد فيها أن فرويد يلقى الضوء على الرمزية باللاشعور ، التى تتسرب باستخفاء فى سياق اللغة ، كما تتسرب فى الأحاديث الثقافية الشعبية ، تمامًا كما تتبدى فى الأحلام وفى الأعراض العصابية . وعلى هذا فإن الأدب الشعبى يخضع للتفسير وفقًا لخطوط التحليل النفسى .

وهناك حالة بالذات تتعلق بتلك الرمزية الشعبية هى الأسطورة تستحق أن نركز الكلام عليها بسبب وضعها المتميز ، ولأن فرويد لم يكن واضحًا بإزائها . فعندما قام فرويد بمناقشة إحساس الأطفال لاشعوريًا بالرغبة فى موت أحد الوالدين كما ورد فى كتابه تفسير الأحلام The interpretation Of Dreams ، فإنه أشار إلى مسرحية سوفوكليس Sophocles وهى بعنوان أوديب ملكًا Oedipus Rex . وعلى الرغم من أن القارئ لا يرى فى تلك المسرحية استعراضًا

لسيكولوجية سوفوكليس ، ولا يرى فيها دراسة لما يفترض وجوده لدى أوديب من بواعث وديناميات سيكولوجية ، فإنه يقف على أن هذه المسرحية تلعب دورًا فى الخيال الجمعى الذى يتشكل لدى الجماهير ويكون منسجمًا مع الأخيلة اللاشعورية المتعلقة بغشيان المحارم والرغبة فى الانتقام التى كانت معتملة فى قوام كل فرد من أفراد أولئك النظارة المشاهدين للمسرحية كبقايا مكبوتة منذ طفولتهم . والواقع أن أولئك النقاد الذين يتأملون حالة أوديب ويستخلصون منها أنه لم يكن هو نفسه يحمل فى قوامه عقدة أوديب ، إنما يزيغون عن الصواب . فنحن باعتبارنا كائنات بشرية حية ولسنا مجرد شخصيات خيالية مثل أوديب من حيث إن ما نصبو إليه من تصرفات جريئة لا تجد طريقها إلى التحقيق ، فإننا نحمل بين أضلعنا عقدة أوديب . وعلى هذا فإن المسرحية فى ضوء هذا تحقق ما ذهب إليه كليفورد جيرتز Clifford Geertz من أنها قصة يستعرضها الناس عن أنفسهم . وفى كتاب : أوديب ملكًا فإننا نقوم بتخطيط وتلخيص جانب من وجودنا . ومن هذا النص الشعبى نتعلم كيف نفهم أنفسنا ، وكيف نجعل من قوامنا ما نحن عليه بالفعل .

فعلينا إذن أن نقرأ كتب فرويد المتعلقة بالثقافة مستبدلين بالبحث عن الأصول التاريخية فيها ، تركيزًا على تلك المخططات الخيالية ، التى وإن كانت خبرات فردية ، فإنها فى الوقت نفسه خبرات تشترك فيها الجماهير فى إيصالها ونقلها كتعبيرات رمزية وقوالب عرقية .

والواقع أننا بتناولنا لمقال لفرويد بعنوان « التصرفات الوسواسية والممارسات الدينية » Obsessive Actions And Religious Practices ، فإننا نستطيع أن نشاهد فيه تمهيدًا لكتبه المنصبة على الثقافة . ذلك أنه يذكر فى هذا المقال أن العصاب والظواهر الثقافية يمكن أن تتداخل

www.dvd4arab.com

بعضها مع بعض (١٩٠٧) . فهو يشير فيه إلى ذلك التماثل فيما بين الطقوس الخاصة التى يضطلع بها المصابون بالعصاب الوسواسى ، وبين الالتزام التطابقى الذى يلتزم به الممارسون للطقوس الدينية . ففى الحالتين يحس المرء بالذنب إذا ما انحرف عما يتحتم الالتزام به فى أدائه . وبينما يتباين الطقس العصابى من شخص لآخر ويتصف بالخصوصية والفردانية ، فإن التطابق فى ممارسة الطقس الدينى يكون جماهيريًا ولا يقبل التباين ، كما أنه يتصف بالعمومية .

ويرى فرويد أن تمايز الطقس العصابى عن الطقس الدينى ، إنما هو تمايز لا يقوم على أى أساس متين . فهذا التمايز يتلاشى عندما ندرك أن ما نشاهده فى الطقوس الوسواسية من فجاجة ظاهرية ومنافاة للعقل ، إنما يرجع إلى انحرافها عن حدود الفكر الواضح بجلاء وإلى غير ذلك من انحرافات رمزية ، بينما نجد أن الغالبية العظمى من الممارسين للطقوس الدينية لا يحملون فى أذهانهم أية لمحة للمعنى الرمزى العميق للطقوس التى يؤدونها .

ويؤكد فرويد أن الطقسين متشابهان إذ أنهما يقومان على أساس نبذ الدوافع الغريزية ، ولكنهما يختلفان بإزاء الغريزة التى ينبذها كل منهما . فبينما نجد أنه فى حالة العصاب تكون الغريزة الجنسية هى المستبعدة أو التى يرنو المرء إلى قمعها ، فإنه فى حالة الطقوس الدينية تُقمع غريزتا الأنانية وإصابة المجتمع بالضرر . وفرويد فى هذه المرحلة المبكرة نسبيًا من تفكيره ، يذهب إلى أن هناك فئتين من الغرائز يعتمل التعارض فيما بينهما فى جذور الصراع الدينامى السيكولوجى . وإحدى هاتين الفئتين تتمثل فى الغريزة الجنسية أو الليبيدو Libedo . أما الفئة الأخرى فتتمثل فى غريزة الأنا التى ينصب نشاطها على محاولة استمرار بقاء الكائن الحى . وأهم تعبير

عن هذه الغريزة هو مقاومة الجوع . والواقع أن غرائز الأنا تتسم بالأنانية بمعنى الكلمة ، وهى فى المقابل تعمل على تحقيق أهداف النوع ، وذلك بوساطة الجماع والإنجاب .

والواقع أن الشائع فى الأذهان هو أن فرويد قد طوّر أفكاره من خلال معالجته للمصابين بالهستيريا التى تشيع بين النساء ، لدرجة أن هذا كثيرًا ما يعمل على نسيان أن فرويد مع مرور الوقت قد حول انتباهه إلى القضايا الثقافية ، فصار يوجه اهتمامه إلى العصاب الوسواسى إلى حد بعيد . ولعل أن الدافع لديه للاتجاه نحو ذلك قد نشأ نتيجة قيامه بتحليل نفسه ، واكتشافه وجود ملامح وسواسية فى قوامه النفسى . وعلى أية حال فليس هناك سوى حالتين كاملتين قام بنشر ما خلص إليه بإزائهما بعد تشخيصهما باعتبارهما حالتين وسواسيتين ، وذلك فى كتاب « الإنسان الفأر » The Rat Man (١٩٠٩) وفى كتاب « الإنسان الذئب » The Wolf Man (١٩١٨) . ثم إن فرويد يقول بصراحة فى واحد من أهم أعماله النظرية وهو كتاب : الممنوعات والأعراض والقلق inhibitions, Symptoms And Anxiety « إن العصاب الوسواسى هو بلا منازع أكثر الموضوعات أهمية فى مجال البحث التحليلى » .

والواقع أن العلاقة الوثيقة فيما بين العصاب الوسواسى وبين العلاقات المتشابكة القائمة بين الدين والمجتمع والأخلاق الحضارية ، تحتل النشاط الرئيسى لدى فرويد بإزاء تطبيق التحليل النفسى فى مجال دراسته للثقافة ، أعنى الطوطم والتابوه . بيد أن هذا التطبيق قد أشاع المضايقة فى قلوب الأنثروبولوجيين بسبب تدخل المحللين النفسيين فى نطاق مجالهم البحثى .

Looloo
www.dvd4arab.com

وقد قبل فرويد المفهوم الذى كان شائعًا فى أذهان الأنثروبولوجيين لوقته القائل إن التاريخ الثقافى يجب أن يفهم باعتباره تقدمًا على خط واحد بتجاه المستويات العليا من الحضارة ، وأن الشعوب غير المتحضرة المعاصرة من غير الغربيين ، يحتلون مكانًا قريبًا جدًا من الإنسان البدائى ، وأن حياتهم العقلية لابد أن تشكل جاذبية خاصة لنا إذا نحن اتخذنا الخط السليم وإذا ما شاهدنا فيها صورة محفوظة بشكل جيد للمرحلة القديمة من تطورنا نحن . فهو فى هذه الفروض لم يكن مختلفًا عن الفروض التى انتحى إليها الثقات الذين اعتمد على بحوثهم بمن فيهم فريزر وتيلور ومكلينان Mclennan ولانج Lang وماريت Marett ودور كايم .

وبالنسبة لفرويد فإن أوجه الشبه التى استشفها من مقارنته بين الوسواس Obsesion وبين الحضارة ، قد حملته على افتراض أن تاريخ الحضارة يمكن أن يناظر مراحل عمر الإنسان ، وأن التقاليد الاجتماعية للشعب تناظر طفولة الجنس ، ويمكن أن تفهم على أساس التناظر بينها وبين أخيلة وصراعات الحالات العصابية التى تمر فى طفولة الفرد . والواقع أن هذه الآراء لم تعد موثوقًا بها اليوم فى أنظار الثقات ، ولكن مع هذا فإن علينا أن نتناولها كأساس فى مدارستنا ليحوث فرويد حتى يتسنى لنا الوقوف على التفسيرات التى توصل إليها .

ويُظهر المقال الأول من الأربع مقالات التى يتضمنها كتابه السابق بعنوان « رهبة غشيان المحارم » The Horror Of Incet أن الشعوب الاسترالية الأصلية ، وهى أكثر البدائيين تخلفًا وشقاءً ، لم يكونوا مهتمين بتنظيم الحياة الجنسية فحسب ، بل إنهم يذهبون إلى شوط أبعد من ذلك بمنعهم غشيان المحارم . فقواعد الزواج والتقاليد التحريمية

هى الترجمة الثقافية لمنع غشيان المحارم ، وذلك بتشريبها فى القوام النفسى للناس من خلال الأنا الأعلى الذى ينشأ مع يقظة واعتمال عقدة أوديب .

وفى مقاله الثانى وهو بعنوان « التابوه والتناقض العاطفى » Taboo And Emotional Ambivalence، فإن « المحرمات » Taboos لدى البولينيزيين Polynesians وغيرهم تناظر الممنوعات المتعلقة بطقوس العصاب الوسواسى . والواقع أن التناقض العاطفى — وهو الملمح الأساسى للعصاب الوسواسى — هو الموقف الذى تكون فيه كل علاقة بمثابة انبثاق لاشعورى بوجه عام يصدر عن تيار الكراهية المعتملة بدخلية المرء نفسه . والممنوعات والطقوس لدى الشخص الموسوس ضرورية للحفاظ على الحب وحماية الأشخاص المحبوبين لديه من أى خطر . والشىء الممنوع بُداءة هو اللمس الذى يُفهم أساسًا بالمعنى الجنسى على أنه استمناء ، ولكنه يمتد ليشمل أى نوع من الملامسة . والأخيلة التى تستثار بوساطة الاستمناء تؤدى إلى التهديد بالإخصاء كرد فعل على الرغبات الإجرامية ضد المنافس الأوديبى . ومن هنا فإن الدوافع الجنسية والعدائية تكبت .

وبعد أن قام فرويد بإبراز نقاط الاتفاق ، فإنه تحول إلى نقاط الاختلاف القائمة فيما بين التابوهات الطقسية وبين الممنوعات الوسواسية . فثمة أولاً تلك التباينات بين الغرائز الممنوعة . فبالنسبة للأعراض العصابية ، فإن فرويد يقول إنها دافع جنسى لابد من التحكم فيه ، وذلك لأنه يحمل معه الأفكار العدائية التى تعد مصدرًا للخطر . وفى حالة التابوهات الثقافية ، فإن المنع ينصب على اللمسى وليس على المعنى الجنسى ، ولكنه بمعناه الأكثر عمومية يكمن فى الهجوم والتحكم وتأكيد الذات . فالدوافع الممنوعة إذن هى

www.dvd4arab.com

بمثابة ربط بين المقومات الأنانية والمقومات الشهوية فتتشكل كليات من نوع خاص .

وثمة تباين آخر يبرزه فرويد هو أن العصاب عبارة عن صورة شائهة للشكل الثقافي . فالعصابي يحاول أن يحصل بوسائله الخاصة على ما توصل إليه المجتمع عن طريق بذل الجهد الجمعي . ويؤكد فرويد أكثر من ذلك أن الغرائز الجنسية ليست كفيلة بتحقيق الترابط بين الناس في المجتمع ، وأن النهوض بالوظائف المتباينة يتم على نحو أفضل عن طريق السعي للحفاظ على الذات .

ويبدو أن ثمة تناقضًا في القول بأن الغرائز الأنانية لابد أن تكون أكثر مناسبة لقيادة الناس نحو الاتحاد في مجموعات اجتماعية أكثر مما تحققه الغرائز الشهوية . والواقع أن ذلك التناقض يعزى إلى أن فرويد كان يرغب في التخلص من التمييز فيما بين الأنا وبين الغرائز الشهوية جميعًا ، وأن يُحل محلهما غريزة واحدة هي الليبيدو Libido التي يمكن توجيهها بتجاه الذات أو بتجاه موضوع خارجي ما . فالغرائز المتعلقة « بالحفاظ على الذات » تخرج إلى نطاقين هما النطاق « الأنانى » والنطاق « الشهوى » Libidinal .

ويتضح موقف فرويد بجلاء في مقاله الثالث بعنوان « الأرواحية والسحر والحضور الدائب للأفكار » Animism, Magic And The Omnipotence Of Thoughts . وهو يذهب هنا إلى أن البدائي والعصابي الوسواسي يتصرفان كما لو أنهما يعتقدان أن الرغبات تعمل عمل الأفعال وتناظرها ، وأنهما يستطيعان التأثير بنفس القدر في العالم دون أن يفعلا شيئًا ، وعندما تكون رغباتهما شريرة ، فإن من الممكن أن يعاقبا كما لو أنهما قد اقترفا أفعالاً شريرة . وباختصار فإن الأفكار المتعلقة بالأشياء تحوز قيمة مساوية للأشياء ذاتها .

والواقع أن السحر وأيضًا النزعة الأرواحية Animism أي الزعم بأن العالم المادى الخارجي متلبس بأرواح متواكبان ، سواء بالمجتمع البدائي أم لدى العصابيين الوسواسيين . فالمجتمع البدائي والعصابيون الوسواسيون يحسون بأنهم قد اقترفوا القتل بالفعل بسبب اعتمال الرغبات المعادية بإزاء غيرهم ، وهي الرغبات التي تعتمل لديهم على المستوى اللاشعوري . ويرى فرويد أن هذا الموقف عبارةعن مبالغة في تقدير الذات والتلبس بالنرجسية ، أي العُجْب الذاتي والمبالغة في تقدير قوة المرء في مدى التحكم في تسيير الأحداث . فمبدأ الواقع في قوام العقل يُنبذ تحت وطأة النرجسية . فثمة حاجة مستمرة إذن للانضباط والدفاع عن النفس لأن العصابي يعتقد أنه يُشكل مصدر خطر للآخرين في ضوء اعتقاده بأن رغباته مطابقة للأفعال وأنهما بمثابة وجهين لعملة واحدة .

وفي مقال فرويد الرابع ــ وهو أكثر مقالاته شهرة ــ بعنوان « العودة إلى الطوطمية في الطفولة » The Retun Of Totemism In Childhood ، فإنه يتناول مشكلة أنثروبولوجية هي الربط فيما بين الطوطمية والزواج من الأباعد Exogamy . والواقع أن فريزر قد تناول هذا الموضوع في كتابه « الطوطمية والزواج من الأباعد » Totemism And Exogamy . بيد أن فرويد يقدم نظريته الخاصة المتعلقة بأصل الطوطمية والزواج من الأباعد . وفي سياق تناوله للطوطمية والزواج من الأباعد معًا في سياق المحرمات التي تصاحبهما باعتبارها تشكل الأسس الرئيسية للحياة الاجتماعية البدائية ، فإنه أراد أن يظهر بذلك أن الأمر بعدم قتل الحيوان الطوطمي ، يمكن أن يفسر بإحلال الطوطم محل الأب ، كما يمكن أن يفسر بالقاعدة التي تقضي بعدم الزواج من المحارم . فهنا نجد تحذيرًا من تحقيق الرغبتين المحرمتين الأساسيتين وهما قتل الأب والزواج من الأم .

Looloo
www.dvd4arab.com

وهكذا نجد أن قوام المجتمع يقوم على أساس الاجراءات التى تُتخذ لقمع رغبات عقدة أوديب .

والواقع أن فرويد يستشف تصوراته من مصادر ثلاثة متباينة . المصدر الأول مفهوم دارون بازاء ما يتعلق بأصل الوحدات الاجتماعية التى عاش الناس فى رحابها . والمصدر الثانى هو نظرية روبرتسون سميث Robertson Smith الخاصة بتناول الأضحية الطوطمية والتهامها . والمصدر الثالث هو تلك الملاحظات التى استشفها فرويد نفسه (١٩٠٩) وكذا ملاحظات فيرنزى Ferenczi بصدد المخاوف غير السوية التى تعتمل لدى الأولاد الصغار تجاه الحيوانات . وتبرهن تلك المخاوف على أن الحيوان الطوطمى يمثل الأب فى الواقع . وشأن الأطفال كشأن طفولة الجنس البشرى . ذلك أن الحيوانات تمثل فى الغالب الأب الذى يُخشى من أن يقوم بعملية الإخصاء ، وهو أيضا الذى تلتف حوله الأفكار المخيفة وتتبلور . والواقع أن تحليل روبرتسون سميث قد صار موظفا فى فكر فرويد لإلقاء الضوء على وليمة تناول لحم الطوطم ، والتى فيها يقتل حيوان من الحيوانات التى يحرّم أكل لحمها وذلك فى غمرة حالة من العويل والابتهاج بفرض أنها تمثل الديانة الأصلية التى اعتنقها الجنس البشرى .

أما الدور الذى لعبته تصورات دارون فى فكر فرويد ، فإنه يتمثل فيما ذهب إليه ـ سواء كان على حق أم لا ـ من أن البشر الأولين ربما يكونون قد عاشوا فى جماعات مكوّنة من ذكر واحد يافع مع مجموعة من الإناث وأطفالهن ، ومن ثم فإنه بذلك يكون قادرا على تحقيق الانضباط بينهم ، والدفاع عنهم ضد المنافسين له للحلول محله . أما الصغار من الذكور فإنهم كانوا يستبعدون من مقر الأسرة حالما

ينخرطون فى سن النضج الجنسى ، ومن ثم فإنهم يصيرون منافسين للأب بل ويصيرون أعداء يناصبونه العداء . وبعد أن يعيشوا منعزلين ومحرومين من دفء الأسرة ، فإنهم يأخذون دورهم فى الغالب ، وذلك بأن ينشئوا أسرا جديدة ، فيكون لكل واحد منهم زوجة أو أكثر من الإناث . ونظام كهذا ـ وفقا لدارون ـ يحول دون توقع نشوء أخطار يمكن أن تتأتى عن استمرار الأولاد الذكور فى كنف الأسرة الأم بعد أن يشبوا عن الطوق وينضجوا جنسيا . وهذا فى الواقع هو نمط التنظيم الاجتماعى الذى ينهج وفقه مجتمع الغوريلا .

والواقع أن فرويد قد قام بالتنسيق فيما بين هذه الاتجاهات الثلاثة لكى يقدم فكرته عن الحقبة التى بدأت معها الثقافة البشرية والمجتمع فى البزوغ ، أعنى الحقبة التى كان يستبعد فيها الذكور الصغار ، والتى كانوا يثورون أيضا خلالها على الأب ، وقد كانوا مدفوعين إلى ذلك بالرغبة فى الاستيلاء على الإناث اللاتى فى حوزته ، بالإضافة إلى استيائهم من طغيانه ، وتذرعهم فى الغالب بسلاح جديد ليس فى مكنته . ولقد يكون ذلك السلاح الجديد متمثلا فى التخطيط المبتكر وبزوغ ألوان من الإبداع فى عقولهم . وهم إذن بمهاجمتهم للأب كانوا يقتلونه ويلتهمونه . وبذا فإنهم كانوا يستولون على شىء من سلطته ، كما أن الوليمة الطوطمية التى يمارسونها فى مناسبات معينة تجدد الذكريات المتعلقة بهذه الفعلة الإجرامية التى لاتنسى ، والتى كانت بداية لأشياء كثيرة تتعلق بالنظام الاجتماعى وبالقيود الأخلاقية والدينية .

وبعد تحقيق الهدف وزوال العداء ، فإن الأخوة يستشعرون الحب للأب المذبوح ، ويحتل هذا الحب مركز الصدارة ، ويبدأ تأنيب الضمير فى أكل صدورهم . ومن خلال الخوف من نشوب الحرب

www.dvd4arab.com

بينهم جميعًا ، وهو أمر يتحتم حدوثه بعد اختفاء الأب من حياتهم ، وزوال سيطرته عليهم ، فإنهم يقررون المحرّمات الأولى عن طريق شخص ينصّبونه رئيسًا عليهم ومتحكمًا فيهم ، ويضفون عليه صفة الألوهية . فعلى المرء ألا يقتل الحيوان الطوطمى (الأب) ، وعليه ألا يقترف الإثم الذى صدر عن أسلافه بغشيان المحارم مع أولئك النساء اللائى كن الحافز على نشوب الثورة الأولى ضد الأب ، والرغبة فى الاستيلاء عليهن ، والاستئثار بهن . والواقع أن اعتمال الندم جنبًا لجنب مع اعتمال الفرح فى الوليمة الطومية ، يمثلان جانبى التناقض الوجدانى Ambivalence . فهذا الطقس يعمل على تنشيط ذكريات الانتصار والتكفير عن الجريمة . فتحريم غشيان المحارم يؤكد فى ذاته ممارسة الزواج من الأباعد ، وضرورة تبادل الزوجات بين الجماعات المتباينة ، بينما استحالت ذكرى الأب المقتول أساسًا للنظام الأخلاقى الجديد فى ظل سيطرة الشعور بالذنب بين الأخوة نتيجة فعلتهم النكراء .

ويذهب فرويد إلى أن ذكرى الفعلة الأصلية فى لاشعور الإنسانية قد استمرت فى الاعتمال فى قوام الجنس البشرى ، مما حمل الناس على تشكيل المجتمعات على أساس تحريم غشيان المحارم ، وعلى أساس عبادة الآلهة الذين تشكّلوا فى البداية من بعض الحيوانات ، ثم تمثلوا بعد ذلك فى الأبطال ، ثم فى الآلهة المتعددين ، وانتهى المطاف أخيرًا إلى التوحيد .

ومن المعروف أن أسطورة فرويد الخاصة بالقبيلة الأولى قد استثارت مجموعة كبيرة من الدارسين والنقاد مما حملهم على اعتبارها بعيدة الاحتمال أو أنها مُلفقة . وعلى الرغم من أن نظرية فرويد لم تعد تجد قبولاً فى كثير من الأوساط الأكاديمية ، فإنها تشير

إلى أن الأخيلة الأوديبية فى طفولة الإنسانية ، والقائمة على أساس من الدوافع الجنسية والعدوانية فى نطاق الأسرة المكوّنة من زوج وأطفال ، إنما تقوم على أساس ثقافى وعرقى على السواء . بيد أن القبيلة البدائية ربما لم يكن لها وجود على الإطلاق ، ولكنها تشكل على أية حال وبطريقة مثالية الخيال الذى يراود أيا من الذكور الذين يهفون إلى أن يلعبوا الدور الجنسى بما لديهم من نوازع جنسية ، ورغبة فى تأكيد ذواتهم ، والعمل على استمرار النوع عن طريق الإنجاب ، وذلك بأن يصير الواحد منهم أبا لذرية كثيرة العدد باتصاله جنسيًا بأكبر عدد ممكن من النساء ، وإبادة جميع الذكور المنافسين له فى هذا الصدد ، وذلك بحرمانهم بطريقة أو بأخرى من القدرة على الإنجاب ، سواء بقتلهم أم عن طريق إخصائهم .

وبعد أن توصل فرويد إلى الشكل الذى كانت عليه القبيلة البدائية كما تخيله ، فإنه استمر فى بلورة فكره السابق بإزاء الثقافة والمجتمع . ففى كتابه عن الثقافة وهو بعنوان « علم النفس الجمعى وتحليل الأنا Group Psychology And The Analysis Of The Ego (١٩٢١) نجده يربط فيما بين بحثه السابق حول النرجسية (١٩١٤) وفكرة القبيلة البدائية من جهة ، وبين نظرية الغريزة المزدوجة الجديدة من جهة أخرى ، وهى النظرية التى سبق أن قدمها فى السنة السابقة بكتابه ما وراء مبدأ اللذة Beyond The Pleasure Princeple (١٩٢٠) وقد كان لابد من إقامة نظرية جديدة طالما أن الثنائية القديمة قد انهارت وصار من المحتم اذابتهم فى نظرية موحّدة مع الليبيدو باعتباره الباعث الوحيد لإقامة بُنية اجتماعية جديدة . بيد أن هذا الموقف ترك الليبيدو بغير منافس له بين الغرائز ، وهذا مما جعل فرويد فى حيرة بإزاء العثور على دعامة بيولوجية لإزالة الصراع المستوطن الذى وجده فى

www.dvd4arab.com

القوام السيكولوجى للبشرية . ثم أضاف غريزة جديدة فى عام (١٩٢٠) هى غريزة الشهوة Eros التى تصنّف ضمن الليبيدو القديم ، كما أضاف غريزة أخرى هى غريزة الثاناتوس Thanatos وهى غريزة تنحو بالمرء إلى التحطيم والموت .

والغريزة الأخيرة لا تلعب دورًا إيجابيًا فى علم النفس الجمعى Group Psychology . بيد أن الصيغة المعدّلة للإيروس تضفى معانى جديدة على نظرية فرويد المتعلقة بالثقافة والمجتمع . فكما رأينا فإن الحب الجنسى فى حالته البحتة يؤدى إلى إشباع سريع الزوال ولا يشكّل بأى حال الأساس لإقامة روابط اجتماعية مستمرة . بيد أن الحوافز الشهوية التى يتسنى التحكم فيها على نحو ما ، يمكن أن تحيل الغريزة الجنسية إلى حب طويل الأمد وإلى ترابط اجتماعى مستمر . فالزوجان فى علاقتهما الجنسية يقفان فى موقف متواز بين النرجسية والسيكولوجية الجمعية . فهما زوجان متحدان فى حب جنسى من جهة ، ويشكّلان وحدة قائمة بذاتها مناهضة لنمو وحدات أكبر منها من جهة أخرى . والواقع أن الأب البدائى كان هو نفسه نرجسيًا على طول الخط ، بمعنى أنه كان يشبع كل رغبة لديه بما فى ذلك رغباته الجنسية حالما كانت تثور لديه . بيد أنه لم ينجح فى الإمساك بقيادة مؤسسة اجتماعية بالمعنى الإنسانى الحضارى . وحتى إذا كان ارتباطه بزوجاته مكينًا ، فإنه كان ارتباطًا لا يجلب له سوى لذة عابرة ، ولم تكن تقوم بينه وبينهن علاقات موضوعية مستمرة . بيد أن الأخوة هم الذين مروا بالأحرى فى خبرة الحياة الاجتماعية الحقيقية لأول مرة ، وهى الحياة التى فرضت عليهم نتيجة الغيرة من الأب . وبالتالى فإنهم مروا فى خبرة الحياة الاجتماعية كما نعرفها وذلك نتيجة حرمانهم من ممارسة الجنس وقد فرضه عليهم أبوهم الذى كان يغار منهم .

من هنا فإن الأخوة الذين حرمهم الأب بالحيلولة بينهم وبين إشباعهم جنسيًا عن طريق الاتصال بنسائه ، قد شكّلوا روابط فيما بينهم تقوم على أساس الليبيدو المحروم الذى جمع بينهم ، فكانوا يعبّرون عن نوازعهم عن طريق إقامة علاقات جنسية مثلية Homosexualituy فيما بينهم . ولقد صار هذا النوع من الحب من صميم علاقاتهم ببعضهم فكانوا يشكّلون مجموعة مستمرة فى التلاحم . بيد أن النرجسية تعمل مرة أخرى على دعم موضوع الحب من خلال عملية تحقيق الهوية . فكل شاب منهم ، وقد أجبر على نبذ نرجسيته الخاصة به ، فإنه صار ينكفئ على مخيلته ويخترع صورة لما كان يجب أن يكون عليه الأنا المثالى الذى أبطل عمله . وهذه الصورة التخيلية تقوم بدورها على مثال صورة الأب البدائى الناضج الذى يرغب الشاب فى أن يكون شبيهًا به كما احتفظ به لنفسه فى ذاكرته الثقافية والعرقية . وحيث إنه كان عاجزًا عن تحقيق هذا المثل الأعلى ، وحيث إنه كان يشاهد عبث التنافس مع أخوته لإحراز التفوق عليهم ، فإنه صار يحوّل تنافسه مع أخوته عن طريق تكييف رد الفعل وإحالته إلى إحساس جمعى بالمساواة .

وهكذا صار يغرس فى فكره بطريقة لاواعية صورة القائد باعتباره مثلاً أعلى يقوده ، أو على الأقل كبديل عما فشل فى تحقيقه لنفسه بالفعل . وطبيعى أن أتباعه كانوا يفعلون الشىء نفسه ، وبذا فإنهم صاروا يشتركون فى مثل أعلى واحد ، ويشاهدون أنفسهم فى شخصية واحدة ، ويحاولون تشكيل الأنا الشخصى لدى كل منهم على مثاله . والنتيجة النهائية هى أنهم صاروا جميعًا مشابهين لذلك المثل الأعلى وذلك بأن يحملوه جميعًا فى قوامهم النفسى ويطابقون بين أنيته وبين إنيّة كل واحد منهم ، ومن ثم فإنهم يصيرون قادرين على أن

www.dvd4arab.com

يتطابقوا بعضهم مع بعض ، وبالتالى فإنهم يحبون بعضهم على نحو متطابق مع النرجسية أكثر من التطابق مع الحب الموضوعى . وعلى هذا فإن الحب المتأتى عن الحرمان من تحقيق الهدف الجنسى ينصب على الآخرين الذين يشاهدونهم مشابهين لهم من حيث أساس الروابط الاجتماعية طويلة الأمد . وحيث إن القبيلة البدائية لم تعُد موجودة ، لذا فإن القادة الذين يبزغون إلى الوجود لم يعودوا آباءً بدائيين بمعنى الكلمة ، بل إنهم صاروا صورًا زائفة لهم يستطيعون أن يبعثوا بالرهبة والخوف والافتتان فى قلوب أفراد المجموعة وأن يُوحُوا لهم بالحب .

ويترتب على هذا التحليل الذى لم يعرضه فرويد أو يفصّله بصراحة ولكن كان له تأثير بالغ فى مجال الأنثروبولوجيا ، هو القول بأن الحياة الاجتماعية بين الناس تقوم على أساس محورين هما محور التزاوج بين الرجال والنساء ، وهو ما يؤدى إلى التناسل البيولوجى ، ومحور المجتمع الذى تم تشكيله بوساطة العلاقات الناشئة عن الحرمان من تحقيق الهدف الجنسى ، وهى العلاقات التى تعمل على عدم تحقيق الليبيدو الذى لا يتصف بالجنسية الغيرية ، كما لا يتصف بالجنسية المثلية ، بل يُظهر انصرافًا تامًا عن أهداف التنظيم الجنسى لليبيدو .

ويتبع هذا بالضرورة أن الروابط الاجتماعية التى تُمكّن الأواصر فى قبيلة الأخوة ــ وهى تلك الروابط التى تشد من أزر المجتمع وتعمل على استمرار بقائه ــ تُستمد من الاحتدامات الشهوية المتأصلة فيها ، والتى يحال دون تحقيق أهدافها ، ومن ثم فإنها تتسامى أو تتحول من خلال الأشكال التى تتلبس بها ردود الفعل إلى أشكال ثقافية . وتتضمن هذه العناصر التى تعتمل قبل مرحلة النضج الجنسى

المقومات الجنسية القَمْعية ، والمقومات التى تظْهر جميعًا خلال الطفولة المبكرة قبل ظهور الأنشطة الأيْرية .

وعلى كل مجتمع أن يُوفّق بين مطالب ومبادئ كل من المحورين : المحور الأيْرى والمحور السابق على المحور الأيْرى . وعلى هذا فإنه فى بعض المجتمعات المتخلفة ، توجد فئتان منفصلتان : فئة الرجال الذين لا ينجبون ، وهم يتباينون عن فئة الرجال الذين يَنْحون إلى الجنسية الغيرية وينجبون . بيد أن الفئتين ترتبطان ببعضهما بأن الرجال المتفوقين يشكلون فئة المتزوجين والآباء ، كما أنهم يشكلون مجتمع الذكور المسيطرين على الرجال غير المتزوجين . والواقع أن الرمزية الطقسية لتلك المجتمعات الذكرية تكون مفعمة فى الغالب بالأخيلة الشهوية قبل الانخراط فى المرحلة الأيْرية ، وهى المرحلة التى تكون متسمة بالرقة والدماثة .

وعندما قام فرويد بنشر كتابه الحضارة وسلبياتها **Civiiization And Its Discontents** فى عام ١٩٣٠ ، فإن نظريته كانت قد خضعت لمراجعات أخرى . فلقد قدّم المقومات السيكولوجية الثلاثة المعتملة فى قوام المرء ، أعنى الأنا **Ego** والهو **Id** والأنا الأعلى **Superego** وذلك فى كتابه الأنا والهو **The Ego And The Id** فى عام ١٩٢٣ ، وأخيرًا فإنه صار وجهًا لوجه أمام نظريته الثنائية التالية والتى يقول فيها إن العدوان الساذج والبسيط ، إنما هو باعث غريزى يقف على قدم المساواة مع الغريزة الجنسية . ولقد ظل فرويد حتى عام ١٩٣٠ يرى أن الثقافة والمجتمع ينبعثان بلا شك من قوام الحب والعمل المشترك . بيد أن هذا الحب يفهم بطريقة أفضل إذا نحن اعتبرناه ناشئًا عن النرجسية البدائية التى تذهب إلى أن أى شخص يمكن أن يستحيل إلى عدو أو إلى منافس أو إلى مُستلب لحرية المرء ، على أن العدوانية

Looloo
www.dvd4arab.com

التى تتبرى للدفاع عن النرجسية تستحيل عن طريق صياغة رد الفعل إلى حب متناقض ، وهو الحب الذى يتسم به المجتمع .

والواقع أن الوالدين هما أول من يقوم بإعاقة النرجسية غير المحدودة لدينا . فنحن نمتص سلطتهما الكابحة باعتبارها الأنا الأعلى ، كما نظل محتفظين بها قوية عن طريق استخدامنا لعدوانيتنا ، وهى العدوانية التى نوجهها ضد أنفسنا ، وذلك حتى نخيف أنفسنا فنصير صالحين ونابذين فى الوقت نفسه رغباتنا الأوديبية ، وحتى نضمن لأنفسنا الأمن ، وحتى نتحاشى العقوبات المتمثلة فى فقدان الحب والوقوع تحت طائلة الإخصاء .

وأخيرًا وجد فرويد ضالته المنشودة فى نظرية الغريزة التى استعان بها فى حل التناقض الوجداني المعتمل فى العصاب الوسواسى وفى الحضارة . فموضوع الحب يُشكل هدفًا مرجوًا من جهة ، كما أنه يحقق النرجسية من جهة أخرى ، وهما بمثابة روابط جمعية يقعان على نحو متقلقل فى أعلى تيار مكبوت من الكراهية والتحطيم . ويؤدى منع أى منهما إلى فرض الدفاعات الوسواسية على مستوى المجتمع . والواقع أن الاهتمام بالجمال والنظافة وحب أعداء المرء ، وهى الفضائل التى تحتل بؤرة الحضارة الإنسانية ، إنما تكشف النقاب عن أن الثقافة يجب أن تبذل جهدًا أكبر للدفاع عن نفسها حتى تحول دون وقوع العنف والبواعث السادية الإستية التى تنشأ عندما تُنتهك حرمة النرجسية .

والواقع أن الأنا الأعلى فى نظر فرويد ـ وهو الذى يعمل كضابط داخلى لخدمة مصالح الحضارة وليس لسعادتنا ـ يبزغ إلى الوجود نتيجة حدوث التحام فيما بين العدوانية المحرّمة والمتغلغلة فينا ، وبين وجود السلطة الخارجية الواقعية التى تفرض العقوبات علينا .

ومما لا شك فيه أن اتحدارنا من قبيلة بدائية ومشاركتنا فى ذاكرة الأب البدائى واغتياله ، إنما تُعدنا نحن الرجال لكى نحس بشىء من الرهبة والخوف من آبائنا الحاليين الأقل جبروتًا من الأب الأصلى الذى يوحى إلينا بأثره فينا بمجرد التطلع فى وجه الأب الحالى .

وبالنظر إلى آخر كتاب مهم من كتب فرويد وهو كتاب موسى والتوحيد Moses And Monotheism (١٩٣٩) ، فإننا نستطيع أن نقف على آخر تطور فكرى لنظريته . فالواقع أن هذا الكتاب بمثابة عرض جديد لنظرية القبيلة البدائية . وهنا نجد لأول مرة ذلك التماثل فيما بين العصاب الوسواسى وبين التاريخ الدينى الغربى . وهذا التماثل يتكرر عند فرويد على المستوى الفردى وعلى المستوى الجمعى على النحو التالى « صدمة قديمة ـ موقف دفاعى ـ كُمُون ـ انفجار العصاب ـ بزوغ جزئى للمقومات المكبوتة » أما بالنسبة للصدمة فهى الخبرة الرهيبة ذات الطابع الجنسى والعدوانى والنرجسى لدى الفرد مُجتمعة ، وهى تتبدى لدى الفرد على هيئة أخيلة أوديبية ، بينما تتبدى لدى المجتمع فى هيئة رمز للجريمة القديمة ذاتها . أما الصدمة فإنها تؤدى إلى القيام بأعمال قهرية نشيطة تتكرر كما هى ، وتؤدى فى الوقت نفسه إلى بذل الجهد للدفاع ضد الباعث الذى يدفع لتكرارها . وبعد الاستمرار فى السيطرة النسبية لفترة قصيرة ، فإن الصراع بين الدافع والدفاع يبزغ من جديد فى ظل ظروف معينة (كما هو الحال فى أثناء النوم أو المرض عندما تستقبل غريزة ما ، قوة إضافية كما يفعل الليبيدو فى مرحلة البلوغ ، أو عندما تعمل الأحداث المتجددة على تذكرة المرء بواحد من مقوماتها المكبوتة) .

والواقع أن الصدمة الأصلية للعصاب الوسواسى القهرى ، تحدث صراعًا فيما بين الرغبات العدائية التى يستشعرها المرء كأفعال

Looloo
www.dvd4arab.com

وكخوف من خطر الإخصاء الإنتقامى . كما يستشعرها فى المحاولات التى يبديها لإبعاد الخطر . أما الدفاعات فإنها تأخذ مجراها متضمنة شكل رد فعل ، بينما تستحيل الرغبة العدائية إلى إحساس بالتسامى ، وحب العدالة ، والتزام الأخلاق الكريمة ، والعزلة التى فيها تظل الأفكار والعواطف متسامية . أما الكمون فإنه يكتسب فى أواسط مرحلة الطفولة مع بزوغ الأنا الأعلى ، ومع التقدم فى القدرات المعرفية . بيد أن المراهقة تحمل معها ضغوطاً غريزية جديدة تؤدى إلى تفجُّر الصراع المكبوت فى هيئة أعراض عصابية تعيد ظهور الصياغة التوليفية بين الرغبات المتعارضة لكى تعبّر عن نفسها ضد الدوافع وتدافع عنها .

والواقع أن فرويد فى كتابه الحضارة وسلبياتها Civilization And its Discontents يحاول الإجابة عن السؤال المتعلق بالكيفية التى تؤثر بها الحضارة فى المواهب الغريزية لدى الإنسان . ومن الواضح أن الغرائز لابد أن تنضبط وفق النظام الذى يفرضه المجتمع حتى تبزغ إلى الوجود . وتبعاً لفرويد فإنها تستوعب فيما ينعته بأنه سمات الشخصية . ولإيضاح هذه الفكرة ، فإنه يذكر الاجتهاد والنظافة والنظام . وهو برغم اعترافه بأن تلك السمات الشخصية لا ترتكز على أسباب معروفة ، فإنه يلاحظ أن النظام والنظافة يشكلان مطالب حضارية . وهنا نلاحظ التناقض الذى يتعرض له تفسير فرويد للحضارة . ذلك أن استحالة الغرائز إلى سمات للشخصية ، كان واحداً من مزاعم نظرية الليبيدو ، ولكنه الآن يلاحظ أن النظافة والنظام هما توجُّهات حضارية ، وهو لا يعرف أصل تلك التوجُّهات أو كيف تطورت . أما بالنسبة للنظافة ، فإنه يقول إنها إدراك لمتطلبات الحضارة . والواقع أن هذه وجهة النظر البديهية ، ولكن

فرويد يصر فى الوقت نفسه على القول بأن السمات الشخصية هى إعلاءات Sublimations للطاقة الغريزية . وفى النهاية فإن التوجهات الحضارية تظل خارج نطاق النظرية . وهذه نتيجة حتمية تتأتى عن نظرية الليبيدو .

ومن سوء الحظ أن فرويد أقام تفسيراته المتعلقة بأصول وسياق الحضارة بأن جعل انضباط الغريزة هو محور بحثه . فلقد كان يبحث عن صيغة يتسنى بها إعاقة الغريزة حتى يسمح للمجتمع بأن يبدى تأثيره بوضوح . والطريقة الأولى التى رأى أن يحقق بها ذلك الانضباط هى التجرُّد من النشاط الجنسى Desexualization . أما الطريقة الثانية فهى قيام الحضارة بوضع العراقيل أمام الحياة الجنسية على هيئة تحريم غشيان المحارم ومنع تعدد الزوجات أو الأزواج . بيد أن فرويد يفترض خطأ أن هذه القيود عامة . فما ذهب إليه هو أن الطاقة الغريزية هى العامل الأساسى ، وأن المجتمع أو الحضارة مناهض للفرد ويعترض طريقه أو يحول دون إشباع غريزته الجنسية .

والقيود التى يفرضها المجتمع تنصب أساساً على الغريزة الجنسية والغريزة العدوانية . ويذهب فرويد إلى أن العدوان يعتبر غريزة مكافئة للباعث الغريزى الجنسى ، بمعنى أنها تنشد الإشباع كالغريزة الجنسية . بيد أن المجتمع يقيم الحواجز ضد هذا الإشباع فى هيئة علاقات حب غير جنسى وقيود يفرضها على الحياة الجنسية والأمر بأن يحب المرء جاره . وفى مقابل نبذ المرء لعدوانيته ، فإنه يحصل على قدر ما من الحماية الاجتماعية . أما بالنسبة لما ذهب إليه فرويد من وجود صراع أزلى فيما بين غريزتى الحياة والموت ، فقد وجد قبولاً وبخاصة فيما بين أولئك الذين يذهبون إلى تصوير المجتمع فى صور أيديولوجية وشعارات ويتحاشون فى الوقت نفسه كل نزعة واقعية .

Looloo
www.dvd4arab.com

والواقع أن الدراسات التى قدّمها فرويد فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية ، قد قامت على أساس فرضين خاطئين : أما الخطأ الأول فهو أن ما انتهى إليه تطور الفرد Ontogeny إنما هو تلخيص للأصول العرقية القديمة Phylogeny فى سياق التطور الحضارى . أما الفرض الثانى ، فهو أن الغريزة هى الدليل أو المرشد لكل العمليات السيكولوجية . ولقد عرّض فرويد نفسه لأخطاء خطيرة عندما ركّز على مشكلة الغرائز ، وذلك بالربط بين الغرائز وبين المعايير الكمية ، وبذا فإنه تناسى نظم العمل التى تضطلع بها الغرائز . وأكثر من هذا فإن الغرائز صارت فى رأيه مهيمنة على جميع آفاق الشخصية . وهذا يعزى إلى حد بعيد إلى استخدامه للغريزة لا كمفهوم بنيوى ، بل كمفهوم دافعى . فالغريزة تستمد قوتها لديه من مصادر عرقية بعيدة .

والواقع أن فرويد قام بتفسير الحضارة على أساس اعتمال غريزتى الحياة والموت ، وما ينشأ بينهما من صراع أزلى ضد بعضهما . فالتطور الاجتماعى المعتمد على المحاولة والخطأ التلقائيين بالنسبة للعلاقات الإنسانية ، واستمرار بقاء أكثر تلك العلاقات فاعلية ، هما العاملان على التقدم بقدرة الإنسان على التكيف . على أن الأنا فقد بذلك كل ارتباط بالبيئة الاجتماعية تاركًا المسئولية بإزاء استمرار بقاء الإنسان لتلك العوائق التى تقام ضد إشباع غريزة الموت .

ولقد اتضح أن هذه الأفكار الأخيرة قليلة القيمة . فحيث إنها عبارة عن تحصيل حاصل ، فإنها لا تحمل فى طياتها أية قيمة تفسيرية . وبالنسبة لها كموجّهات للسلوك ، فإنها لا تحمل أية قيمة برجماسية .

فكيف باللّه يتسنى للإنسان أن يتعامل مع « غريزة الموت » أو الإيروس Eros ؟ فمما لا شك فيه أن الإنسان يصير بلا حول ولا قوة فى مجابهة الصراع العنيف فيما بين ما أسماه فرويد بقوتى الحياة والموت . فالخليق أن نقول إنه لا توجد فكرة يمكن أن تكون مفيدة للإنسان تحمل مسئولية التحكّم فى قدره ، ولا تكون خارج نطاقه تمامًا .

والخليق بنا أن نقول إن معاناة الإنسان يجب أن تعتبر نتيجة ما يفشل فيه الفرد وما تفشل فيه الحضارة من تحقيق التكيف المناسب . أما إلقاء اللوم على غريزة الموت الفطرية ، أو تفسيرها فى ضوء إشباع الحاجة إلى الوقوع تحت طائلة العقاب وتحمّل الألم ، فإن ذلك يزيد من شعور الإنسان بالعجز ، كما أنه يشجّع على قيام كل شكل من أشكال العُتو الاجتماعى وقهر الإنسان .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثانى عشر

ألفريد أدلر Adler, Alfred

وكارل يونج Jung, Carl

فى عام ١٩١٢ أى بعد حوالى عشر سنوات من ظهور التحليل النفسى كمدرسة ، انشق عضوان بارزان عن فرويد هما الفريد أدلر وكارل يونج ، وأنشأ كل منهما مدرسة سيكولوجية خاصة به . وفى البداية بدا الاختلاف بين أدلر ويونج كما لو أنه اختلاف فى درجة تأكيد كل منهما على النقاط المختلفة بمذهب التحليل النفسى ، ولكن سرعان ما ظهر أن اختلافهما كان فى الواقع بصدد مسائل جوهرية . ومن ثم فقد أطلق على مذهب أدلر اسم علم النفس الفردى individual Psychology ، بينما سمى مذهب يونج بعلم النفس التحليلى Analytical Psychology . والواقع أن أدلر ويونج جميعًا قد أناطا أهمية أقل بالعوامل الجنسية .

والملمح الأساسى فى مذهب أدلر هو التأكيد على الرغبات التى ترتبط بالتأكيد على ذاتية المرء ، والتأكيد أيضًا على تفوقه على الأشخاص الآخرين . وتنشأ هذه الرغبات إلى حد بعيد عن الخوف من النقص . فكل فرد فى باكورة حياته يكون خاضعًا بلا مناص للإحساس بضعفه عندما يجابه بالقوى التى تحيط به . والواقع أن الحياة الإنسانية مكرّسة للصراع من أجل التفوق كتعويض عن هذا الإحساس بعدم الكفاية . إذن « فإرادة القوة » هى الحافز الإنسانى

الرئيسى . فعلم النفس لدى أدلر يرتبط ارتباطًا وثيقًا فى أنحاء كثيرة منه بفلسفة نيتشه Nitzsche .

وحيث إن الجنس الأنثوى البشرى هو الجنس الأضعف ويقع معظم أفراده فى وضع الخضوع ، فإن مطلب التفوق يأخذ غالبًا شكل « رغبة بتأكيد زائد فى إحراز الذكورة » An Overstrained Desire For Masculinity وهو ما أطلق عليه أدلر اسم « الاحتجاج الذكرى » Masculine Protest . وأكثر من هذا فإن لدى كل فرد نقطة ضعف معينة أو عقدة نقص سواء بجسمه أم بعقله . فحالما يكتشف هذه العقدة ، فإن اتجاهه للبحث عن القوة يتحدد بمحاولة التعويض عن هذا « النقص العضوى » . وهذا قد يتم بشكل مباشر وذلك بتغطية ذلك التخلف الأصلى بالتفوق بالاستمرار عن طريق التمرين وبذل الجهد كما حدث بالنسبة لديموستين Demosthenes الذى كان يتلعثم ، ولكنه صار واحدًا من أعظم الخطباء ، وكذا بالنسبة لساندو Sandow الولد الضعيف ، وقد صار الرجل القوى فى زمانه . والشىء نفسه يقال عن الشخص الذى لا تكون لديه سوى بصيرة ضئيلة بأفكار وبواعث أترابه ، فيعوّض عن ذلك بأن يصير عالم نفس .

وهناك طريقة أخرى يحقق بها المرء تفوقه فى مجال أخر غير المجال الذى يحس بالنقص بإزائه . من ذلك ما فعله نيتشه الذى حيل بينه وبين أن يصير جنديًا بسبب عجزه الجسمى ، فأحل القلم محل السيف ، ودوّن فلسفة تقوم على القوة وذلك لكى يعوّض عن ممارسة القوة الجسمية التى حرم منها . وهناك فى رأى أدلر حل ثالث عندما لا يجد الفرد أمامه مهربًا من بعض الصعوبات الخارجية فيرتمى فى أحضان المرض أو العصاب ، ومن ثم فإنه يتحاشى مطالب البيئة . وبهذه الطريقة فإنه ينقذ نفسه من الإدراك المؤلم لنقصه ، ويضع أمام

www.dvd4arab.com

عينيه « هدفًا خياليًا » لا يرتبط من قريب أو من بعيد بالإنجاز الحقيقى فى العالم الخارجى . ولقد يتخذ طريقًا عكسيًا ، وذلك بأن يجد مهربًا له فى فكرة أنه عديم القيمة . ومعنى هذا أنه يحل محل شعوره بالنقص فكرة أشد ايلامًا منها .

والواجب على المعالج النفسى أن يسعى أولاً وقبل كل شىء لاكتشاف « أسلوب حياة المريض » واتجاهه العام للتعويض . والواقع أن ذلك الأسلوب الذى ينهج الفرد وفقه والذى يتحدد فى سن مبكرة من حياته وفى ضوء دائرة الأسرة ، إنما يوجد على النحو نفسه فى جميع مجالات النشاط الإنسانى ، أعنى فى الحياة الاجتماعية وفى العمل وفى الحب بين الجنسين . فلكى يتسنى للمحاولات التعويضية أن تكون مُرْضية للمرء ، يجب أن تعود عليه بالفائدة ، وأن تحظى بالموافقة الاجتماعية . وفى هذا يتفق أدلر مع فرويد بصدد كلامه عن « الإعلاء » Sublimation .

والواقع أن أدلر بعزوفه عن الجنس يكون قد خسر ذلك المجال الخصب فى تعقيدات الحياة العقلية التى كسبها التحليل النفسى . لقد تلاشت جوانب كثيرة مما قال به فرويد كالصراع النفسى الداخلى والكبت والتكثيف والإزاحة وحتى فكرة اللاشعور ذاتها . ذلك أن مدرسة علم النفس الفردى قد أهملت هذه الجوانب فى أواخر عهدها . ويبدو أن أدلر قد ضحى بالكل فى سبيل التأكيد المبالغ فيه على جزء واحد فقط . ويبدو أنه قد عمد إلى تقديم مذهب يروق جدًا للأمريكيين الذين يريدون التعويض عما يستشعرونه من نقص بسبب تنازلهم عن هوياتهم الأصلية وتقدمهم نحو مجهول يريدون إثبات وجودهم فيه وخلق هوية جديدة لهم تعوضهم عما يحسون به من نقص .

وبينما نجد أن افتراق أدلر عن فرويد قد اتخذ شكل التقييد والحذف بالنسبة لكثير مما كانت تعتبره مدرسة التحليل النفسى أساسيًا ، فإن ثورة يونج قد اتخذت الموقف العكسى ، وذلك بالتوسع فى بعض الجوانب التى قالت بها تلك المدرسة . وهكذا نجد أن « الليبيدو » الذى يعنى فى نظر التحليل النفسى جماع « الغرائز المركّبة » Component Inistincts التى تدخل فى الباعث الجنسى ، فإنه يعنى فى علم النفس التحليلى جماع جميع الدوافع ، أى ما يناظر « الطاقة الحيوية » Elan Vitale عند برجسون Bergson . أما اللاشعور فإنه يمتد عند يونج لكى يشمل طبقة عميقة يشترك فيها الجنس البشرى بأجمعه ، ويسمى « اللاشعور الجمعى » Collective Unconscious وهو يتضمن « الطُرَز البدائية » Archetypes التى تعبر عن المفاهيم البدائية وعن حاجات ومطامح الإنسانية بالإضافة إلى « اللاشعور الشخصى » Personal Unconscious الذى يتضمن المادة المكبوتة التى تتأتى عن خبرة المرء الفردية . وتبعًا ليونج فإن مهمة التحليل ككل هى تشكيل تصور عن مستقبل الفرد بالإضافة إلى محاولته لتفسير ماضيه . وللأحلام والرموز أهمية وظيفية إلى جانب الأهمية المادية عند يونج . فالأهمية الوظيفية تشير إلى الحالات العقلية والميل ، بينما تشير الأهمية المادية إلى الموضوعات المادية أو إلى الأشخاص . والواقع أن فرويد وحده هو الذى أكد على الدلالة المادية . بيد أن الكثير مما اعتبر تعبيرات مباشرة أى غير رمزية فى رأى الفرويديين ، يعتبر ذا دلالة رمزية وظيفية فى رأى يونج . وعلى هذا فإن صورة الأب فى الحلم قد تقوم مقام الأفكار البدائية عن القوة أو السلطة أو التقاليد . أما القصة الأسطورية عن إخصاء الأب لابنه فإنها قد تنم عن تغلب طرائق الحياة الجديدة على طرائق الحياة القديمة أو

Looloo
www.dvd4arab.com

المحافظة جدا . وكذا فإن العديد من الأفكار الأخرى بما فى ذلك تلك التى لها طابع جنسى ، قد تكون رموزا « لليبيدو » .

والواقع أنه بصدد هذه الرمزية « الوظيفية » اتضحت شقة الخلاف بين فرويد ويونج . ولكن هناك جانبين آخرين فى عمل يونج يجب أن نعرض لهما هنا . فعندما بدأ يونج فى الإشتغال بعلم النفس ، فإنه أجرى سلسلة من البحوث المهمة حول الإرجاع الترابطى للكلمات . وهذه هى الطريقة التى ابتدعها جالتون وقام فندت بتطويرها واستغلها للبحث عن الجوانب المعرفية التى لم يسبق اكتشافها فى عملية الترابط . بيد أن الفضل الكبير يرجع إلى يونج فى إظهار كيف أن هذه العملية تتأثر أيضا بالعوامل المتعلقة بالرغبة . وليس بوساطة العوامل الإرادية فحسب . فإذا ما قدمت إلى المرء قائمة تتضمن مجموعة من الكلمات وطلب منه أن يذكر بأقصى سرعة أول كلمة ترد إلى ذهنه ، فإن كلمات معينة بالقائمة سوف ترتبط على الأرجح بالميول والموضوعات الإنفعالية ، وبذا فإن الإرجاعات التى تقدم بصدد هذه الكلمات سوف تكشف كقاعدة عامة عن بعض الخصائص الخاصة بذلك الفرد . والإرجاع قد يأتى متأخرا كما لو أن الشخص يحاول أن يستبعد ارتباطات غير سارة . وفى الحالات الشديدة فإن المرء يكون عاجزا عن تقديم أية إجابة على الإطلاق بنفس الطريقة التى تشير إلى عجز المرء عن اتخاذ أى موقف فى أحد المواقف الحرجة حيث يصاب بشلل مؤقت فيما يتعلق بالتصرف . ولقد يتكرر ذكر الكلمة المثيرة عدة مرات قبل أن يتسنى للشخص الذى يتم اختباره أن يجيب

عليها كما قد يحدث فى الحياة العادية عندما تتكرر على مسمعنا عبارة تدعو إلى الدهشة أو تكون لها دلالة غير مألوفة أو لاتلقى ارتياحا من جانبنا . ولقد لا يستطيع المرء أن يستجيب لنفس الكلمة التى سبق أن رد بها وذلك عندما يعاد الاختبار بأسره بعد فترة قصيرة ، كما لو أنه فى هذه الحالة غير مستعد أن يتذكر ، أو أنه يبحث عن طريقة جديدة للهرب .

أما الجانب الأخر من دراسة يونج فإنه يتضمن إسهاما فى نظرية الأنماط الفردية . فحالما بدأ علماء النفس فى توجيه الاهتمام إلى الفردية ، نشأت لديهم رغبة بطريقة طبيعية جدا لتصنيف الأفراد تبعا للنمط الذى ينتمون إليه . ولقد بدأ جالتون هذا الخط بالنسبة للصور الذهنية ، كما حاول كثيرون غيره الضرب فى إثره بمحاولة تصنيف الأشخاص إلى « سمعيين » و«بصريين » و«لمسيين » إلخ تبعا لنوع الأخيلة التى تسيطر عليهم . ولكن من سوء الحظ اتضح أن الغالبية العظمى من الناس لا ينتمون إلى أى نمط من هذه الأنماط ، ولا يبدون أى انتحاء إلى أى من هذه الاتجاهات ، بل يوصفون فقط بأنهم ينتمون إلى نمط « بينى » Intermediate . والواقع أن الوضع المثالى يحتم عدم تدخل الأنماط على الإطلاق .

على أن يونج هو الذى استطاع أن يقدم قائمة بالأنماط السيكولوجية الطموحة جدا . فلقد استخدم أساسا ثنائيا كأساس للتصنيف يتضمن أحد فروعه أنماط الاتجاهات ، بينما يتضمن النوع الثانى أنماط

Looloo
www.dvd4arab.com

الوظائف . وثمة نمطان أساسيان خاصان بالاتجاهات : النمط الإنطوانى ، والنمط الإنبساطى على التوالى . فصاحب النمط الإنطوانى يوجه الليبيدو إلى دخيلته ، ويتجه إلى البيئة من حوله من وجهة النظر الذاتية ، وقد أخذ يكيف الواقع لحاجاته الشخصية بقدر ما يستطيع . أما الشخص الإنبساطى من جهة أخرى فإنه يكون مهتمًا بالواقع فى ذاته ويكيف نفسه له . وإذا كان أحد الأشخاص انبساطيًا من الناحية الشعورية الواعية ، فإنه ينحو إلى أن يكون انطوانيًا من الناحية اللاشعورية ، والعكس بالعكس .

أما بالنسبة للأنماط الوظيفية فقد قسمها يونج إلى أربعة أنماط هى : النمط التفكيرى ، والنمط الوجدانى ، والنمط الحسى ، والنمط الحدسى على التوالى . وأطلق على النمطين التفكيرى والوجدانى معًا اسم النمطين الذهنيين ، وهما يحملان نفس العلاقة الواحد منهما للآخر كما هو حال النمطيْن المتعلقين بالإتجاهات . وعلى النحو نفسه نجد النمط الحسى والنمط الحدسى ، وقد سماهما يونج باسم النمطين غير الذهنيين .

ويذهب يونج إلى أن كانط Kant قد يكون مثالاً للنمط التفكيرى بفرض أنه انطوانى . أما دارون Darwin وهو من نفس النمط التفكرى فإنه انبساطى . والشخص من النمط الوجدانى يساق بعواطفه أكثر مما يساق بفكره . وهو عندما يكون انطوانيًا فإن عواطفه تكون حادة وقوية ، وعندما يكون انبساطيًا (والإناث فى هذه الحالة أكثر من الذكور) فإنه يكون محكومًا « بمنطق العاطفة » كما هو الحال لدى السيدة التى احتجت قائلة « إننى لا أستطيع أن أفكر فيما لا أحسه

بعواطفى » . أما صاحب النمط الإنطوانى الحسى فإنه يتمثل فى الفنان الذى يوجه اهتمامه إلى العالم المرئى الخارجى بالنسبة لما يوحى به إليه ، بينما قد يعتبر الفلاح الجلْف الذى لا يبدى إلا اهتمامًا فجًا بالأشياء الخارجية فى ذاتها نموذجًا للنمط الحسى الإنبساطى . وأخيرًا فإن بليك Blake والناسك قد يمثلان النمط الحدسى الإنطوانى . ولقد يمثل لويد جورج Lloyd George السياسى صاحب القدرة التكيفية المذهلة لجمهور معين من الناس أو لأحد المواقف التى كان يجابهها ، النمط الحدسى الإنبساطى . ولا شك أن يونج فى بحثه عن الأنماط — وهو البحث الذى اتخذ اسم « الأنماط السيكولوجية » Psychological -- Types يعتبر من الكتب الجذابة والمفيدة فى الوقت نفسه .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثالث عشر

تـأثير علم نفس الأعمـاق

فى علم الإنسان

المدهش أن البحوث التى بدأ بها فرويد مشواره فى مجال علم النفس ، والتى انصبت على علم النفس الفردى ، هى التى تضمنت شيئًا ذا قيمة فى أنظار العلماء الاجتماعيين وليست بحوثه الاجتماعية . فهو يقوم فيها بوصف موقف علم نفس بازاء التصرفات التى يمكن أن تعبّر عن ردود فعل الفرد على مشكلات التكيف . من هنا فقد صار من الممكن وصف الظروف التى يتخذها تطور شخصية المرء ، فتتخذ طابعًا معينًا راسخًا ، أو الظروف التى تؤدى إلى إصابته بعصاب ما من العصابات المتباينة .

وبدلاً من الإفادة من النتائج التى توصّل إليها فرويد والتى يمكن البرهنة عليها ، فإن معظم أتباع فرويد الذين انتحوا إلى المنحى الاجتماعى ، قد حاولوا استخدام جانب من نظرياته المتعلقة بالغريزة أو ما يرتبط بها .

ولقد يندهش البعض عندما يعلمون أن هناك « مدارس » مهمة عديدة تقع فى نطاق علم نفس الأعماق الحديث ، مع ما يوجد فيما بينها من تباينات واسعة النطاق . وحتى العلماء الاجتماعيين غالبًا ما يغضّون النظر عن هذه التباينات ويجمعون جميع المواقف المختلفة لتلك المدارس تحت لافتة واحدة ينعتونها أحيانًا « بالفرويدية » وأحيانًا أخرى « بالتحليل النفسى » . والواقع أن علم نفس الأعماق ليس

نظرية أو طريقة موحّدة شأنه فى ذلك شأن « الأنثروبولوجيا الثقافية » أو « علم النفس الاجتماعى » . وحيث إنه لا يوجد تطابق فى علم نفس الأعماق بإزاء النظرية أو بإزاء المنهج ، فلا يوجد تطابق بالتالى فى النتائج التى تتأتى عند تطبيقه بإزاء دراسة الثقافة . من هنا فإن من الضرورى أن نميز بين الاتجاهات العديدة التى طبقت بإزاء علم نفس الأعماق .

هناك أولاً المفهوم الذى استخدم فكرة لامارك Lamarck التى تذهب إلى أن خصائص الفرد يمكن أن تورّث للأجيال التالية . والفرض العام الذى ذهب إليه فرويد بهذا الصدد هو أن ما هو لا شعورى اليوم لدى الإنسان المعاصر ، كان الإنسان البدائى مدركًا له وواعيًا به . ولقد أدى هذا إلى القول بعقدة أوديب التى نشأت عندما قام ابن لأول مرة فى التاريخ القديم جدًا باغتيال أبيه . ثم إن « فترة الكمون » Latency Period التى يمر فيها المرء حاليًا ، إنما هى بمثابة تلخيص للعصر الجليدى ، كما أن القربان المقدس هو طقس يشير فى رأى فرويد إلى الوليمة الطوطمية البدائية ، كما أن مخاوف الطفولة غير السوية بمثابة ظلال للطوطمية المنعكسة على حياة الأطفال النفسية .

وقد قام جيزا روهيم Geza Roheim وثيودور ريك Theodor Reik بإذاعة هذه الأفكار التى قال بها فرويد ثم تلاهما وامر موينستربرجر Wamer Muensterberger وجورج ديفيروه George Devereaux واستمرا فى إذاعتها . والواقع أن ما توصل إليه هؤلاء جميعًا ، كان مجرد استنتاج بناء على فروض مشكوك فيها ، وبالتالى فإنه لا يحمل قيمة تجريبية . وليس من شك فى أن ما ذهبوا إليه يتفق بوجه عام مع ما ذهب إليه يونج Jung فيما يتعلق بالأنماط ، أكثر من اتفاقه مع ما ذهب إليه فرويد .

Looloo
www.dvd4arab.com

وثمة خط آخر للفكر المتعلق بعلم نفس الأعماق قد انبثق من نظرية فرويد . فثمة محاولات قد بذلت لاستخدام هذه النظرية الفرويدية لتحديد مسار التطور الاجتماعى . والواقع أن فرويد نفسه لم يستخدم نظريته بجدية بهذا الصدد ، ولكن الكتاب المتأخرين وبخاصة جيزا روهيم قد بذلوا جهودا طموحة للتقدم فى هذا السبيل .

فروهيم استخدم تصورين على الأقل استفادهما من نظرية الليبيدو محاولاً الإفادة منهما لشرح الظواهر الثقافية . ففى عمله القديم نجده قد حاول أن ينهج نهج فرويد مباشرة ، وذلك باكتشاف عقدة أوديب وعقدة الإخصاء فى جميع الثقافات بغير استثناء . بيد أن مفهوم التكيف ـ سواء أكان تكيف إحدى الثقافات للبيئة الخارجية ، أم تكيف الفرد للمتطلبات الثقافية ـ لم يندرج فى هذا التصور . ولكن روهيم قام فى عام ١٩٥٠ فى كتابه التحليل النفسى والأنثروبولوجيا Psychoanalysis And Anthropology بتقديم بعض التنازلات عن وجهة النظر التكيفية ، وقام بمناقشة الثقافات باعتبارها وحدات منفصلة قائمة بذاتها من حيث علاقتها بمشكلات التكيف المتباينة . وفى الوقت نفسه فإنه تنصّل من نظرية اغتيال الأب لأبيه فى قديم الزمان ، كما رفض بعض التطبيقات التى تتطلبها نظرية الليبيدو . وبدلاً من ذلك فإنه انتحى إلى ما قامت به ميلانى كلين Melaniec Klein من تعديل لنظرية الليبيدو ، وجعل ما انتهت إليه مرشداً له ، ولقد تضمّن تصورها المعدّل ما ذهبت إليه من أن بعض أخيلة الأطفال الفصاميين ، تمثل مرحلة سوية من مراحل تطور الشخصية ، برغم ما تتضمنه من تحريف للواقع .

ولتوضيح التخبط وعدم الاتساق فى نظريات روهيم ، يكفى أن نتناول ما قام به من تحليل للأستراليين بوسط أستراليا . فهو يقرر أن

أفراد هذا الشعب ينحون منحى « تناسليًا » Genital فى سلوكهم ، وذلك لأنهم لا يمرون فى طفولتهم بالمرحلة الفمّية ، ولم يعانوا من الإحباطات التى يعانى منها الأطفال عادة خلال هذه المرحلة فى طفولتهم . ومن جهة أخرى فإنه يجد أن لديهم أخيلة تتعلق بتدمير الجسم Body -- Destruction كما استشفها من الحكايات الشعبية التى يقال فيها : إن الوالدين يلتهمان أطفالهما . فيقول روهيم : إننا نجد هنا تأكيدًا لما ذهبت إليه ميلانى كلين فيما يتعلق بالأخيلة التى تتعلق بتدمير الجسم كمرحلة سوية من مراحل تطور الشخصية . ويرفض روهيم أن يربط فيما بين هذه الأساطير وبين الواقع الممارس بالفعل ، وهو أنه عندما تحيق المجاعة بهذا الشعب ، فإن الناس يقتلون أطفالهم ويلتهمونهم . والواقع أن الأطفال هناك يعلمون أنه إذا ما حدثت مجاعة ، فإن أصغر الأطفال يكون هو الضحية الأولى ، ثم يتلوه الثالث ، فالخامس إلخ فى ترتيب الأطفال من الأصغر إلى الأكبر . ويبدو أن هذه الحقيقة لم تعْن شيئًا فى نظر روهيم ، وبالتالى فإنه لم يجد فى الأدب الشعبى هناك ما يجذب انتباهه ، بل إنه أحل محلها خيال تدمير الجسم الذى لم ير له وجودًا إلا لدى الأطفال الفصاميين والأولاد الذين يعانون من الحرمان إلى حد بعيد .

والواقع أن هذا مثال واحد من بين أمثلة عديدة يمكن أن نقدمها بإزاء دراسات روهيم ، ولكنها تكفى للكشف عن مدى خطورة الاستنتاجات التى يخلص بها الباحث بناءً على أفكار زائفة .

ولقد استخدم روهيم أيضًا الجانب الحيوى من نظرية الليبيدو لتفسير الظواهر الاجتماعية . فكما أن الظواهر المرضية قد اعتبرت انبثاقًا من الطاقات الجنسية ، فإنه اعتبر الظواهر الاجتماعية مثل الصداقة والتعاون ، انبثاقًا أيضًا من الطاقات الجنسية . وفى هذا

Looloo
www.dvd4arab.com

النصور اعتبرت الصداقة بمثابة تعبير عن الليبيدو المجرّد من الجنس . وحيث إن من المستحيل تصور جهاز نفسى يمكن أن يضطلع بمثل هذه الانبثاقات ، فإن هذه الفكرة لم تحمل فى طياتها أى قيمة تفسيرية . فهى تفشل فى أن تأخذ فى اعتبارها الظروف التى يتعاون فى ظلها الناس فى أى مجتمع أو لا يتعاونون ، كما أنها تعجز عن تقديم تفسير لما يحدث عندما يفشل التعاون .

أما إيريك إيريكسون Erik Erikson فإنه لا يتحمس بقلبه لمفهوم « الطاقات الليبيدية » Libidinous Energies ، بل انه يستمد مفاهيم الطاقة من خارج نظرية الليبيدو . فهو يذهب إلى أن فتحات الجسم أو أعضائه ، هى مصادر الخبرات التى تشكل الأساس المعرفى لمفاهيم معينة ، والأساس للاتجاهات التى تتبدى فى حياة الفرد . أما فى النظرية الفرويدية ، فإن هذه الأعضاء تعتبر البورات التى يتأتى عنها توزيع الطاقات الليبيدية . وبالنسبة لمفهوم إيركسون ، فإننا لا نجد لديه أن الشخصية تتشكل من خلال تحول الإثارة الجنسية المتعلقة بالإست أو بالفم . وبدلا من ذلك فإننا نجده يقول : إن الخبرات المتعلقة بالأكل والإخراج ، تصير هى المصادر الأولى فى حد ذاتها لاكتساب اتجاهات معينة مثل الامتصاص والاحتجاز والإخراج . وعلينا أن نلاحظ أن هذه الفكرة قد سبق أن عرض لها فرانز الجزاندر Franz Alexander فى عام ١٩٢٤ ، ثم قدمها بعد ذلك ساندور رادو Sandor Rado فى عام ١٩٢٤ أيضا ، وأبرام كاردينر Abram Kardinere فى عام ١٩٣٨ ، والواقع أن دراسة إيريكسون تشكّل هروبا من القيد الشديد المفترض على البحث التجريبى الذى تفرضه نظرية الليبيدو ، ولكنها دراسة محدودة كمنهج يمكن استخدامه فى تتبع أثر المؤسسات الاجتماعية فى السلوك البشرى . فهى لا تقدم تقنية لدراسة الثقافة

والتاريخ . والواقع أنه باستثناء ما أدخله إيريكسون من تعديل على نظرية الليبيدو كتصور يتعلق بتطور الكائن الحى ، فإن بحثه لا يعدو أن يكون استمرارا لبحث روهيم . وبالنسبة للتطبيقات العملية ، فإنه قدم دراسة حالة واحدة بغير تعمق عن السيوكس Sioux ، بينما لم يقدم أى دراسة بإزاء يوروك Yurok .

أما بالنسبة للتعديل الثانى الذى أدخله فرويد على نظريته الخاصة بالغريزة ، وقد فرض فيه استقلالا لغريزتى الحياة والموت ، فقد رحب به بعض الكتاب باعتباره نظرة متحررة إلى العلوم الاجتماعية . ولا شك أن هربرت ماركوس Herbert Marcus قد تأثر بصفة خاصة بهذه النظرة فى تناوله للديناميات الثقافية .

والواقع أن المدارس الثقافية التى نُعتت بأنها تختص بعلم نفس الأعماق والتى يمثلها كتاب من أمثال هارى ستاك سوليفان Harry Stack Sullivan وكارن هورنى Karen Horney ، لم تقدم أى إسهامات ذات بال إلى العلوم الاجتماعية . وعلى الرغم من أن فروم Fromm قد كرّس معظم اهتمامه لهذا المجال ، فإنه لم يقدم تقريرا بالمبادئ ، كما أنه لم يقترح أية تقنية للبحث المنظّم للمعطيات الثقافية . فما يزعم من ميكانزمات يتضمنها مقاله « الهروب من الحرية » Escape From Freedom ، فإنها لم تقم فى ضوء أى نظام معترف به فى علم نفس الأعماق . فمفهوم الماسوشية كجهد يبذل للارتماء فى أحضان شىء أكبر من المرء المتصف بالماسوشية ، إنما هو مفهوم سبق أن قدمته هورنى . وفى النهاية فإن أفكار فروم يمكن أن تستخلص من مزيج من أفكار مارتين بوبر Buber Martin وزن بوديزم Zen Buber . ومن ثمّ فإنها تكون من حيث المبدأ غير قادرة على الصمود كأفكار تقوم على أساس مكين . بيد أن فروم يعتبر صاحب مقالات مثيرة وقد اكتسب شهرة واسعة .

Looloo
www.dvd4arab.com

وبالإضافة إلى هذه الجهود المتباينة لعلماء التحليل النفسى التى عرضنا لها قبلاً ، فإن هناك باحثين من ميادين أخرى حاولوا تطبيق المعرفة المستمدة من علم النفس الفرويدى والتى تستخدم فى دراسة الثقافة . والنتيجة كالشأن بإزاء بعض دراسى العلوم الاجتماعية هى الضرب غالبًا فى إثر عملية تضطلع بإحالة الفروض الواضحة والبسيطة المتعلقة بالتحليل النفسى إلى رطانة مضطربة ومعقّدة . والواقع أن ترجمة العلاقات المعروفة إلى أبنية عقلية مجردة ، لا تخدم سوى إشاعة النشوة فى قلوب السطحيين ، بينما تبعث على الضيق فى قلب الدارس الذى يرغب فى بذل جهد أصيل لتعلم شىء له وزنه .

أخيرًا فإن علم النفس الفرويدى قد تعرض لتركيب جديد بوساطة أعضاء عيادة التحليل النفسى بكلية جامعة كولومبيا Columbia University Psychoanalytic Clinic وبخاصة ساندور رادو Sandor Rado وابرام كاردينر Abram Kardiner ودافيد ليفى Davidm Levy وقد انتحى هذا التركيب الجديد إلى التأكيد على الجانب التكيفى Adaptational وليس على الجانب الغريزى Instinctual فى نظرية فرويد . فركز رادو على النظرية العامة الخاصة بالعُصابات ، بينما ركّز ليفى على اضطرابات الطفولة وعلى علم النفس التجريبى ، أما كاردينر فقد ركّز على استخدامات علم نفس الأعماق التكيفى فى العلوم الاجتماعية .

ويمكن أن نحدد ما يختلف فيه استخدام كاردينر لعلم نفس الأعماق بصدد علم الإنسان عن الاستخدامات الأخرى له على النحو التالى :

١ ـ إن التطور الاجتماعى لم يسلك طريقًا واحدًا ووحيدًا . ومن ثم فإن كل مجتمع يجب أن يُدرَس كوحدة قائمة بذاتها . وهو يتفق بهذا الصدد مع مالينوفسكى وغيره من أصحاب النزعة التوظيفية .

٢ ـ لكى نفهم مؤسسات مجتمع ما ، فإن ثمة محاولة يجب أن تبذل فى سبيل إعادة صياغة مشكلات التكيف التى جابهها ذلك المجتمع . ومن المعلوم أن هناك وسائل كثيرة تستخدم فى حل هذه المشكلة الاجتماعية . ففى بعض المجتمعات حيث تنتشر المجاعات ، ومن ثم يتحتم تقليص عدد السكان ، فإن المشكلة لابد أن تجد حلاً لها ، سواء بقتل الإناث من الأطفال فى بعض المجتمعات ، أم بالتهام الأطفال فى مجتمعات أخرى .

٣ ـ إن المؤسسات الاجتماعية عبارة عن علاقات نمطية تعمل على تكييف الفرد للبيئة البشرية والبيئة الطبيعية .

٤ ـ إن نجاح أو فشل التنميط الاجتماعى يتحدد فى ضوء النتائج التى تترتب عليه . فالباحثون النسبيون المتطرفون يذهبون إلى أن التنميط الاجتماعى بإزاء أى شىء يعد خطأ ، وأن ثمة عقوبة تترتب على التنميط الاجتماعى الرديء . فالنتائج التى تترتب على ذلك التنميط تعتبر كارثة فى نظرهم ، وبالتالى فإن الثقافة بالكامل تكون عرضة للخطر إن عاجلاً أم آجلاً .

٥ ـ إن مناهج فرويد المتعلقة بالبحث يمكن أن تستخدم للربط بين المؤسسات الاجتماعية وبين الفرد وما ورثه فى قوامه البيولوجى . أما نتيجة هذا التفاعل فإنها ليست متقوّلبة ، بل تقع فى نطاق مدى محدد من التباينات التى تحدد ملامح شخصية المرء . فالأفراد فى مجتمع ما يخلقون عن طريق تفاعلهم بعضهم مع بعض أنظمة جديدة لم تكن قائمة من قبل ، يعمل بعضها على دعم التعاون فيما بينهم ، بينما يعمل بعضها الآخر على إثارة القلق والسخط فى قلوبهم ، ويعتمد نجاح أو فشل أى مجتمع على مدى تحقيق التوازن لصالح التعاون أو لصالح القلق والسخط .

Looloo
www.dvd4arab.com

والواقع أن التقنيات التى استخدمت فى هذا التطبيق الجديد لعلم نفس الأعماق فى مجال الأنثروبولوجيا ، قد أدت إلى استخدام ثلاثة أنواع من المعرفة التى ترتابط فيما بينها على النحو التالى : (١) وصف عمليات الاتزان البدنى التى تعتمل فى نطاق المجتمع ، (٢) وصف « الشخصية الأساسية » Basic Personality التى تنأتى عن تواجد أنماط معينة من الاتزان البدنى للمجتمع ، (٣) وصف ديناميات التغير الثقافى ، والمادة المستفادة من الدراسات التى أجريت على الثقافات الماركويزانية Marquesan والألوريزية Aloresc والأوربية ، وهو ما يعمل على إيضاح نوع المعلومات التى يمكن أن تستمد من هذه الميادين الثلاثة من البحث .

ففى ماركويز از Marquesas ، وهى جزيرة بوسط الباسيفيك ، ثمة مجاعات تحدث من فترة إلى أخرى نتيجة القحط الشديد الذى يشكل المشكلة الأساسية بإزاء التكيف الاجتماعى . ويتعامل الماركويزيون مع هذه المشكلة المتعلقة بندرة الطعام بقتل الإناث من أطفالهم . بيد أنهم لا يقتلون الأطفال الإناث بأيديهم ، بل يقدمونهن للقبائل الغازية التى تقوم بالتهامهن . والواقع أن القضاء على الإناث باعتبارهن العامل على الزيادة فى حجم القبيلة ، يعمل على الإبقاء على عددها فى نطاق الحدود التى تتناسب مع مقدار الطعام المتاح . ففى ضوء هذا الحل البسيط والفج بإزاء مشكلة أساسية تعترض استمرار بقاء القبيلة ، تقع على وسيلة غليظة لتحقيق الاتزان الاجتماعى أو التكيف للظروف الموجودة هناك .

بيد أنه فى كل عملية تكيُّفية ، نجد أن القيام بحل إحدى المشكلات يتأتى عنه نشوء مشكلات جديدة تترتب عليه . ففى الماركويز از أدى التحكم فى عدد السكان بقتل الإناث إلى الزيادة فى عدد الرجال عن

عدد النساء بنسبة تبلغ حوالى خمسة إلى اثنين ، وترتب على هذا وجود تفاوت فى التوزيع غير المتعادل بالنسبة لفرصة ممارسة الجنس . ومن هنا فإن الحل المتوقع لهذه المشكلة كان اللجوء إلى تعدد الأزواج ، وقد صار هذا النوع من الزواج يسمح للمرأة بأن تتزوج رجلين أو أكثر . بيد أن هذا لم يكن الحل المثالى ، ولكنه فى ظل الظروف المحيطة بهم ، فإنه ربما يكون أفضل حل توفيقى ممكن .

على أن ثمة آثارًا مهمة قد ترتبت على هذا الحل فيما يتعلق بالاتجاهات والسلوك لدى الماركويزيين ، بدءًا من مرحلة الطفولة . فحتى بالنسبة للأسرة الأحادية المكونة من زوج وزوجة ، فإن المرأة تكون فى مجابهة مشكلة التوزيع العادل لوقتها واهتمامها بين زوجها وأطفالها . أما بالنسبة للمرأة ذات الأزواج المتعددين ، فإن قدرتها على إرضائهم جميعًا يشكل مشكلة ضخمة أمامها . أما الأطفال فإنهم يعانون بصفة خاصة وبشكل مباشر من الحرمان إذ إن احتياجاتهم تكون أكثر إلحاحًا وغير قابلة للمساومة ، كما يشيع بينهم الشعور بالحرمان والخوف والقلق . وهذه نتائج لا مناص منها بالنسبة للماركويزيين إذ تقضى الأم معظم وقتها مع العديد من الأزواج ، وعندما لا تكون منهمكة معهم ، فإنها تأخذ فى الاهتمام بزينتها حتى تظل مرموقة فى أنظار أولئك الأزواج المتعددين . والواقع أن هذا الإهمال الذى تبديه الأم فى المجتمع الماركويزينى ، يُفضى إلى الاهتمام الذى يبديه الزوج الرئيسى والأزواج الثانويون والعمّات والأعمام للأطفال . وهذا الاهتمام كاف لمنح الطفل القدر الأدنى من الحماية ضد الأخطار المادية ، وتشريبه المعتقدات الاجتماعية البسيطة والمحرمات . بيد أن هذا لا يكفل له الأمن العاطفى والتعلق الذى يحس به الطفل الذى يرتبط بأمه التى تكرس وقتها له .

Looloo
www.dvd4arab.com

وكذا فإن الأزواج يعانون من إهمال الزوجة لهم بالمجتمع الماركويزينى . بيد أنه بالنسبة لهم فإن هذا يشكل حالة أجبروا عليها للتكيف لظروفهم منذ طفولتهم . بيد أن مظاهر ذلك التدمير النفسى الناجم عن هذا الإهمال يتخفى إلى حد بعيد . فالغيرة بين الرجال — على سبيل المثال — تقمع وتستخفى فى طيات الاهتمام بالتعاون الاجتماعى الإنتاجى . ولا تبدى إلا عندما يصير الرجال مخمورين . وبالإضافة إلى هذا فإن الرجال ينضمون بعضهم إلى بعض حتى يتسنى لهم الشعور بالتكافل وتحقيق ذواتهم . فهم يتعاونون ويتحدون بعضهم مع بعض لمجابهة النساء فى مناسبات احتفالية معينة . ولكن تكمن تحت سطح هذه الاحتفالات كراهية مشتركة بينهم بتجاه النساء .

وتتبدى الشواهد التى تشير إلى تلك الكراهية التى يحملها الرجال ضد النساء فى هذا المجتمع فى أساطير الماركويزيين وفى حكاياتهم الشعبية . ففى هذه الحكايات تصور النساء كشخصيات خبيثة وكمستغلات بلا رحمة ، فهم يصوّرن باعتبارهن من آكلى لحم البشر ومغوّيات للشباب الصغار الأبرياء ، وكسارقات لطعام الأطفال . وفى أخيلة أدبهم الشعبى نجد أن الماركويزيين يعبّرون عن الخوف والكراهية المعتملين فى قلوبهم تجاه النساء ، ولكن تلك المشاعر تستخفى إلى حد بعيد وتقمع فى الحياة اليومية الواقعية .

بيد أننا إذا ما نظرنا إلى تلك السمات ، فإننا قد نجد أن هناك بعض النتائج الثانوية الإيجابية التى تترتب على إهمال الوالدين للأطفال . فإهمالهم يعنى قلة القيود المفترضة عليهم . وبالنسبة لنطاق السلوك الجنسى ، فإن عدم وجود قيود على ذلك النشاط ، قد أدى إلى تمتعهم بدرجة يحسدون عليها من القوة الجنسية التى يقال : إن الرجال الماركويزيين يمكن أن يبدوها فى نطاق فرص المعاشرة الجنسية

المحدودة مع الزوجة . وكذا فإن الثقافة الماركويزية قد كفلت درجة عالية من الاستقلال والنضج العقلى المبكر ، مما يعزى إلى عدم وجود قيود التواكل والأوامر القسرية . والواقع أن المناصرين للنسبية الثقافية من الغربيين قد يتناولون هذه الشواهد كبرهان على وجوب إهمال الوالدين لأطفالهم كترياق للعجز الجنسى والاعتماد بتواكل على الآخرين ، ولكن الواقع أنهم يُهملون النمط التكيفى الفريد الذى تكون لهذه السمات الثقافية أهمية خاصة فى إطاره .

والواقع أن ندرة الطعام فى هذا المجتمع والأخذ بنظام تعدد الأزواج وعدم التوافر النسبى لمبادئ السلوك خلال الطفولة ، قد شكلت جميعًا المؤثرات الأولى فى تطوير أفراد هذا المجتمع . ومن الممكن ملاحظة نتائج هذه المؤثرات الاجتماعية فى القوام العام لشخصية الماركويزى كما يصفها علماء الأنثروبولوجيا الوصفية . وبالإضافة إلى هذا فإن النسيج العام لهذا المجتمع يمكن أن يشاهد باعتباره عاكسًا ومكملاً ومعبرًا عن قوام الشخصية هناك . وفى ضوء هذا فإن التنظيمات الاجتماعية للماركويزيين لم تظهر إلى الوجود بالمصادفة أو باعتبارها أنماطًا من السلوك الثقافى المتطور أو المستعار ، بل ظهرت بالأحرى كوسائل للتكيف الإنسانى فى نطاق نمط تكيفى فريد .

ولقد أوحت الدراسة المتعلقة بالمجتمع الماركويزى بالتذرع بمنهج وبإطار مرجعى جديدين يتسنى بوساطتهما دراسة آثار تنظيمات اجتماعية معينة فى أفراد مجتمع ما . ولقد عمل ذلك على تحقيق إمكانية ابتكار وسائل ناجعة للنقد فى دراسة التنظيمات الاجتماعية البشرية وديناميا تها . وهكذا فإن تطبيق علم نفس الأعماق التكيفى

www.dvd4arab.com

بإزاء المعطيات الثقافية قد كُرّس منذ البداية لتحقيق هدف علمى ، أعنى ترسيخ قوائم المجتمع وتحقيق السعادة البشرية .

والواقع أن ثمة محاولة جادة ومنظمة قد بذلت لاستخدام تقنيات علم نفس الأعماق فى مجال علم الإنسان قد بدأت فى عام ١٩٣٦ بالاشتراك مع كورا دوبوا Cora Dubois . وبعد القيام بمحاولة ميدانية للعمل بما توافر من دراسات أنثروبولوجية وصفية تتعلق بجزر تروبرياند Trobriand Islands وتشوشى Chuchchee وزونى Zuni ، فقد صار من الواضح أن المعلومات المستقاه لا تكفى للقيام بتحليل دينامى سيكولوجى منظم . من هنا فقد تحتم القيام بحملات ميدانية عديدة متذرعة بمناهج متباينة حتى يتسنى الحصول على المعلومات الكافية والناجعة بإزاء التكيف الاجتماعى كما يتم فى حياة أفراد كل مجتمع من المجتمعات التى يتم دراستهما .

★ ★ ★

الفصل الرابع عشر

الفريد بينيه Binet, Alfred

سبيرمان Spearman

بينما كان الفريد بينيه يجرى اختباراته العديدة على ابنته ، فإن الباعث الذى استدعى تحقيق التقدم فى هذا الميدان قد تأتى إلى حد بعيد من المشكلات التى تتعلق بغير الأسوياء . ففى عام ١٩٠٤ أى فى السنة التى سبقت ظهور كتاب بينيه بعنوان « الدراسة التجريبية » ، طلب وزير التعليم الفرنسى من بينيه أن يشارك فى لجنة شُكلت لدراسة الطرائق التى يجب اتباعها مع الطفل « المعوّق » . ولقد كان من أكثر المشكلات أهمية التى جابهت هذه اللجنة ، هى كيفية العثور على بعض الوسائل التى يمكن بوساطتها التمييز بين نقص القدرة من جانب ، وبين الكسل أو نقص الاهتمام من جانب آخر .

قام بينيه بالاشتراك مع سيمون Simon بوضع سلسلة من الاختبارات التى تتدرج من السهل إلى الصعب . ولقد خضعت هذه الاختبارات التى نشرت أول ما نشرت فى عام ١٩٠٥ لعدد من المراجعات ، فأعيد نشرها مع التعديلات والإضافات التى أدخلت عليها فى عام ١٩٠٨ ، ثم نشرت مرة أخرى فى عام ١٩١١ . واستهدفت هذه الاختبارات فى شكلها النهائى القيام بقياس الذكاء فى ضوء « العمر العقلى » ، أعنى تحديد معايير لكل سن ينمو إليها المرء . وبمساعدة تلك الاختبارات يمكن تشخيص قدرة أى طفل كمثل بأنه سوى أو فوق السوى أو أقل مستوى من السوى . وفى الحالتين

Looloo
www.dvd4arab.com

الأخيرتين يمكن أن يقال فى ضوء هذا المقياس : إنه حاصل على عمر عقلى أكبر أو أصغر من عمره الزمنى .

لقد أثبتت اختبارات بينيه نجاحًا عظيمًا : وترجمت وعُدّلت لكى تطبق فى أقطار متباينة ، وبخاصة بوساطة جودار Goddard ويركس Yerkes وترمان Terman فى أمريكا ، وبوساطة بيرت Burt فى انجلترا ، وبوساطة تريفس Treves وسافيوتى Saffiotti فى إيطاليا . وفى أثناء ذلك كان هناك باحثون آخرون وبخاصة فى أمريكا يقومون بوضع اختبارات أخرى . والواقع أنه بغض النظر عن جالتون وبينيه وإبنجهاوس ، فإن أمريكا كانت البيت الحقيقى للاختبارات العقلية التى كانت النتاج الطبيعى للاهتمام السائد هناك بالفروق الفردية الذى ميّز علم النفس الأمريكى . ولفظ « الاختبار العقلى » Mental Test نفسه من وضع كاتل Cattell الذى قام بإجراء الاختبارات على الطلبة الذين يلتحقون بكولومبيا منذ عام ١٨٩٦ ، وفى أوائل القرن العشرين كانت هناك محاولات جديدة رائدة قام بها كركباترك Kirkpatrick وكيلى Kelly ونورسورثى Norsworthy وآخرون .

والواقع أن ما يميز هذه الاختبارات الأمريكية عن اختبارات بينيه أنها كانت قاصرة على العمليات الحسية والإدراكية والحركية البسيطة التى كانت المقاييس المعملية حتى ذلك الوقت ناجحة فيها جدًا ، بينما استمد بينيه بشجاعة المواقف التى يتم اختيارها من الحياة العادية . ولذا فإنه منذ البداية وجد نفسه يتناول العمليات العقلية « العليا » . ولقد برهنت إجراءات بينيه على أنها أكثر فائدة لأسباب كانت واضحة بعد اتخاذها . ويمكن فى الواقع أن نلخص الميزات التى امتازت بها اختبارات بينيه فيما يلى :

أولاً - امتازت هذه الاختبارات بالتمييز بين النتائج التى تعزى إلى القدرة الفطرية من جهة ، وبين النتائج التى تعزى إلى الخبرة والتربية من جهة أخرى .

ثانيًا - التمييز بين الاختبارات « اللفظية » وبين اختبارات « الأداء » .

ثالثًا - التمييز بين « الاختبارات الفردية » حيث يتم اختبار كل فرد على حدة ، وبين « الاختبارات الجمعية » التى يمكن أن يتم بوساطتها اختبار مجموعة كبيرة من الأفراد . والواقع أن النوع الأول من الاختبارات يتمتع ببعض ميزات تتعلق بالظروف المعملية ، وذلك بإمكان إضافة الملاحظات التى يمكن توافرها حول سلوك الشخص المختبر . وفى الوقت نفسه فإن التركيز على شخص واحد يسمح بالإلمام بجميع جوانب شخصيته . أما الاختبارات الجمعية فإنها تمتاز بأنها تسمح بإجراء دراسة مستفيضة وإحصائية بالنسبة لتوزيع القدرات على فئات معينة من الأفراد .

رابعًا - مقارنة نتائج الاختبار بتقديرات أشخاص مؤهلين كالمدرسين ونحوهم . وبذا يمكن اختبار الاختبارات ذاتها بصدد ما تقوم بقياسه . وفى الفترات الأولى من ظهور اختبارات « الذكاء » كان من المرغوب فيه جدًا مقارنة نتائج الاختبار بتقديرات المتعاملين مع الشخص الذى أجرى عليه الاختبار ، وذلك للتأكد من مدى متانة الاختبار ونجوعه .

خامسًا - تطبيق الاختبارات بصدد مشكلات الفروق الجمعية . والواقع أن الباعث الأصلى فى عمل إبنجهاوس وبينيه قد نشأ عن حاجة عملية للتمييز بين الأطفال « الأسوياء » وبين الأطفال المعوّقين عقليًا ، وذلك لتحقيق أهداف تربوية . وسرعان ما وجد أن الاختبارات

Looloo
www.dvd4arab.com

كانت مناسبة بنفس القدر للكشف عن فروق جمعية مهمة كالفروق بين الجنسين ، والفروق المتعلقة بالوراثة ، والفروق المتعلقة بالسن .

سادسًا ـ وضع اختبارات خاصة بالصفات أو الخصائص العقلية للاختبارات التى تقيس القدرة العامة أو « الذكاء » ، وهى الاختبارات التى بدئ بها أولاً . وفى البداية كان هناك ميل للاعتقاد فى أن هذه القدرة المقاسة كانت مستقلة عما يتم تعلمه عن طريقة الخبرة . ولكن سرعان ما وجد أنه بالرغم من أن هذا المفهوم لا يجد ما يبرره تمامًا ، فإن من الممكن أن توضع اختبارات ذكاء لا تعتمد إلا قليلاً جدًا على الخبرة . بيد أن هذه الاختبارات تختلف اختلافًا جوهريًا عن تلك الاختبارات التى تستهدف قياس درجة التحصيل التعليمى باعتبار أن التحصيل غير القدرة . وبذا فقد نشأت سلسلة من الاختبارات التحصيلية التى تقيس مدى التقدم فى المواد الدراسية بالمنهج الدراسى . وهذه الاختبارات الجديدة تحل محل الأشكال التقليدية من الامتحانات . فهى موضوعية وتستبعد العوامل الشخصية بالوقوف على مدى تحصيل الطالب فى جوانب شخصيته المتباينة .

سابعًا ـ تطبيق الاختبارات بصدد مشكلات عملية أوسع نطاقًا . والواقع أن الفضل فى هذا الاتجاه يعود إلى بينيه وغيره من واضعى الاختبارات العقلية فى توسيع نطاق تطبيقها بالجيش الأمريكى . وكان الهدف من تلك الاختبارات استبعاد أولئك الأفراد الأغبياء جدًا من الخدمة العسكرية والإبقاء على أولئك الذين يبشرون بالتقدم السريع ، أو اختيار أولئك الذين يمكن أن توكل إليهم مهام خاصة أو أنماط خاصة من العمل . وكذا فإن هذه الاختبارات قد صارت تُجرى على الراغبين فى الهجرة إلى الولايات المتحدة .

ثامنًا ـ تطوير الإجراءات الإحصائية للإفادة من المعلومات المتجمعة وبخاصة تلك الطرائق المتباينة المتعلقة بحساب « معاملات الارتباط » ، أعنى الحصول على أرقام مفردة تعبر عن درجة العلاقة بين الاختبارات .

أما سبيرمان فإنه دخل إلى مجال علم النفس متأخرًا نسبيًا بعد أن استقال من لجنة الجيش البريطانى والتحق بفندت ومولر لدراسة مشكلات العقل . وفى عام ١٩٠٧ صار مسئولاً عن قسم صغير وجديد لعلم النفس بالكلية الجامعية بلندن خلفًا لمكدوجال الذى كان معمله مجهزًا فى معظمه بأجهزة استوردت من معمل فريبرج . ولقد ظل هناك حتى انتقاله إلى أمريكا فى عام ١٩٣١ ، وخلال الأربعة والعشرين عامًا التى قضاها فى العمل بلندن قام بتأسيس أكثر المدارس أهمية هى مدرسة « العامل » Factor وقد جذبت إليها العديد من الطلبة من بقاع مختلفة من خارج البلاد .

قام سبيرمان فى عام ١٩٠٤ بنشر مقال فى « المجلة الأمريكية لعلم النفس » ركّز فيه على الجزء المهم من مذهبه . ويتضمن هذا المذهب وجود عامل عام للقدرة من جهة ورمز له بالرمز G ، وهو يتباين فى القوة من فرد لآخر ، ولكنه يعمل إلى حد ما فى جميع ما يضطلع به الشخص من أعمال . وهناك من جهة أخرى عدد كبير من القدرات الخاصة العالية يرمز لها مجتمعة بالرمز S . على أن G و S يتباينان فى أهميتهما من نشاط إلى نشاط آخر .

وعلى هذا فيمكن أن ننعت وجهة نظر سبيرمان حول « قدرات الإنسان » بأنها نظرية ذات عاملين أساسيين . وسبيرمان نفسه يقول : إن نظريته تختلف عن أى من « نظريات الذكاء » التى سبق الأخذ

Looloo
www.dvd4arab.com

بها . وهو يصنف تلك النظريات التى سبقته إلى ثلاثة أنواع رئيسية على النحو التالى : أولاً ــ نظريات « ملكية » وتبعًا لها لا يوجد سوى عامل واحد أو قدرة واحدة ، تكون قوية لدى أولئك الذين يعتبرون أذكياء ، بينما تكون ضعيفة عند الأغبياء أو المتخلفين . ثانيًا ــ النظرية « الأوليجارشية » ووفقًا لها يكون هناك عدد ضخم من الملكات منها ملكة « الحكم » وملكة « الذاكرة » وملكة « التخيل » إلخ . ثالثًا ــ النظرية « الأنارشية » أو الفوضوية وتبعًا لها تكون جميع الملكات مستقلة الواحدة منها عن الأخريات . وبذا فإن أى سلسلة من الاختبارات لا يمكن أن تقيس سوى المتوسط أو المستوى العام أو عيّنة من الكل .

ويذهب سبيرمان إلى القول بأننا إذا ما قمنا بتطبيق أى عدد من الاختبارات على مجموعة من الناس واستخلصنا قائمة بالترابطات فيما بين تلك الاختبارات ، فإن النتيجة سوف تتباين . فالنظرية الملكية تطالب بوجود ترابطات عالية جدًا على طول الخط . أما النظرية الأوليجارشية فإنها تطالب بأن تكون هناك ترابطات قوية بين بعض الاختبارات ، أى تلك التى تقيس نفس الملكة ، وأن تكون هناك ترابطات ضعيفة جدًا فى الحالات الأخرى ، وذلك عندما تقوم الاختبارات الخاصة المترابطة بقياس ملكات مختلفة . أما النظرية الفوضوية فإنها تطالب بترابطات منخفضة جدًا أو بانعدام الترابطات تمامًا على طول الخط .

ويقول سبيرمان : إن النتائج المتجمعة من المعلومات الهائلة المستفادة ، لا تؤيد أيًا من هذه النظريات الثلاث . فالترابطات تنحو إلى أن تكون إيجابية ولكنها بوجه عام ليست عالية جدًا أو منخفضة جدًا . والدراسة الأكثر استفاضة تظهر أن هناك نوعًا ما من النظام أو

من المبدأ يحكم حجم الترابطات ، وأنه عن طريق تطبيق المعايير الرياضية المتباينة ، يظهر أن طبيعة هذا النظام يتطلب وجود G و S .

أما المشكلة التالية فإنها تظهر بوضوح فى الطريقة التى تحدد بها طبيعة كل من G و S . وسبيرمان نفسه يميل إلى الاعتقاد بأنه فى نهاية المطاف فإن G تناظر الحصيلة النهائية لطاقة قشرة المخ ، وأن S تناظر « آلات » معينة ، وأن الإرادة تمثل الميكانيكى الذى يحدد متى وإلى أى هدف تُستغل الطاقة وتستخدم الآلة . وهناك آخرون يميلون إلى اعتبار G مناظرة لكيفية بنيوية عامة خاصة بقشرة المخ أو الجهاز العصبى . وآخرون من جهة ثالثة يعتبرونها الأثر الكلى لعدد كبير جدًا من العناصر . ومن المعترف به بوجه عام أنه لا يوجد فى الواقع أية شواهد تمكننا من ضم صوتنا إلى واحد من هذه التفسيرات . بيد أن الشك الذى يحيط بطبيعة G لا يؤدى إلى إبطال مفهوم G نفسه ، كما أنه لا يعرقل قياس G سواء لتحقيق أهداف عملية أم لتحقيق أهداف نظرية . والواقع أن عالم النفس الصرف أو عالم النفس التطبيقى ليس أبأس حظًا فى هذا الصدد من الفيزيائى أو المهندس الكهربائى اللذين يقومان بقياس واستخدام الكهرباء لسد حاجات الناس ، ولا يعرقل مساعيهما شكوكهما حول الطبيعة النهائية للكهرباء ذاتها .

وأكثر من هذا فإن هذا لا يحول دون التوسع فى دراسة الطرائق الخاصة التى يتبدى فيها كل من G و S . والواقع أن سبيرمان وتلاميذه قد ذهبوا فعلاً فى هذا الاتجاه . فلقد اكتشف سبيرمان « ثلاثة » قوانين انبعاثية Noegenetic Laws ، وهى القوانين التى بمقتضاها يقوم العقل بخلق مضمون عقلى جديد . والقوانين الثلاثة هى : أولاً ـ قانون « استيعاب الخبرة Apprehension Of Experince »

Looloo
www.dvd4arab.com

وقانون « استنباط العلاقات » Eduction Of Relations وقانون « استنباط الترابطات » Eductin Of correlates على التوالى . ويخلص سبيرمان إلى القول بأن العامل G يظهر نفسه فى جميع العمليات التى تتضمن انبعاثًا جديدًا تبعًا للقانونين الثانى والثالث . وأكثر من هذا فإننا إذا ما قمنا بدراسة الأنواع المختلفة ، ن العمليات الانبعاثية ، فإننا نجد أن وجود ومدى G لا يتأثر بأى تغيُّر ، سواء من حيث طبيعة العملية نفسها ، أم من حيث المواد التى تتم العمليات وفقها .

ومن جهة أخرى فقد أمكن تحديد الظروف التى تعمل S فى ضوئها ، والتى يبدو أنها تلعب دورًا فى أى أداء . وهذه الظروف تتمثل فى أعضاء الحواس وأعضاء الحركة وأخيرًا القدرة على استبقاء الخبرة . والواقع أن القدرة على استبقاء الخبرة هى أهم وأحدث جميع هذه المكتشفات المهمة . لقد كان يعتقد بحق أن الصمم أو العمى أو ضعف العضلات ، لا يعنى بالضرورة أن يصير الشخص غبيًا ، ولم يكن يُدرك بوضوح أن الذاكرة لا ترتبط من قريب أو من بعيد بالذكاء . ولا شك أن هذه الحقيقة مهمة للغاية لعلم النفس العام ، وتعد أحد الانتصارات الكثيرة التى حققتها مدرسة « العامل » .

ولقد ذهب سبيرمان إلى أبعد من هذا . فعنده أن الذاكرة مسئولة عن كل خطأ يحدث . والسبب الأساسى فى هذا والمسئول عن جميع الأخطاء هو أن الذاكرة تثقل خاصية ما من بند إلى بند أخر لا صلة لها به . ويتواكب مع هذا ما يضطلع به الاعتقاد من دور فى تثبيت الخطأ المعرفى .

وبالإضافة إلى القوانين الثلاثة النوعية التى سبق الإشارة إليها ، فإن سبيرمان قدم أيضًا خمسة قوانين تتعلق بالكم ، يحدد بها الشروط التى تتم العمليات الانبعاثية فى ضوئها :

أولاً ـ قانون الامتداد : وتبعًا لهذا القانون فإن كل عقل يميل إلى جعل نتاجه الأنى ثابتًا من حيث الكم مهما اختلف فى الكيف . ويبدو أن الكم هنا ذو جانبين : الوضوح والسرعة . بيد أن الوضوح نفسه يمكن أن ينقسم إلى أقسام فرعية . والأصح أن نقول : إن لقانون الامتداد جوانب ثلاثة : الشدة والاستمرار والسرعة . ولقد وجد أن العامل يتبدى فى هذه الجوانب الثلاثة .

ثانيًا ـ قانون الترابطات : وتبعًا له فإن الأحداث المعرفية بحدوثها بعضها مع بعض تميل إلى أن تحدث بيسر أكبر . وكما سبقت الإشارة فإن العامل G يلعب دورًا ضئيلاً فى هذه الترابطات أو لا يلعب أى دور فيها على الإطلاق .

ثالثًا ـ قانون التعب : وهو القانون المضاد لقانون استبقاء الخبرة . وبمقتضى هذا القانون فإن « حدوث أى عملية معرفية تنتج ميلاً مضادًا لحدوثها بعد ذلك » وليست هناك شواهد على أى علاقة بين G وبين الميل للتعب .

رابعًا ـ قانون العامل الإرادى فى التعب : وبمقتضى هذا القانون فإن شدة المعرفة يمكن أن تنضبط بوساطة الإرادة . وهذا القانون يتعلق بمسألة سبق أن زعمها بعض علماء العلاج النفسى ، وذلك بقصد الإفادة من الاختبارات العقلية أو الاعتماد عليها ، ونقصد تلك الاختبارات التى تهدف إلى قياس القدرة المعرفية الخالصة وهى فى استقلال عن العوامل الإرادية . وواضح بالطبع أن جميع الاختبارات

Looloo
www.dvd4arab.com

من هذا النوع تستدعى تعاونًا من جانب الشخص الذى يُجْرَى عليه الاختبار . وتظهر الحاجة إلى درجة من العزم أو الإرادة تأسيسًا على الغالبية العظمى من الأشخاص الذين أجريت عليهم الاختبارات فى ظل الظروف العادية . وحتى الآثار الدقيقة التى قد تتأتى عن العوائق اللاشعورية أو عن مناهضة الإيحاء ، يبدو أنها تطوّق فى معظم الحالات ، برغم أن التعارض الشعورى واللاشعورى لا يقع بلا شك فى بعض الأحيان وبخاصة فى الحالات المرضية .

خامسًا ـ قانون القوى الأساسية : وهو يقرر أن ما ورد فى القوانين الأربعة الكمية السابقة إنما يقوم أو ينبنى أساسًا على مؤثرات فسيولوجية معينة . ومن تلك المؤثرات السن والصحة والوراثة وتأثير المخدرات ونحو ذلك . والواقع أن الكثير من الجهد قد بذل فى هذا المجال ، سواء فى داخل مدرسة « العامل » أم خارجها .

وبالنسبة للمرض العقلى فإن سبيرمان وهارت Hart قد وجدا أن G يتضرر إلى حد ما فى كثير من أنواع الاضطرابات العقلية . وكذا فإن القدرات الخاصة تتأثر أيضًا بقدر دخول العامل G فيها ، وغنى عن القول أن نتائج من هذا القبيل تتمشى مع النتائج التى توصل إليها فرانز Franz ولاشلى Lashley فى دراستهما المتعلقة بالإجراءات التجريبية على المخ .

وعلى الرغم من أن طرائق الترابط التى أدخلتها مدرسة « العامل » قد فشلت فى تأييد وجود معظم « الملكات » التقليدية ، فإنها مع ذلك قدمت شواهد مؤيدة لوجود القليل من « العوامل الواسعة » Broad Factors ذات الأنواع المختلفة ، برغم أن هذه الشواهد أقل قوة بكثير من الشواهد التى تتعلق بوجود وطبيعة G . والعديد من العوامل الواسعة

يتعلق بالخصائص العامة للتوظيف المعرفى وليس بالقدرات الفعلية . ومن أهم هذه العوامل العامل المعروف باسم p أى عامل المواظبة . وهو العامل الذى يتبدى فى هيئة قصور ذاتى عام ، وهو العامل الذى إذا ما وجد بدرجة عالية ، فإنه يجعل من الصعب أمام المرء أن ينتقل بسرعة من نوع معين من العمليات العقلية إلى نوع آخر .

وهناك عامل آخر شبيه بالعامل p من حيث إنه ذو خصائص عامة . إنه العامل O ومعناه التذبذب . ويتبدى هذا العامل فى تغيير التصرف من لحظة إلى أخرى .

والواقع أن « العوامل الواسعة » التى تم اكتشافها لا تشبه الملكات التى افترضت قبلاً إلا من أوجه قليلة . ولكن يؤخذ على مدرسة « العامل » أنها استعانت بمنهج « استاتيكى » فى إظهارها لقوى العقل ، ولم تحاول الكشف عن دينامية تلك القوى وكيفية تفاعلها وعملها .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الخامس عشر

سيخينوف Sechenov, Ivan

وبختيريف Bekhterev, Vladimer

وفاجنر Wagner, Vladimir

ولانج Lange, Nikolai

ينقسم علماء النفس إلى فريقين رئيسيين : فريق الميتافيزيقيين ، وفريق الماديين أو الفسيولوجيين . والواقع أن سيخينوف يعتبر المؤسس لعلم النفس المادى أو الفسيولوجى ، وقد وصفه تيميريازيف Timiryazev بأنه « واحد من أعمق الباحثين فى مجال علم النفس العلمى الذين لم يتوانوا عن تحدى أكثر مشكلاته تعقيدا وصعوبة . فلقد تناولها كعالم ومفكر أصيل » . فبدءا من عام ١٨٦٣ أخذ سيخينوف فى التذرع بنظرة مادية بحتة فى مؤلفاته يتدارس بها النشاط العقلى بشكل متسق ومنظم . وهو فى معارضته لعلم النفس الميتافيزيقى المثالى وما اتسم به فكره من استبعاد للظواهر السيكولوجية ، فإنه قام بالتخطيط لمسلك علمى طبيعى فى تناول الظواهر السيكولوجية . ولقد صدق روبنشتين Rubinstein عندما قال « إن نظرية سيخينوف المتعلقة برد الفعل بإزاء النشاط العقلى ، كانت المحور المركزى الذى دار حوله الصراع الإيديولوجى بين المادية والمثالية عبر تاريخ علم النفس الروسى » . والواقع أن مبادئ سيخينوف فيما يتعلق بعلم النفس

المادى ، قد صارت سلاحا قويا فى أيدى العلماء التقدميين على الرغم من أنهم لم يلقوا اهتماما أو تقديرا من جانب الممسكين بأزمة علم النفس فى ذلك الوقت . فلقد أزيح سيخينوف من مناصبه التى كان يحتلها وحيل بينه وبين تعليم الشباب وتشريبهم روح أفكاره . ولكن على الرغم من هذا فإن عددا من العلماء الذين لم يكونوا من بين تلاميذه قد بدءوا فى تطبيق أفكاره بعد ذلك .

ولعل من أهم العلماء الذين ضربوا فى إثر سيخينوف ، ذلك العالم الروسى العظيم إيفان بافلوف الذى أكد مرارا تلك الصلة الوثيقة القائمة فيما بين بحوثه وبين أفكار سيخينوف . ففى عام ١٩١٣ قال بافلوف بمناسبة مرور نصف قرن على نشر كتاب سيخينوف المسمى انعكاسات المخ " Reflexes of the Brain " : « لقد مر نصف قرن منذ صدور كتاب سيخينوف المسمى إنعكاسات المخ (نشر فى عام ١٨٦٤) والذى يتضمن بشكل واضح صيغة دقيقة ومقنعة للفكرة الرئيسية التى نقوم نحن بتطويرها فى الوقت الحاضر » .

وهكذا نجد أن سيخينوف وبافلوف كانا يمثلان المصدر الرئيسى للاتجاه العلمى الطبيعى فى علم النفس الروسى . ولقد كان لنشاطهما الأثر غير العادى فى تطور النظرية السيكولوجية وبخاصة فى مجالات علم النفس التى ترتبط ارتباطا مباشرا بالعلوم الطبيعية .

والواقع أن المادية العلمية الطبيعية تركز الضوء على جانب واحد من الجوانب التى زخرت بها مدارس علم النفس التى أخذت على عاتقها هذا الاتجاه العلمى الطبيعى . ذلك أن ممثلى هذا الاتجاه لم يتوسعوا بوجهات النظر المادية خارج نطاق الظواهر الطبيعية ، ولم يعمموها بإزاء الظواهر الاجتماعية . وكان نتيجة ذلك أنهم حصروا علم النفس فى نطاق المجال العلمى الطبيعى . فلم يتناولوا الشخصية

Looloo
www.dvd4arab.com

وما تتضمنه من خصائص وبواعث وأنشطة وعواطف وغير ذلك من جوانب كثيرة أخرى .

أما بختيريف فإنه كان واحدًا من أكثر العلماء السيكولوجيين المنتمين إلى الاتجاه الطبيعي العلمي . وحتى يتسنى تقييم إسهاماته في علم النفس في أوائل القرن العشرين ، فإن علينا ألا نقتصر في مدارستنا له على ما ذهب إليه بمذهبه فيما يتعلق بالانعكاسات السيكولوجية " psychoreflexology " التي كان منهمكًا فيها في تلك الفترة ، بل علينا أن نأخذ في اعتبارها أيضًا جميع أنشطته في مجال علم النفس التي ذهبت شوطًا بعيدًا إلى آفاق متعددة خارج نطاق الانعكاسات . فالواقع أن بختيريف قد حاز العديد من المواهب الملحوظة كعالم نفس وفسيولوجي ومعالج نفسي وطبيب أعصاب . ولقد كان إلى جانب هذا ماهرًا في تنظيم وتبويب علم النفس ، كما كان واحدًا من القادة البارزين في الجناح التقدمي . وكان معهد علم النفس النيورولوجي The Psychoneurological Institute الذي ترأسه ، مركزًا لجذب الكثير من الباحثين المقتدرين . وبختريف نفسه قد أشرف على عدد من الدراسات التجريبية التي نفذت في المعهد المذكور في ذلك الوقت .

والواقع أن بختيريف قد تقدم باقتراح واضح يرمي إلى فصل علم النفس عن الفلسفة المثالية بالجامعات ، وأن يتحول إلى فرع من فروع العلم الطبيعي . وقال في اقتراحه « على الرغم من الأهمية العظيمة لدراسة علم النفس بالتعليم العام ، فإن هذا العلم لم يدرج كفرع علمي إجباري إلا في كليات التاريخ والفيلولوجيا بالجامعات . وحتى في تلك الكليات فإنه لا يستحوذ على كرسي مستقل ، بل يُدرّج في نطاق كرسي الفلسفة ، أعني أنه يحتل مكانة من الدرجة الثانية . وحيث إنه

مستمر في الجري في أعقاب الفلسفة ، فإنه لا يستطيع بالطبع أن يحظى بمكانة ذات أهمية بين العلوم الأخرى التي تشملها المناهج الدراسية » .

وفي عام ١٩٠٤ قام بختيريف بنشر مقال بعنوان « علم النفس الموضوعي وموضوعه » Objective Psychology and its Subject " Matter " لخص فيه النتائج التي تم التوصل إليها خلال الفترة الهامة من تطور وجهات النظر السيكولوجية ، وهي الفترة التي بدأت في عام ١٨٥٥ تقريبًا عندما بدأ بختيريف بإلقاء مجموعة من المحاضرات في جامعة كازان Kazan . وفي مقاله هذا عبر عن الأفكار التي رددها بعد ذلك مع بعض الإضافات القليلة والتعديلات الطفيفة في أعماله التالية .

وذكر بختيريف أنه إذا ما اقتصر الباحث على ملاحظاته الشخصية وأغضى عن مدارسة الظواهر الموضوعية التي تنعكس عليها العمليات العقلية ، فإنه لا يحصل إلا على فكرة خاطئة عن النمط الواقعي للحالات الذاتية . وفي رأيه أن دراسة الذات Psyche لا يمكن أن تتحدد في نطاق الكشف عن الجانب الموضوعي فحسب حتى لدى الشخص الناضج ، بل يجب أن تنصب بجدية على مدارسة الجانب الموضوعي من النشاط الذهني . ولقد برهن بختيريف على أن علم النفس الذاتي subjective ، لا يساعد بأي حال من الأحوال في مدارسة الحالات المرضية التي يتعرض لها العقل ، كما أنه لا يساعد في الوقوف على خصائص نفس الطفل أو الخصائص النفسية لدى الحيوانات . وبهذا الصدد فإنه يشير إلى أن المرء لابد أن يدعم وجهة نظره بما أفضت إليه دراسات عالم النفس فاجنر Wagner ، وذكر كتابه المسمى « مسائل خاصة بعلم النفس الحيواني » Questions of Animal Psychology الذي أكد فيه أن « النتائج التي تم التوصل إليها عن المنهج

Looloo
www.dvd4arab.com

الذاتى الذى يحدد الشروط التى تودى إلى النتائج التى يصل إليها المرء تكون متباينة ، ومن ثم فإنها نتائج مشوبة بالشك . وعلى هذا فإن مثل هذا المنهج لا يمكن اعتباره خليقًا بالثقة التى نرجوها للعلم الدقيق » .

وكذا فإن بختيريف يؤكد تأييده للتقييم الموضوعى للحياة العقلية لدى الحيوانات وفق ما ذهب إليه بافلوف . والواقع أن أوجه الشبه بين بافلوف وبختيريف وفاجنر فيما ذهبوا إليه من أراء ، يكشف النقاب عن الاتجاه العلمى الطبيعى من حيث تطابق أفكارهم بإزاء علم النفس . على أن الموقف المشترك بين بافلوف وبختيريف بإزاء مسألة الطبيعة الانعكاسية للنشاط العقلى ، يتبدى فى الاستخدام الواسع لطريقة بافلوف المتعلقة بالانعكاسات الشرطية . وإنك لتجد أن بافلوف نفسه يكتب قائلاً « إن بحوثنا قد لقيت التأييد فى أوربا بعد سنوات قليلة من غزوها لها بواسطة بختيريف وتلاميذه » . فالواقع أن البحوث التى اضطلع بها معاونو بختيريف من أمثال بروتوبوبوف Protopopov وبلاتونوف Platonov وغيرهما فى عامى ١٩٠٨ و١٩٠٩ قد استخدموا فيها مناهج الاشتراط ، وقد بدأت فى نفس الوقت مع بداية المحاولات الأولى لدراسة النشاط العصبى الدقيق لدى الإنسان بنفس المنهج (دراسة الاستجابات الآلية للفم وحركة البلع) فى مدرسة بافلوف . وكتب أناتولى إيفانوف سمولنيسكى Anatoly Ivanov - Smolensky قائلاً « إن التجربة الأولى فى إدخال مذهب النشاط العصبى الدقيق فى مجال المرض العصبى Neuropathology وفى مجال الطب النفسى ، قد تمت بقيادة بختيريف ومعاونيه (١٩٠٨ ـ ١٩٠٩) . بيد أن بختيريف يعتبر بوجه عام الممثل الأول لعلم المرض العصبى والطب النفسى ، كما أنه هو الذى قدّر بحق المجال الفسيح الذى ينفتح أمام مذهب بافلوف بإزاء فروع العلاج الطبى » .

ولقد حاول بختيريف بدأب أن يؤكد الروابط الوثيقة فيما بين النشاط العصبى والعمليات العصبية التى يضطلع بها المخ ، فهاجم عن هذا الطريق نظرية التوازى Parallelism السيكولوجية . ففى رأيه أن من الخطأ التأكيد على أن العمليتين ـ العقلية أو الروحية والجسمية أو المادية ـ تلعبان دورهما فى تواز فيقول « إن علينا أن نضم صوتنا بحزم إلى وجهة النظر القائلة إننا لسنا هنا بإزاء عمليتين تأخذان طريقهما معًا وفى نفس الوقت ، بل علينا أن نقرر أن ثمة عملية وحيدة تعبر عن نفسها فى وقت واحد فى النطاق المادى أو الموضوعى وأيضًا فى الظواهر غير المادية أو الذاتية » .

ويتضح بجلاء اعتماد وجهات نظر بختيريف على نظرية سيخينوف بإزاء الانعكاس Reflex من مقال له بعنوان « علم النفس الموضوعى وموضوعه » ـ "Objective Psychology " and its Subject-Matter" وأيضًا فى عدد من مقالاته الأخرى . وكذا فإن الوثائق التى عثر عليها إيسايفا Isayeva فى الأرشيف الشخصى لبختيريف تشهد بهذا أيضًا . وفى هذه الوثائق يصف بختيريف الفكرة الرئيسية التى تعتمل فى كتاب سيخينوف « انعكاسات المخ » "Reflexes of the Brain" ، ويؤكد أن هذا الكتاب قد قدم تخطيطًا عامًا لما يسمى بالعمليات العقلية ، ويربط بينها وبين تأثير العوامل الخارجية ويترجمها فى نهاية المطاف إلى حركة . فهذه الفكرة قد امتدحت من جانب بختيريف ويشبهها بمنطاد يسبح بواسطته الفكر البشرى . وبالإشارة إلى أعمال بوديلوفا Budilova ، فإن روبينشتين Rubinstein يزعم أن مذهب بختيريف فى الانعكاس reflexology لم يكن فى جوهره سوى تحقيق لنظرية سيخينوف المتعلقة بالانعكاس مع تغيير فى اتجاهها عند بختيريف ، وذلك لأنه أقام المكانة الرئيسية فى

Looloo
www.dvd4arab.com

عملية الانعكاس بالعنصر الثالث (الحركة) (Motion) . وبذا فإنه يكون قد أضر بعنصرها الرئيسى . وطالما أن بختيريف قد اتبع الطريق الذى حدده سيخينوف ، فإنه لم يستطع سوى الانضمام إلى معسكر علم النفس الطبيعى العلمى . على أن الظروف الخاصة التى تطور علم النفس وفقها فى ذلك الوقت ، قد أدت إلى الوقوع فى عدد من الأخطاء الجسيمة فيما يتعلق باستنتاجاته النظرية .

وحيث إن بختيريف قد انطلق من الفروض التى شكّلها سيخينوف فى كتابه « انعكاسات المخ » ، فإنه انتهى إلى أنه تبعًا لذلك ، لا توجد أى عملية شعورية أو لا شعورية تتعلق بالتفكير لا يعبر عنها فى النهاية بطرائق موضوعية معينة . ولقد استمر بالقول بأن علم النفس الموضوعى يجب أن يكون معبّرًا عن جماع المعرفة التى تنصب فى المظاهر الموضوعية للأنشطة العصبية النفسية Neuropsyche . وكان معنى هذا أن علم النفس الموضوعى لابد أن يستخدم الوسائل الموضوعية فحسب . وألا توصف جميع العمليات النفسية العصبية إلا من الزاوية الموضوعية . ولم يكن هذا يعنى إذن تسجيل الاستجابات ذاتها بل كان يعنى تسجيل المثيرات الخارجية التى أحدثت تلك الاستجابات . وفى الوقت نفسه فإن علم النفس الموضوعى قد نبذ « التعبيرات الميتافيزيقية البحتة » التى تستخدم فى علم النفس الذاتى Subjective مثل « الذاكرة » و«العواطف » و« الانتباه » ، وأحل محلها ألفاظًا أخرى مثل « الآثار » Traces و«النغمة العامة » general tone و« التركيز » concentration .

وعلى الرغم من الطابع التقدمى للحملة التى شنها بختيريف ضد علم النفس الذاتى Subjective لصالح استخدام الطرائق الموضوعية فى

البحث ، فإنه لم يستطع أن يتغلب على تفسير العمليات الذهنية للظواهر المصاحبة للتصرفات السلوكية . فبينما كان يعارض المفاهيم السيكولوجية ، فإنه تجاهل بطريقة خاطئة تلك المظاهر النفسية الحقيقية التى تنعكس على هذه المفاهيم . ولقد تطور هذا الجانب الذى تضمنته آراء بختيريف بعد ذلك فى سلوكية واطسون Watson . فميول بختيريف المناهضة لعلم النفس anti-psychological التى تبدت فى بداية الأمر ضد النزعة الذاتية subjectivism وضد النزعة الاستبطانية Introspectionism، قد اشتد عودها أكثر فأكثر مع الوقت ، كما صار الخطأ المنهجى فى مذهب بختيريف يصدد مدارسة الانعكاس على جانب أكبر من الوضوح .

والواقع أن بختيريف قد قام فى كتابه « النفس والحياة » "The Psyche and Life" بتفسير جوهر النفس فى ضوء مفهوم الطاقة ، الأمر الذى يمكن تتبعه بوضوح فى مجموعة من مقالاته بعنوان « تأصيل » "Substantiating" علم النفس الموضوعى . وكذا فإنه تناول نظرية سيخينوف المتعلقة بالكف المركزى Central Inhibition على نحو يجعل فيه ظاهرة الشعور نتيجة « لتأخير الطاقة النفسية العصبية » Retardation of Neuropsychic Energy . والواقع أن وجهات نظر بختيريف النظرية لم تكن متحررة بوجه عام من النزعة الوضعية Positivism التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت خاطئة فى أنظار كثير من العلماء المتحمسين لإقامة فلسفة علمية للعلم الطبيعى . ففى عام ١٩١١ قام يورى بورتوجالوف Yuri Portugalov بنشر مقال ذكر فيه أن ثمة الكثير من العناصر المشتركة بين علم النفس الموضوعى وبين النزعة التجريبية النقدية Criticism Empirio فيما يتعلق بالمنهج . صحيح أن من الممكن الاعتراض على مقارنات

www.dvd4arab.com

بورتوجالوف ، وهو نفسه يعترف بأنه لم يعرف بالضبط موقف بختيريف الحالى تجاه افيناريوس Avenarius وماتش Mach كما أن بختيريف قد تناول فى بداية عام ١٩٠٠ وجهات النظر هذه بطريقة مشوبة بالشك إلى حد ما . بيد أن المقال قد نشر فى « دورية علم النفس » Bulletin Of Psychology التى كان يرأس تحريرها بختيريف نفسه ولم يوجه إليها أى اعتراض . وأكثر من هذا فإن بختيريف قد اعترض على نشر مقالات بنفس المجلة لكوستيليف N.Kostylev ذكر فيها أن بختيريف قد أخذ بوجهات نظر سيخينوف ، ولكنه حاول فى الوقت نفسه أن يربط فيما بين علم النفس الموضوعى ، وبين مثالية مدرسة فورزبورج Wurzburg ، كما أكد على ارتباط أفكاره الوثيق بالماتشية Machism .

ولعلنا نستطيع أن نستشف مما سبق أن نظام بختيريف السيكولوجى يجد له ما يدعمه بواسطة المنهجية الإنتقائية Eclectic Methodology . فهو يكشف عن ميل تقدمى فيما يتضمنه من أفكار انعكاسية ، ولكنه كان معتمدًا فى الوقت نفسه على مفاهيم فلسفية مثالية وميكانيكية متعددة . فخلال الفترة التى نتناولها ، فإن علم النفس الموضوعى كان متسمًا أكثر ما يتسم بالملامح التقدمية مع معارضته الإيجابية لعلم النفس الاستبطانى ، وكان ينظر إليه كمذهب سيكولوجى علمى طبيعى .

والواقع أن علماء النفس الذين انضموا صراحة إلى النزعة المثالية قد تناولوا مفهوم بختيريف الخاص بالانعكاس بالكثير من النقد . فنجد شكربينا A. M. Shcherbina يستعرض فى مقال ، مثالب علم النفس الموضوعى من وجهة نظره أى من وجهة نظر أنصار الاستبطان . فنجد أنه لدى تناوله للفروض الرئيسية لدى بختيريف كما وردت فى

مقال له بعنوان « البرهان على صحة علم النفس الموضوعى » يختار القضايا التى تميز موقفه هو شخصيًا فى الواقع على النحو التالى : نقد بختيريف للملاحظة الذاتية ــ التعارض فيما بين علم النفس الموضوعى وعلم النفس الذاتى ــ مفهوم القوام النفسى العصبى Neuropsyche ــ الاعتراضات على النزعة المتوازية Parallelism والاقتناع بأن المنهج الموضوعى يجب أن يستخدم فى مدارسة العمليات العصبية النفسية . وجميع هذه القضايا تثير الغيظ فى قلب شكربينا . وهذا يؤكد بوضوح منافحته عن النزعة الذاتية والاستبطانية . فلم يتسن له أن يشارك بختيريف فى أى من فروضه . فكتب على سبيل المثال قائلاً « إن محاولة إقامة علم فى ضوء الوقائع التى يتسنى التوصل إليها عن طريق الملاحظة الشخصية بينما ترفض تلك المحاولة الملاحظة الذاتية نفسها ، إنما يشتمل على تناقض ضمنى » وهو قد أغضى عن أن برهانه نفسه يؤدى إلى خطأ منطقى : فعند بختيريف نجد أن علم النفس (أعنى « علم النفس الموضوعى ») ليس « علمًا خاصًا بالوقائع التى لايتسنى التوصل إليها إلا بالملاحظة الذاتية » ، بل هو علم ينبنى على العلاقة بين الاستجابات الانعكاسية وبين الإثارات الخارجية التى هى مصدر أساسى لهذه الاستجابات . وعلى هذا فإن « التناقض » الذى اكتشفه شكربينا فى نظرية بختيريف ، هو خلط بين الفروض التى قدمها بختيريف نفسه .

والواقع أن فشل علم النفس المثالى الميتافيزيقى فى تقديم نقد مكين لنظرية بختيريف ، يمكن أن يفسر بأن « علم النفس الموضوعى » كان نظامًا سيكولوجيًا على جانب أكبر من التقدمية ، إذا ما قورن بما سبقه من نظم سيكولوجية .

Looloo
www.dvd4arab.com

أما السؤال الذى أثاره بختيريف وهو « من الذى يجب أن يطوّر علم النفس وكيف ؟ » فإنه أجبر العلماء على أن يفكروا جديًّا فى مصير العلم السيكولوجى ، وانتهوا إلى أن من الممكن استحالة علم النفس إلى علم وضعى إذا ما تحرر البحث السيكولوجى من تأثير الفلاسفة الميتافيزيقيين . فالواقع أن سيخينوف قد طالب بإلحاح بأن تُدرس الظواهر النفسية المعقدة بوسائل علمية طبيعية موضوعية ، بل إنه اقترح خطة يتسنى بوساطتها إعادة بناء علم النفس وفق هذه الخطوط .

ولا شك أنه قد تسنى تحقيق معظم خطة سيخينوف بواسطة بافلوف الذى أرسى مذهبه الخاص بالانعكاسات الشرطية والذى برهن بواسطته على أن من الممكن تناول العمليات العقلية بواسطة وسائل فسيولوجية . بيد أن سيخينوف قد خطط لجانب آخر من البحث السيكولوجى لتتبع تطور العمليات العقلية من منظور تاريخى فى سياق التطور الشامل للمملكة الحيوانية ، فأكد على أنه فى عملية المعرفة يكون على المرء « أن يبدأ من البسيط إلى المركب ، أو بتعبير آخر يكون عليه أن يفسر المركب من خلال البسيط والعكس بالعكس » ، ومن ثم فإنه ذهب إلى أن أبسط الظواهر النفسية تتمثل لدى الحيوانات وليس لدى الإنسان ، وبالتالى يجب أن نتناولها « باعتبارها المادة الأولى للتجريب بإزاء الوقائع الذهنية » ثم إنه انتهى إلى القول « بأن مقارنة الظواهر النفسية الواقعية لدى الإنسان والحيوانات تشكل علم النفس المقارن » ، مؤكدًا القيمة العظيمة لهذا الفرع من علم النفس ، لأن « تلك الدراسة مهمة بصفة خاصة بصدد تصنيف الظواهر النفسية ، طالما أن من المحتمل أنها ترجع الكثير من

الأشكال المعقدة إلى أبسط الأنماط العديدة ، بالإضافة إلى أنها يمكن أن تحدد الخطوات الانتقالية بدءًا من أحد الأشكال إلى شكل آخر .

وبعد ذلك بفترة نجد أن سيخينوف فى كتابه « عناصر الفكر » "Elements Of Thought" يقول إن من الضرورى التقدم بعلم النفس التطورى على أساس نظرية دارون فيذكر « أن هذه النظرية العظيمة التى قدمها دارون فيما يتعلق بأصل الأنواع كما هو معروف جيدًا ، والتى أقامت قضية التطور أو الاستمرار فى تطور الأشكال الحيوانية على أساس مبدئى رئيسى ، إنما تجد قبولاً فى الوقت الحاضر لدى غالبية العلماء الطبيعيين . وعلى ذلك فإن تلك الغالبية منهم يلتزمون منطقيًّا بالاعتراف من حيث المبدأ بتطور الأنشطة العقلية أيضًا » .

وهذا الجانب من البحث السيكولوجى كما حدد ملامحه سيخينوف قد تطور فى أعمال فاجنر الذى بدأ بالفعل فى القيام بتطوير ملموس فى علم النفس المقارن أو علم النفس التطورى من خلال قيامه بدراسة موضوعية للحياة النفسية لدى الحيوانات .

ولكى يتسنى لنا فهم مبادئ فاجنر فى تناوله للبحوث السيكولوجية ، فإن من الأهمية بمكان الاطلاع على مقاله بعنوان « هرزن كعالم طبيعى » "A. L. Herzen As a Naturlist" . فهو هنا يعمد إلى تطوير أفكاره التى قدم تخطيطًا لها فى مقال له قبل ذلك بعنوان « الميتافيزيقا والعلم » Metaphysics And Science كما قدمها أيضًا فى العديد من أعماله الأخرى . فكشف فاجنر بذلك جوهر الحملة التى شنها هرزن سواء ضد المناصرين لشلنج Schelling الذى أغضى عن الوقائع Facts من جهة ، وضد التجريبيين الذين رغبوا فى « مشاهدة موضوعهم بطريقة تجريبية وسلبية بحتة » بمجرد ملاحظته من جهة

Looloo
www.dvd4arab.com

أخرى . وهذا هو التصادم فيما بين المثالية الفلسفية التى « لم تقدم شيئا للعلم الطبيعى فى حد ذاته » ، وبين التجريبية . أما الخطأ الذى يتبدى فى كلا الموقفين ، فإنه لم يتضح فى ذلك الوقت ولم يتحدد إلا بواسطة مفكرين عظيمين هما : جوته Goethe وهرزن الشاب . ويقدم فاجنر عبارة هرزن وهى « ليس هناك علم بغير تجارب (خبرة أو تجريب) » مؤكدا أنه قد اعتمل فى ذهن هرزن فكر فلسفى لا يقل أهمية عن التجريبية . والواقع أن مقال فاجنر بعنوان « هرزن كعالم طبيعى » إنما هو تحليل للكتاب الأول لهرزن وهو بعنوان « خطابات حول دراسة الطبيعة » الذى لقى اهتماما كبيرا من جانب المفكرين فى ذلك الوقت .

ولا شك أن فاجنر قد وجه انتباهه إلى هرزن للاستهداء به فى تناول قضايا ملحة ويدور حولها الخلاف تتعلق بالعلم فى زمانه وبخاصة علم النفس الذى شكّل مجالا شغل باله وعمد إلى تطويره لأكثر من عشرين عاما . فالصراع بين التجريبية والمثالية كان نزاعا حادًا بصفة خاصة فى علم النفس وانتهى أخيرا إلى حدوث أزمة عميقة . فنجد من جهة أن علم النفس التجريبى قد عمد إلى دراسة الوقائع ، أعنى الظواهر النفسية برغم عزوفه عن تناول جوهر هذه الظواهر التى قادته إلى إرساء قواعد علم نفس بغير روح Soul وبغير نفس Psyche وبغير شعور Consciousness . فنجد أن إمانويل كانط Immannuel Kant قد أرسى قواعد علم نفس تجريبى « خلو من أى ميتافيزيقا » بل تعتمل فى قوامه آلية صماء . ومن جهة أخرى فإن نظم علم النفس المثالى التأملى قد انتعشت . فهى حملت فى جوانبها بازدراء تلك الوقائع التى استفادتها من ثمار الجهود المضنية التى بذلها علماء النفس التجريبيون ، ولكنهم مع ازدرائهم لتلك الوقائع ،

فإنهم ارتموا بكل جوانحهم فى أحضان « الإلهامات » الفلسفية وفى أحضان المادة السيكولوجية المستمدة من « عمق روح المرء الشخصية » . ولقد تورط فى هذا الصراع أيضا علم النفس المقارن مما أدى إلى نشأة جدل بين المناصرين للذاتية Subjectivists وأولئك الذين يُضفون الصفات البشرية على الحيوانات من جهة ، وبين المدعّمين للآلية الأوتوماتيكية والتجريبية التى بدأت فى الانتعاش والتى تعمد إلى وصف أخلاق الحيوانات من جهة أخرى .

ولقد كتب فاجنر عن هؤلاء « العلماء المُنغلقين » الذى لا يفعلون سوى العمل على تقدير حقائق العلم ، موكدين أن النظريات تتلاشى بينما تظل الوقائع قائمة . يقول فاجنر « إن الوقائع تتغير بتغير النظريات وبسببها » . فالوقائع التى تناولها كارولس لينّاوس Carolus Linnaeus وجورج لويس بوفون Georges Louis Buffon وجان بابتست لامارك Jean Baptiste Lamarck كانت هى نفس الوقائع . بيد أنها قُدّمت على يد كل منهم بطريقة مختلفة بسبب اختلاف التفسير . « فلكى نفهمها ... فإن على المرء أن يعرف ... كيف يستخدم الطريقة الفلسفية فى الاستقراء . فعلى المرء أن يتذكر ذلك جنبا لجنب مع استقلال فروع العلم بعضها عن بعض ، وهو ما يشكل ضرورة لصالح طرائق البحث ووسائل المعرفة أكثر منه لصالح الوقوف على الحقيقة . فثمة واحدية Monism كتب عنها هرزن قائلا « الواقع أن فاجنر فى دراساته العديدة حول المشكلات التى يتضمنها علم النفس المقارن معتمدا فيها على مادة واقعية خصبة ، لم يتحول بأى حال إلى « عبد للوقائع » . وهو فى بعض الحالات قد ارتفع إلى « واحدية علمية عالية المستوى » جريًا وراء العبارة التى استخدمها هو نفسه لوصف المادية الفلسفية عند هرزن .

www.dvd4arab.com

ويقابل فاجنر فى مجلديه بعنوان « الأسس البيولوجية لعلم النفس المقارن » Biological Foundations Of Comparative Psychology (Biopsychology) بين النظرة العلمية العالمية فى الدراسات السيكولوجية المقارنة ، وبين وجهة النظر العالمية التى صيغت بشكل كامل فى رأى فاجنر بواسطة ديكارت Descartes . فلقد بلغت هذه النظرة الديكارتية حد إنكار وجود الروح لدى الحيوانات ، واعتبرتها نوعًا من الآلات Automatons التى لا تختلف عن أى آلة قام الإنسان بصنعها إلا من حيث مدى دقة الصنع .

والواقع أن ثمة بقايا أو رواسب ظلت نشيطة خلّفتها فلسفة العصور الوسطى وظلت نشيطة حتى فى عصر فاجنر يمكن أن تشاهد على سبيل المثال فيما ذهب إليه ألكساندر شيمودانوف Alexander Chemodanov فى مقال له يزعم فيه أن ثمة هوة واسعة فيما بين الحيوانات والإنسان ، أو بين الشعور الإنسانى وروح الحيوان .

ولقد لاحظ فاجنر بحق أن الميتافيزيقيين المعاصرين له جميعًا « يحاولون أن يوفقوا فيما بين الميتافيزيقا والعلم ، وذلك بتكييف الأفكار الميتافيزيقية مع المعطيات التى يقدمها العلم » . ويقول فاجنر أيضًا « إنى أعتقد أن البراهين التى يقدمها الميتافيزيقيون لا تقوم على أساس من الصحة ، وأن التوفيق فيما بين الميتافيزيقا والعلم مستحيل ولا جدوى من ورائه » . وعلينا أن نذكر أن فاجنر قد عبّر عن هذه الفكرة نفسها فى كتابه « الميتافيزيقا والعلم » "Metaphysics And Science" (١٨٩٨) وذلك بصدد نقده لفيدنسكى Vvedensky .

وتتسم الفترة العلمية فى تاريخ علم النفس المقارن تبعًا لفاجنر بالصدام بين المدارس المتعارضة . فأخذت إحدى هذه المدارس فى إذاعة الفكرة القائلة إنه لا يوجد شىء على الإطلاق فى النفس البشرية لا يوجد أيضًا فى سيكولوجية الحيوانات . ومن ثم فقد بدأت مدارسة

الظواهر النفسية بوجه عام لدى الإنسان . ثم أعلن عن أن المملكة الحيوانية بأسرها تشتمل على الشعور وعلى إرادة القوة وعلى العقل . وهذا وفقًا لتعبير فاجنر يمكن أن ينعت بأنه « الأحدية من أعلى » "Monism From Above" . وعلى الرغم من الخطأ الواضح فى الاستنتاجات النهائية التى تردى فيه كثير من العلماء الذين ذهبوا إلى وجود تماثل فيما بين أنشطة الحيوانات وأنشطة البشر ، فإن هذا المنهج الذاتى Subjective كان له مناصرون اقتنعوا به ، كما شجعه أيضًا بعضٌ من أصحاب نظريات كان من بينهم فندت وأيضًا إريك وازمان Erich Wasmann وجورج رومانز George Romanes .

والواقع أن فاجنر قد رفض المنهج الذاتى حتى برغم ما أدخل عليه من « تصويبات ومساندات » . فهو يرى أنه حتى لو استخدم هذا المنهج بحرص وتوافرت له جميع أنماط الاحتياطات مثلما حاول فندت ووازمان ورومانز « فإن أيًا من نظريات رومانز أو التصويبات التى أدخلها وازمان للبرهنة على متانة الأساس العلمى للمنهج الذاتى لم تبرهن على صحته » ويقول فاجنر « إنى أعتقد أن فشلهم فى هذا الصدد لا يعزى إلى أى تقصير فيما تذرعوا به من براهين ، أو إلى عدم وجاهة أفكارهم ، بل يعزى إلى زيف المنهج نفسه الذى حاولوا جميعًا الدفاع عنه برغم تباين الأسباب التى دفعت بكل واحد منهم إلى انتهاج ذلك الموقف الدفاعى » .

والواقع أن من الصعب أن نعثر على عالم أحياء أو على عالم نفس روسى مثل فاجنر فى تلك الفترة باستثناء بافلوف ، كان مقتنعًا فيما ذهب إليه أو متسقًا فى براهينه أو حاسمًا فى جهوده الرامية إلى تقويض الاعتقاد فى قوة المنهج الذاتى ، وفى نقده للنزعة التشبيهية والمثالية فى العلم الطبيعى . وإنك لتجد أن بعض العلماء الطبيعيين قد

www.dvd4arab.com

ذهبوا إلى حد القول إنه كان عنيفا فيما ذهب إليه ، وإنه اتسم بالتطرف . فنجد أن يورى فيليبشنكو Yure Filippchenko وهو عالم أحياء وقد كان يبدو متجاوبا مع فاجنر فى رفضه « للأحدية من أعلى » ، ولكن كان شأنه فى الوقت نفسه شأن وازمان من حيث ميله إلى النقد السطحى لعلم النفس الشائع بإزاء الحيوانات . فلقد اعتقد أن « منهج التماثل » "Method Of Analogy" يجب ألا يهمل برمته ، وأنه « بغير توافر عنصر معين من التماثل مع نفس الإنسان » فيكون من المستحيل قيام علم نفس حيوانى . فهو يوافق تماما على ما قاله وازمان من أنه « لا يتسنى للإنسان أن يسبر أغوار العمليات النفسية لدى الحيوانات ، ولكنه لا يستطيع سوى أن يحكم عليها على أساس ما يصدر عنها من أعمال ظاهرية .. فهذه الظواهر التى تتبدى فى الحياة النفسية لدى الحيوانات يجب أن تقارن إذن بما يتبدى منها والتى تعرف أسبابها الداخلية بواسطة الإنسان من خلال شعوره الشخصى » .

فنحن هنا نشاهد إبدالاً لموضوع المقارنة بين نفس الإنسان والحيوانات (أعنى موضوع فاجنر المتعلق بعلم النفس المقارن) بإزاء احتمال تحديد تماثلات فيما بين نفس الإنسان والنفس عند الحيوانات (وهو ما يشكل مشكلة تتعلق بالطرائق المستخدمة فى علم النفس المقارن) . وطالما أننا نحس بالحاجة إلى مقارنة نفس الإنسان والنفس عند الحيوانات وهى التى بدونها لا يتسنى لعلم النفس المقارن أن يوجد على الإطلاق ، فإن فاجنر قد استبعد ضرورة أو حتى احتمال استخدام طريقة الاستعانة بالتماثل فيما بين نفس الإنسان والحيوانات فى علم النفس البيولوجى . ولقد احتل فاجنر مكانة مرموقة فى العلم اختلفت بصفة رئيسية عن المكانة التى احتلها

نيكولاى لوسكى Nikolai Lossky الذى كانت إجابته على ذلك بالاعتراض بل وبالمعاداة الصريحة .

وثمة اتجاه آخر معارض « للأحدية من أعلى » حدده فاجنر بأنه « أحدية من أسفل » "Monism From Below" . فبينما نجد أن التشبيهين Anthropomorphists والذاتيين Subjectivists قد تدارسوا علم النفس الحيوانى من زاوية نفس الإنسان ، فإن « الأحديين من أسفل » (وقد ضم فاجنر جاك لويب Jacques loeb إلى زمرتهم) ، قد أخذوا على العكس يقيسون نفس الإنسان بالمعيار الذى يعايرون به الكائنات الحية وحيدة الخلية ، كما هو الحال بإزاء دراسة النفس فى المملكة الحيوانية .

والواقع أن « الأحديين من أعلى » قد تناولوا العقل والشعور فى كل شىء واعتبروهما كما لو أنهما « قد سكبا على الكون بأسره » ، بينما نجد أن « الأحديين من أسفل » على العكس من هذا كانوا ميالين فقط إلى مشاهدة النوازع الآلية Automatons فى جميع الكائنات الحية ، ابتداء من النقاعيات Infusoria وصعودا إلى الإنسان . فالمجموعة الأولى اعتبرت العالم السيكولوجى إيجابيا على الرغم من أنها حددت هذا النشاط فى عبارات ذاتية ولاهوتية ، بينما اعتبرت المجموعة الثانية أن المملكة الحيوانية كانت سلبية ، وأن نشاط ومصير الكائنات الحية كانا محددين ومتعينين بدقة بطريقة قبلية بواسطة « الخصائص الفيزيائية والكيميائية لقوامها العضوى » . ولقد أقام « الأحديون من أعلى » براهينهم على أساس « الأحكام التى تبلورت حول تشبيه الحيوان بالإنسان » ، بينما اعتمد أصحاب الفئة الثانية على تناول النتائج التى تأتت عن البحوث المعملية الفزيائية الكيميائية .

Looloo
www.dvd4arab.com

فهذا هو النهج الذى ضرب وفقه فاجنر فى تحديد الاختلاف بين هذين الاتجاهين فى علم النفس المقارن . فلقد أخذ على عاتقه استعراض النقائص الحادة والرئيسية فى كليهما مبرهنا على أن أحدهما قد انتحى إلى التشبيهية Anthropomorphism والذاتية Subjectivism والاستبطانية introspectionism ، أعنى أنه وقع فى نهاية المطاف فى الأخطاء التى تتصف بها النزعة المثالية فى تناولها لتطور النفس Psyche ، بينما انتحى الاتجاه الآخر إلى تناول الحيوانات بما فيها الحيوانات العليا ، بل والإنسان نفسه ، إلى المنحى الآلى السلبى فاعتبرها مجرد آلات . فهو يترجم الطبيعة البشرية ترجمة بيولوجية ، ولم يستطع أن يأخذ فى اعتباره تلك التغيرات الكيفية التى تميز المستويات العليا من التطور . وهو فى تحليله النهائى قد وقع فى الأخطاء الميتافيزيقية والميكانيكية بإزاء مفهومه الخاص بالتطور .

أما فاجنر فإنه أدرك أن المواقف المتطرفة التى اتخذتها كل من الآلية والمثالية بإزاء العملية التطورية ، قد تقاربت بلا شك بعضها من بعض . يقول فاجنر « إن الموقفين المتطرفين قد انتحيا إلى الالتقاء بعضهما مع بعض ، وبذا فليس من المستغرب أن نجد أن الأحديين من أسفل بإزاء النتائج التى انتهوا إليها ، قد وقعوا فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه الأحديون من أعلى ، ولم يختلفوا عنهم إلا باتخاذهم الطريق العكسى . فالواقع أن أصحاب الموقف الثانى قد ارتفعوا بالمملكة الحيوانية إلى المستوى العلوى ، وقد أضفوا العقل والشعور وإرادة القوة على هذه المملكة بما فى ذلك البروتوزوا (الحيوانات وحيدة الخلية) ، بادئين من افتراض أن الإنسان لا يشتمل إلا على تلك السمات السيكولوجية التى تشتمل عليها سائر الحيوانات » . أما

الأحديون من أسفل « فإنهم يبدءون من الفرض نفسه وهو أنه من وجهة النظر السيكولوجية فإن الإنسان لا يبدى أى سلوك يتباين به عن عالم الكائنات الحية ، فهم يهبطون بهذا العالم ككل إلى مستوى الحيوانات الدنيا ، فانتهوا إلى خلاصة مؤداها أن النشاط البشرى إنما هو نشاط آلى لا يعدو الحد الذى ينحصر فى نطاقه نشاط الحيوانات وحيدة الخلية » .

وبإزاء نقد فاجنر لوجهات نظر « الأحديين من أسفل » فإن علينا أن نوضح فى كلمات قليلة اختلافه الصريح مع بافلوف بإزاء نظريته الفسيولوجية . فبينما نجده يقدّر هذا الفسيولوجى العظيم كل التقدير (وفاجنر ينعت بافلوف بأنه « صاحب الموهبة الخارقة ») ويشاركه فى موقفه النقدى الصريح الذى وجهه ضد النزعة الذاتية والتشبيهية ، فإنه لم ينجح فى فهم كل ما ذهب إليه بافلوف وبصفة خاصة فيما يتعلق بما قدمه فى نظريته الخاصة بالانعكاسات الشرطية . فلقد اعتقد فاجنر أن منهج الانعكاسات الشرطية يمكن أن يكون مفيدًا فى تناول « العمليات الذهنية من المستوى المنخفض ، ولكنه لا يكون ناجعًا فى مدارسة العمليات العليا » ولقد شدد فاجنر على أن نظرية الانعكاس ليست ناجعة تمامًا فى تفسير العمليات العليا ، كما أن هذا المنهج لم يكن قادرًا على تفسير المادة الرئيسية لعلم النفس المقارن ـ أعنى الغرائز . ولقد انتهى إلى أنه لم يُكشف النقاب بعدُ عن الآلية الفسيولوجية للغرائز كما لا يمكن تفسيرها فى ضوء الانعكاس الشرطى .

والواقع أن ما اعتور فاجنر من قصور فى تقييم ما ذهب إليه بافلوف ، يرجع إلى أنه اعتبر أن ما انتهى إليه بافلوف ، هو مذهب ميكانيكى إلى حد بعيد ، وأنه مرتبط « بالأحدية من أسفل » . وفى ذلك الوقت لم تكن بعض المفاهيم الرئيسية قد طُورت بإزاء نظرية

www.dvd4arab.com

الانعكاسات الشرطية . وبذا فقد كان من الصعب مقارنة الغرائز بالإنعكاسات الشرطية ، أو الانعكاسات الشرطية بالعمليات العصبية العليا . فلم يتحدد مفهوم تسلسل الانعكاس إلا فى منتصف العشرينيات من هذا القرن ، عندما استطاع العلماء القيام بتفسير العمليات الغريزية فى عبارات فسيولوجية . وبعد ذلك بفترة ظهر مفهوم نظم الإشارات Signal Systems إلى الوجود ، كما تم التوصل أخيرًا إلى أساس انعكاسى شرطى للنشاط الشعورى لدى الناس .

أما الموقف السلبى الذى اتخذه فاجنر بتجاه جهود بعض الفسيولوجيين المتفلسفين فى محاولتهم الربط فيما بين الميتافيزيقا والمثالية من جهة ، وبين الفسيولوجيا من جهة أخرى (وهو لم يضم بافلوف إلى زمرتهم بالرغم من أن بعض معاونيه قد انتموا إلى تلك الجماعة من الفسيولوجيين) فإنه كان موقفًا سديدًا . يقول فاجنر « فهؤلاء الفسيولوجيون عندما يجدون أنفسهم فى نطاق الحجج المجردة ، التى ليس لهم باع فيها ، فإنهم يغوصون فى لجة الميتافيزيقا بحيث يجد المرء نفسه فى حيرة إذ كيف يتسنى أن يعتمل فى عقل الواحد منهم طرائق من التفكير متناقضة بعضها مع بعض على هذا النحو » ؟

أما اعتبار علم النفس الحيوانى علمًا تشبيهيا Anthropomorphist وذاتيًا Subjectivist من جانب الكثير من الفسيولوجيين بمن فيهم بافلوف نفسه ، فإنه أثار رد فعل سلبيًا لدى فاجنر . فالواقع أن بافلوف قد اعتبر أن عالم النفس الحيوانى بمثابة شخص « اعتملت لديه الرغبة فى أن يغوص فى أعماق روح كلب » كما اعتقد أن أى فكر سيكولوجى إنما هو « مناقشة مائعة غير قابلة للتحديد » . وفى الوقت نفسه عندما تناول بافلوف الجوانب الرئيسية من دراساته الفسيولوجية

فيما يتعلق بالنشاط العصبى العالى ، وعندما قام فاجنر بتطوير « الأسس البيولوجية لعلم النفس المقارن » ، فإن سيكورسكى Sikorsky كتب معبرًا عن اعتقاده الراسخ فى حقيقة « المشاعر الصادقة » لدى الأسماك ، وفى حقيقة فهم البرمانيات « للموسيقى » ، و « التدريبات العقلانية » لدى الببغاوات ، و « الإحساس بالوقار » لدى الثيران . والواقع أن تلك النزعة التشبيهية بالبشر لم تكن لتجد قبولاً على الإطلاق سواء من جانب بافلوف ، أم من جانب فاجنر .

ومن المؤكد أن ما اختلف بافلوف وفاجنر بازائه من مسائل معينة ، من الممكن تفسيره فى ضوء الاعتبارات التاريخية . فلقد كان من الصعب حقًا فى تلك الفترة التوصل إلى حلول للمشكلات المتعلقة بالطبيعة النفسية وبخاصة ما كان متعلقًا بالمشكلة النفسية والفزيائية . وكنتيجة لذلك فإن فاجنر تناول فكر بافلوف بطريقة خاطئة كممثل للمدرسة الميكانيكية (على نمط لويب Loeb) من جهة ، وللمدرسة الفسيولوجية من جهة أخرى ، بينما الواقع أن بافلوف نفسه اعتبر علماء علم النفس الحيوانى بغير استثناء مشاركين فى النزعة التشبيهية وفى المواقف المناهضة للموضوعية ، برغم أن ما ذهب إليه كان على غير أساس .

ومن الجدير بالملاحظة أن لانج قد لاحظ أوجه التشابه الموضوعية فيما بين وجهات نظر بافلوف وفاجنر . ففى سياق نقده للنظرية السيكوفيزيائية أو « الآلية المتوازية » Parallelestic Automatism التى دعى إليها علماء الفسيولوجيا الميكانيكيين ، فإن لانج قدم براهين استعارها من علم النفس التطورى . فأشار إلى أن « الآلية المتوازية » لا تستطيع أن تفسر لماذا وعلى أى نحو تطورت الحياة العقلية . فإذا لم يكن لهذه الحياة تأثير فى الكائن الحى وفى حركاته ، فإن النظرية

Looloo
www.dvd4arab.com

التطورية تكون ـ كما يرى ـ بلا أثر تطبيقى فى المجال السيكولوجى . « فهذه الحياة العقلية تكون إذن بلا فائدة للكائن الحى ، ومن الممكن أن تعمل على النحو نفسه مع عدم وجود النفس . ولكن إذا نحن أقمنا الاعتبار للحياة العقلية باعتبارها مهمة من الناحية البيولوجية ، وإذا نحن تناولنا التطور من حيث المراحل التى يمر بها ، فإن هذه النفس لا يمكن أن تكون بلا فائدة لحفاظ الكائن الحى على نفسه » والواقع أن الفصل الخاص « بالأهمية البيولوجية للحياة العقلية » "Biological importance Of Menfal Life" بكتاب لانج المسمى « علم النفس "Psychology" يشير بوضوح إلى اعتماده فى براهينه على وجهات نظر فاجنر . وهو يقتبس أيضًا من أعمال فاجنر وناعتًا إياه بأنه « عالم البيولوجيا المعروف جيدًا » كما ينعته أيضًا بأنه « من الملتزمين بعلم النفس الحيوانى الموضوعى تمامًا » .

على أن من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن لانج قد استبعد فى نفس الفقرة أن تكون آراء بافلوف مدرجة فى نطاق النظام الميكانيكى كما هو الحال فى « الفسيولوجيا القديمة » وكتب (وقد وضع فى ذهنه مدرسة بافلوف) قائلاً « إننا نقع فى الفسيولوجيا نفسها على محاولات مختلفة للعمل على الامتداد بالمفاهيم الفسيولوجية القديمة للتوصل إلى معنى بيولوجى واسع النطاق ، كما نجد ذلك بصفة خاصة بصدد مفهوم الانعكاس Reflex فى معالجته بهذه الطريقة ـ وهو الأساس فى تقديم تفسير ميكانيكى بحت لحركة الحيوان » . وهكذا يتضح أن لانج فى ذلك الوقت قد أدرك بالفعل أن المفهوم الميكانيكى للانعكاس الذى يرجع أصلاً إلى ديكارت قد أعيدت صياغته فى نظرية الانعكاس عند بافلوف فى دراساته للانعكاسات الشرطية . والواقع أن فاجنر قد فشل فى مشاهدة الانعكاس بهذا البعد ،

ولكن من المؤكد أنه فى سياق إعادة صياغته للانعكاس قد اتضح الاختلاف الجوهرى بين ما ذهب إليه بافلوف وبين ما تضمنته الأوضاع الميكانيكية . يقول لانج « إن التجارب الشهيرة التى اضطلع بها البروفيسور بافلوف فيما يتعلق بالانعكاس الشرطى للعاب وإفراز العصارة الهضمية ، قد كشفت النقاب عن العوامل المختلفة بما فى ذلك العوامل النفسية وكيف أنها تؤثر فى هذه الانعكاسات . فالمفهوم السابق للانعكاس الذى كان مقبولاً كعملية مستقلة تمامًا عن الناحية النفسية ، قد اتضح أنه مفهوم دجماطيقى وغير ناجع بشكل أساسى » . ونحن نستطيع أن نرى أن لانج يعتبر بحق أن بافلوف كان أقرب إلى البيولوجيين التطوريين الذين كان يعتبر فاجنر أهم ممثل لهم أكثر منه قربًا من الفسيولوجيين الميكانيكيين .

والواقع أن فاجنر بينما كان يقود حملة فى جبهتين ـ حملة ضد التشبيهية Anthropomorphism ، وحملة أخرى ضد النزعة البيولوجية Biologisation فى علم النفس المقارن ـ فإنه قام فى الوقت نفسه بتطوير بعض المناهج الموضوعية فى دراسة النشاط النفسى الحيوانى . ففى رأيه أن عالم النفس الطبيعى الذى يبدأ منطلقًا من وجود التشابه الجينى فى جميع الأشكال الحيوانية ، عليه أن يقارن المظاهر السيكولوجية فى نمط معين بأحد الأشكال مع تلك المظاهر الموجودة فى أكثر الأشكال ارتباطًا بذلك النمط فى الصف التطورى ، الأمر الذى يسمح له باستمرار هذه المقارنة أكثر فأكثر دون أن يتناول المظاهر المتعلقة بالإنسان . ومن الجدير بالملاحظة أن الأعمال الرئيسية التى اضطلع بها فاجنر بصدد علم النفس الحيوانى ، تتبنى أساسًا على هذا المنهج الموضوعى ، وهى تبرهن على أنها مثمرة

Looloo
www.dvd4arab.com

تماما . وحتى أولئك الذين لا يتجاوبون مع فاجنر فى هجومه على النزعة الذاتية Subjectvism — من أمثال فيليشنكو وكارافايف Karavayev وغيرهما — لا يستطيعون إنكار الدور العظيم الذى لعبته طرائق علم النفس المقارن التى قام فاجنر بتطويرها فى مدارسته لعلم النفس الحيوانى .

لقد كان المعاصرون لفاجنر يعتبرونه عالم نفس متمكنا يحاول جاهدا صد انقضاض علم النفس الميتافيزيقى على مواقع العلم الطبيعى المتقدم . وهكذا نجد أن بروسك A.K. Borsuk يزاوج بين آراء فيدنسكى Vvedensky بإزاء مصير علم النفس وبين آراء فاجنر الذى ذهب إلى أن « علم النفس لا يمكن أن يكون علما ما لم يعتمد على المعطيات التى يصل إليها العلم الطبيعى » . فهو فى شرحه لأفكار فاجنر ، أخذ يؤكد أن علم النفس المقارن ، أعنى علم النفس الذى يقوم بدراسة أصول الحياة النفسية فى تطور الحياة ، لا يعدو أن يكون فرعا من علم النفس المعاصر ، وهو أمر يجب التسليم به . « فليس هناك فهم علمى ، بل ولا يتسنى أن يكون هناك فهم علمى للحياة النفسية لأى كائن حى ، خارج نطاق القوانين والمبادئ التى قامت بإرسائها نظرية التطور » .

على أن النظرة التطورية إلى الحياة النفسية لم تعد مجالا متخصصا للبحث فحسب ، بل إنها صارت المبدأ العام فى تناول المشكلات النفسية . فلقد صارت أفكار فاجنر المتعلقة بالتطور ، والتى تطورت فى كتاباته حول علم النفس المقارن ، جزءا متكاملا فى قوام علم النفس .

والواقع أن العلماء فى تلك الفترة الذين آمنوا خلالها بالاتجاه العلمى الطبيعى فى مدارستهم لعلم النفس ، كانوا علماء طبيعيين

بالدرجة الأولى . ولقد كان لانج واحدا من بين علماء النفس الذين كانوا يلقون المحاضرات بالجامعات وهم ملتحقون بكراسى الفلسفة ، ولكنه كان الوحيد بينهم الذى تذرع بالشجاعة ، فعمد إلى ربط أنشطته واتجاهاته التقدمية بعلم النفس . وعلى الرغم من أنه ظل من الناحية الرسمية ممثلا لعلم النفس الجامعى الرسمى ، فإنه فى عدد من الموضوعات قد التزم بالأوضاع المادية العلمية الطبيعية . ولا شك أن الوضع المتناقض الذى احتله لانج قد أفضى إلى نشوء تقييم متناقض بإزاء آرائه السيكولوجية . فنجد أن تيبلوف Teplov مثلا يؤكد أن لانج قد نبذ جميع مناحى المثالية « الصريحة » ، وأنه حمل آراء تقدمية بإزاء المسائل السيكولوجية الرئيسية مما أدى به إلى تقديم تفسير مادى للحياة النفسية . ولقد أكد تيبلوف أن لانج انضم إلى المادية بإزاء مسألة تحديد الأولوية : هل هى للمادة أم للشعور ، على الرغم من النطاق المحدود لآرائه الفلسفية ، مما يفسر رجوعه إلى الموقف الثانى فى تطويره بعد ذلك « للمشكلة النفسية الجسمية » .

وثمة ارتباط حيوى فيما بين علم النفس وبين تراثات العلم الطبيعى المادى يتمثل فى الملمح الأوّلى والحتمى للاتجاه العلمى الطبيعى فى علم النفس . والواقع أن نشاط لانج كان مشوبا بأسره بتلك التراثات . ففى أحد أبحاثه القديمة ، نجده قد ضرب فى إثر سيخينوف Sechenov ووفقا لاتجاهاته ، فيقول بالفعل الإرادى كرد فعل مماثل من جانب الكائن الحى على الإثارة الخارجية كانعكاس من جانبه . فلانج — شأنه شأن سيخينوف — كان يبدأ دائما من افتراض وجود بنية آلية فى العملية النفسية ليس فقط لدى تفسيره لطبيعة العمل الإرادى ، بل أيضا بإزاء نظريته الحركية الخاصة بالانتباه ، وبإزاء مسألة الذاكرة والحديث الداخلى . وعلينا أن نذكر أيضا قانون الانعكاس الحسى الذى

Looloo
www.dvd4arab.com

وضعه لانج وقد ترسّخ فيه الطابع القياسى للعملية الإدراكية الحسية ، وكذا تتابع مراحل الإدراك وتباينها المتزايد . أما العلاقة فيما بين أفكاره وبين أفكار سيخينوف فواضحة ، فسيخينوف ذهب إلى أن الانتقال من الإحساس إلى الإدراك شبيه بالانتقال من الشكل الأقل تحديدًا ، وبالتالى من الشكل الأكثر اندماجًا ، إلى الشكل الأكثر تحديدًا ، وبالتالى إلى الشكل الأكثر تفصيلاً .

وشأن لانج كشأن جميع المناصرين للاتجاه الطبيعى العلمى فى علم النفس ، من حيث انتحاؤه بعيدًا عن معادلة عقل الإنسان بالحياة النفسية للمخلوقات الأخرى ، وذلك فى محاولته تحديد الوضع الذى تحتله الحياة العقلية فى التطور العام للحياة النفسية . فليس من المصادفة أنه هو نفسه قد نعت نظامه السيكولوجى بأنه « علم نفس بيولوجى » . فلقد ذهب إلى أن جميع أنماط الوجود السيكولوجى ، مهما كانت متنوعة بغير حدود ، فإن البنية الأساسية ذاتها تتبدى فيها ، كما أنها تخضع لنفس القوانين ولنفس العوامل البيولوجية . يقول لانج « إن التمايزات التى تتبدى فيما بين الحياة النفسية للمخلوقات التى تحتل الأطراف العكسية لسلم الكائنات الحية ، ليست أخطر فى الواقع من التمايزات التى تتشكل وفقها مقوماتها الشكلية والفسيولوجية » .

وينتهى لانج إلى خلاصة مهمة مؤداها أنه على الرغم من أن الاعتقاد الشائع هو أن الحياة العقلية لدى الإنسان شىء له خصوصياته وميزاته ، فإن هذا لا يقوم على أساس من الواقع . فهذا الاعتقاد مجرد وهم أو هو خطأ فى الرؤية ، أو هو نوع من الالتفاف حول الذات والغرور . فالواقع أن العالم النفسى للإنسان لا يشكل سوى مرحلة من مراحل تطور الكائنات الحية . فهو يحتل المستوى الأعلى فى سلم التطور النفسى ، « ككائن حى اجتماعى وتاريخى » . وقد تسلق إلى هذه

المرتبة « بواسطة النهج الاجتماعى للحياة ، وبفضل التقدم الذى كفله له التاريخ » . فبينما نجد أن الحياة النفسية لدى الحيوانات المتدرجة فى مستوى تطورها ، لا تفسر إلا فى ضوء الوراثة الفسيولوجية والنمط العضوى لكل منها ، فإننا نجد أن لدى الإنسان « التاريخى » و« الاجتماعى » عاملاً جديدًا يعتمل لديه مع تعاقب الأجيال ، أعنى التراث بالمعنى العام للكلمة الذى ينتقل من كل جيل إلى الجيل التالى له حاملاً معه جماع الثقافة التى تم التوصل إليها من خلال اللغة والتقليد والتربية إلخ . « فجميع أفكارنا ومشاعرنا ، بل وجميع آرائنا ورغباتنا ، وأيضًا جميع عاداتنا وميولنا ، والقوام الكامل لشخصيتنا بوجه عام ، يبرهن على أن كل ذلك إنما هو نفس النتاج الاجتماعى والتاريخى الذى نجده بإزاء اللغة . فالتراثات فى اللغة ، بما تحمله من تقاليد وأخلاقيات وفن وعلم ودين ، تعمل جميعًا على إثراء روحنا بثروة هائلة تتعلق بخبرة الإنسانية فى الماضى ، وهى الخبرة التى لا يضيف إليها كل فرد سوى جزء ضئيل من حصيلته الثقافية . والواقع أن تسعة وتسعين فى المائة من روح الشخصية الإنسانية إنما هو نتيجة لاعتمال التاريخ والاجتماع فى قوامها . وهكذا نستطيع أن نرى أنه على الرغم من أن لانج لم يتصور الحياة العقلية للإنسان كشىء فريد ومباين جوهريًا عنها لدى الكائنات الحية الأخرى ، وقد نعت سيكولوجيته بأنها سيكولوجية بيولوجية ، فإنه لم يشارك مع ذلك فى النظرة البيولوجية الفجة ، بل ظل مؤكدًا الجوهر الاجتماعى للإنسان .

وجريًا وراء لانج ، فإن الحياة العقلية لدى كل فرد تتشكل من عدد من الخبرات الانفعالية الذاتية . بيد أن تلك الحياة العقلية تشكل فى الوقت نفسه عملية حيوية حقيقية تعمل على إدخال التغيرات فى الاستجابات الباعثية . ولقد ظن لانج أن هذه العملية تتطور « وفق

www.dvd4arab.com

طريق محدد لتكيف الكائن الحى للبيئة » مما يساعده على خوض حلبة الصراع من أجل البقاء « كما أنه يخضع للاختيار والتطور فى اتساق مع هذه الركيزة البيولوجية » وبهذا المعنى ، فإن هذه العملية تشبه العمليات الحيوية الأخرى كالتغذية والهدم والبناء والدورة الدموية والنمو ، كما أنها ترتبط بها برباط وثيق ومنتظم . ويعتمد مدى تعقد الحياة النفسية على مدى تعقد قوام الحيوانات المنخرطة فى نوع معين من أنواعها المتباينة « فالواقع أن البيئة الواحدة المحيطة بالكائنات الحيوانية تنعكس عليها بتأثيرها بطرائق متباينة معينة فى شعور كل منها تبعًا للمستوى التطورى الذى بلغته ، وتبعًا لتعقد بنية كل نوع معين من أنواعها . أما الحياة العقلية بوجه عام فإنها تحتل مكانتها وفق عدد لامتناه من الأنماط العقلية المألوفة الخاصة بالأنواع الحيوانية التى تنتمى إلى النظم المتباينة » . وينعت لانج هذه النظرة إلى الحياة النفسية بأنها نظرة موضوعية .

ويعتقد لانج أن الربط فيما بين وجهات النظر الذاتية والموضوعية يعد مطلبًا ضروريًا لعلم النفس ، إذ إنه بدون توافر الخبرات الانفعالية الذاتية ، فلا نكون إذن حاصلين على مفهوم خاص بالحياة النفسية ، وبغير إحرازنا للتقدير الموضوعى لتلك الخبرات ، فإننا لا نكون حائزين بالتالى على علم نفس يتصف بأنه علم من العلوم الوضعية . « فمن الناحية الذاتية ، فإن العالم بأسره لا يوجد فى شعورى . ولكن من الناحية الموضوعية ، فإن شعورى ـ شأنه شأن الشعور عند المخلوقات الأخرى ـ ليس سوى واقعة فردية تحدث فى العالم الواقعى العام ، وهو من الناحية المكانية مُدرج فى نطاق كائن حى معين ... ومن الناحية الذاتية فإن شعور أى فرد إنما هو بالنسبة له شرط

لا غنى عنه لوجود العالم بأسره كظاهرة بالنسبة له . أما من الناحية الموضوعية فإنه بالنسبة لعالم النفس ، لا يعدو هذا الشعور أن يكون عاملاً من بين العوامل المختلفة فى حياة كائن حى معين ، يحدث تأثيرًا ما فى العالم بوجه عام حتى وإن كان ذلك التأثير محدودًا للغاية » .

وليس من شك فى أن لانج كممثل للاتجاه العلمى الطبيعى فى علم النفس ، قد قام بنقد النظريات الروحية والثنائية المتعلقة بحياة الإنسان العقلية ، ولكنه كان هو نفسه ميالاً إلى الثنائية فى تشييده لبرنامجه الوضعى .

على أنه قد احتل وضعًا يتصف بالمادية بإزاء المسألة التى تحتل مركزًا رئيسيًا بالفلسفة . فلقد وقف على أن المادة لها الأولوية ، وقد بزغت إلى الوجود قبل بزوغ الشعور . وهو يقول بهذا الصدد « إن علم النفس البيولوجى فى تناوله للشعور كوظيفة تعتمل فى الكائنات الحيوانية يفترض بالضرورة أنه لم يكن هناك فى وقت ما كائنات حية على الإطلاق ، وبالتالى فلم يكن هناك ما يسمى بالشعور . وعلى هذا فإنه يذهب إلى أن الشعور قد بزغ إلى الوجود فى لحظة معينة فى تاريخ العالم الفيزيائى . فالعالم الفيزيائى بالنسبة لعلم النفس ليس مجرد مدرك شعورى ، بل على العكس من هذا فإن الشعور فى الواقع هو الذى بزغ من العالم الفيزيائى . فالوقوف على وجود العالم الفيزيائى الحقيقى فى استقلال عن الشعور يعتبر شرطًا ضروريًا لا غنى عنه لعلم النفس .

ويعمد لانج إلى المقارنة فى محاولاته لفهم العلاقة بين ما هو نفسى وما هو فيزيائى باستعراضه « للتفسير المثالى لعلم النفس » فى أعمال

Looloo
www.dvd4arab.com

المثاليين الذاتيين : ماتش Mach وأفيناريوس Avenarius والكانطى الجديد بول جرهارد ناتورب Paul Gerhard Natorp . فبصدد تقريره عن الماتشيَّة من حيث دعوتها بصفة رئيسية إلى العودة إلى الذاتية والمثالية ، فإن لانج يؤكد أنها على هذا النحو لا يمكن أن تكون مقبولة ، سواء من جانب علم النفس أم من جانب الفيزياء . وهو يلاحظ « أن العناصر التى يعترف بها ماتش إنما هى فى الواقع إحساساتنا المتعلقة بالزهور والأصوات إلخ ، أعنى أن ماتش يعود بعلم النفس إلى المثالية الذاتية التى اعتنقها جون ستيوارت مل John Stuart Mill ودافيد هيوم David Hume وغيرهما . أما خبرتنا وما تتشكل منه ، فإنها تتطابق مع العالم الواقعى . هذا العالم الواقعى الذى يستحيل إلى ما يمثله فى قوانا ، كما أن وجود الموضوعات الخارجية يتطابق مع ما تنحو إليه مدركاتنا الحسية . ولكن عندما نضرب صفحًا عن حقيقة العالم الفيزيائى ، فإن المثالية الأحدية تبزغ عندئذ إلى الوجود ، وبالطبع فإن المشكلة الصعبة المتعلقة بحقيقة الوجود وحلها فى ضوء التوازى فيما بين ما هو فيزيائى وما هو نفسى تستحيل إلى مسألة سهلة نسبيًا تتعلق بالعلاقة بين مفاهيمنا بإزاء الواقع الفيزيائى وبين تلك الوقائع النفسية فى حدود الخبرة أو الشعور » .

ومن المؤكد أن لانج قد مر فى تطور فلسفى بإزاء أفكاره ووصل إلى أوج ذلك التطور فى كتابه المسمى « علم النفس الفسيولوجى » "Phychology" . والواقع أن خطابات لانج فى عام ١٨٩٠ ، وهى الخطابات التى لم تنشر حتى اليوم ، إنما تكشف عن موقفه الإيجابى الأصيل تجاه فلسفة أفيناريوس Avenarius النقدية التجريبية ، وهو الموقف الذى كان فيه ميالاً إلى الوقوف على حل صحيح للمشكلة

النفسية الفيزيائية . وفى عام ١٩١٤ قام بتوجيه النقد الشديد إلى هذا الموقف من الزوايا المتعلقة بالعلم الطبيعى المادى . ومن المعروف أن لانج فى تلك الفترة لم ينشر أيًا من نتائج تجاربه على الرغم من أنه قبل ذلك كان ينشر كتاباته بانتظام . ولقد نفسر هذا التوقف عن النشر بأن تلك الفترة كانت بالنسبة له مرحلة تفسير نظرى جاد للمعلومات السيكولوجية المتجمعة . وثمة تغير حاسم حدث فى وجهات نظر لانج بإزاء المشكلات النفسية الرئيسية فيما بين عامى ١٩٠٩ و ١٩١٤ ، ففى تقريره المقدم إلى مؤتمر كل روسيا الثانى الخاص بعلم النفس التربوى فى عام ١٩٠٩ والذى فيه شن هجومًا عنيفًا ضد شلبانوف Chelpanov ، فإننا نظل لا نرى فيه أية آثار لأفكاره الجديدة على الرغم من أن شلبانوف كان مناصرًا للماشية ، وقد كان فى تقريره للمؤتمر مدعمًا لها . بيد أن جوهر التغييرات التى حدثت فى الموقف المنهجى لدى لانج لا يمكن رده إلى نقده للماشيَّة فحسب .

والواقع أن علم النفس المثالى قد اعتبر أن الملاحظة الذاتية تشكل الوسيلة الأساسية فى دراسة الحياة العقلية . ومما لا شك فيه أن الملاحظة الذاتية تعتبر طريقة تستخدم فى علم النفس المثالى ، وقد نشأت عن المفهوم الاستبطانى للشعور ، وهو ما شارك فيه الدارسون الذين اتخذوا من المثالية مبدأ لهم يستهدون به . ففى تقرير شلبانوف إلى المؤتمر فى عام ١٩٠٩ نجده يؤكد على أن الملاحظة الذاتية قد شكلت أساسًا للدراسة الموضوعية التجريبية التى تهتم بتناول الظواهر النفسية . على أن لانج فى نقده لرأى شلبانوف فيما يتعلق بمشكلة الملاحظة الذاتية ، لم يصل إلى أبعد من مجرد ملاحظة الطابع المعقد للملاحظة الذاتية لدى القيام بمقارنة التجربة . ولكنه فى كتابه « علم النفس » Psychology نجده قد اتخذ بالفعل موقفًا مختلفًا تمامًا .

www.dvd4arab.com

وينعكس احتجاج لانج ضد المفهوم الاستبطانى للقوام النفسى للمرء فى مقاله النقدى ضد موقف بول ناتورب Paui Natorp ، العضو بالجناح الأيمن للحزب الاجتماعى الديموقراطى الألمانى الذى قدم موقفًا كانطيًا جديدًا مناهضًا للماركسية فى الفلسفة وعلم النفس والتربية . ولقد اعتبر لانج وجهات نظر ناتورب نموذجًا للتفسير المثالى لعلم النفس وهو تفسير مناهض « لوجهة نظرنا الواقعية أو البيولوجية لمهام علم النفس » . ولقد لاحظ لانج أن الخبرات الانفعالية الذاتية لم تكن موضوعًا للدراسة السيكولوجية فى حد ذاتها ، كما أنها لم تكن تحت سيطرة الفرد من خلال تلك الخبرات . فهى لا تكون كذلك إلا من جانب شخص آخر يقوم بملاحظة ذلك الفرد . وعلى هذا فإن هذا يشكل النقطة التى يبدأ منها تحطيم مفهوم الشعور . فالمناقشة والتجريب والتقدير السيكولوجى والدراسة الموضوعية ، لا تتم جميعًا فى نطاق شعور الفرد الذى ينخرط فى خبرة انفعالية ، بل تتم خارج نطاقه ، أعنى فى نطاق أفكار عالم النفس الذى يقوم بالملاحظة والتجريب . ذلك أن عالم النفس الذى يقوم بملاحظة الخبرات الانفعالية لدى شخص ما ـ وهى الخبرات التى يتضمنها العالم الواقعى والتى تحتل مكانها لدى المرء وتقع فى نطاق واقع موضوعى ـ وبالتالى فإن تلك الخبرات تكون مرتبطة ارتباطًا سببيًا بالأحداث التى تتم فى العالم الواقعى .

وبالإضافة إلى هذا فإن لانج قد نبذ بحسم الموقف الاستبطانى بإزاء دراسة النفس . فالمثالية ترد مهمة علم النفس إلى مجرد القيام بتحليل مضمون الشعور بالذات فى نطاق شعور فردى محدود . فحياة الفرد العقلية بأسرها لا تتشكل لدى من يأخذ بالطريقة المثالية إلا فى ضوء ما يقف عليه المرء فى خبراته الانفعالية . وفى نطاق ما يتسنى

له إدراكه منها . ومن هنا فإن الشعور يستحيل من مجال للدراسة إلى حالة أو مبدأ لعلم النفس . فهذه النظرة إلى الحياة النفسية سطحية فى رأى لانج ، وبالتالى فإنها نظرة يجب الإغضاء عنها وعدم الأخذ بها . ويؤكد لانج أن علم النفس لا يستطيع أن يجد ما يرضيه بما يتم للمرء دراسته عن نفسه ، أعنى ما يتسنى له تمييزه فى خبراته الانفعالية . والواقع أن فكرة لانج عن أهمية المعطيات التى يتم الحصول عليها من خلال الملاحظة الذاتية ، قد حلت محل المدارس المتباينة لعلم النفس السلوكى وللاستبطانية المتعلقة بعلم النفس المثالى . يقول لانج « إن الانفعالات الذاتية ليست سوى مادة لعلم النفس ينبغى تفسيرها بعبارات سيكولوجية ولكنها لا تشتمل على تفسير فى حد ذاتها » ويلاحظ لانج أنه فى غالبية الحالات ، فإن الشخص الذى يخضع للاختبار لا يتسنى له أن يأخذ فى اعتباره المركب الفعلى لانفعالاته : أصل وطبيعة إرادته ومشاعره ومعانى الكلمات التى ينطق بها ، وعلاقاته بالأفراد الآخرين ، وعمليات التذكر والتفكير . وهو مرارًا وتكرارًا يعود إلى هذا التقدير للمعطيات التى تتأتى من خلال الملاحظة الذاتية فيقول « إنه من الناحية الذاتية فإن الحياة العقلية تتشكل من الخبرات الانفعالية ذاتها ، ولكنها من الناحية الموضوعية بالنسبة لعالم النفس الفسيولوجى ، فإنها تقدم قوامًا واقعيًا مؤكدًا تقدم على أساسه عمليات معينة وقوانين تتعلق بتطور الشخصية ، وهى العمليات والقوانين التى لا يكون لدى الشخص صاحب تلك الانفعالات أى فكرة عنها » .

والواقع أن التقييم النقدى للملاحظة الذاتية Observation – Self الذى قدمه لانج فى كتابه لا ينطوى إلا على عناصر مشتركة بينه وبين البراهين المعتدلة التى تشير إلى الإمكانات المحدودة للملاحظة

Looloo
www.dvd4arab.com

الذاتية التى ساقها على النحو الذى ساق فيه أوجست كونت Auguste Comte مقالاته الموضوعية .

وهكذا نستطيع أن نشاهد من زاوية تحليل النقد الموجه إلى علم النفس المثالى أنه كان نتيجة للظروف التاريخية التى سادت فى ذلك الوقت . ومما لا شك فيه أن كتاب لانج بعنوان Real Psychology يعتبر نظامًا سيكولوجيًا متقدمًا ويحمل فى أحنائه التراث المادى وأنه متطور باتجاه سياق الاتجاه العلمى الطبيعى لعلم النفس . ولكن برغم أننا نعطيه حقه من التقدير ، فإننا لا نستطيع أن نغض النظر عن المثالب الأساسية التى شابت هذا الكتاب المذكور . فلقد كان لانج أبعد ما يكون عن محاولة إقامة عمله على أساس علمى مكين .

★ ★ ★

الفصل السادس عشر

إدوارد تيلور Tylor, Edward
(١٨٣٢ - ١٩١٧)

يعد تيلور أول من قام بتناول الثقافة بالدراسة الجادة التى تضم فى أنحائها الميدان الكامل الذى يشغله الإنسان وبيئته . فهو يرى أن نطاق الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) يجب أن يضم جسم الإنسان وبيئته الطبيعية وأنشطته الروحية .

والواقع أن تيلور لم يكن يقوم بالنشاط الميدانى فى دراسته ، ولكنه كما يقول لووى Lowie ، كان أبعد ما يكون عن أن ينعت بأنه كان أنثروبولوجيًا قابعًا فى برجه العاجى . ذلك أنه كان يقوم بدراسة الثقافة أينما كانت ، سواء فى مخزن للخردة بإحدى المدن الكبيرة ، أم فى إحدى مدارس الصم والبكم (حيث وقف على جوانب هامة فى دراسته حول لغة الإشارات) ، أم فى مصنع للغزل ، أم فى محل للجزارة ، أم فى العروض والاحتفالات الدينية . هذا وقد كان تيلور يقضى معظم وقته فى دراسة ما قام أصحاب الأقلام بكتابته حول تاريخ الحضارات والمؤسسات والحرف والمعتقدات والعادات والتقاليد لدى الشعوب البدائية . فصار كما كان يقال عنه موسوعة تضم فى أنحائها الكثير من الكتب ، كما أن معلوماته عن الأدب كانت واسعة وعميقة أيضًا .

ولما لم يكن تيلور رجل بحث ميدانى ، فإنه لذلك اعتمد إلى حد بعيد على المادة المتجمعة من التقارير والمنشورات التى سجلها

Looloo
www.dvd4arab.com

الرحالة والبعثات التبشرية وأصحاب المغامرات والمستعمرون والبحارة وغيرهم . ولكن هذه التقارير كانت مهلهلة وبلا رابط يجمع بينها ، كما أنها لم تكن قد خضعت للنقد ، بل كانت متحيزة ولا يعتمد عليها بوجه عام . ولقد أدى الاستخدام السهل لهذا النوع من المادة من جانب الدارسين إلى إشاعة الفوضى والتناقض فيما بينها . والواقع أنه من الناحية العملية فقد كان أى تأكيد أو نفى بإزاء الثقافات البدائية ، يجد له ما يؤيده من جانب ما تضمنته تلك الوثائق المتباينة .

بيد أن تيلور كان حذرًا جدًا بإزاء هذه المشكلة ، ومن ثم فإنه شرع فى وضع قوانين خاصة « بالشواهد الداخلية » "internal evidence" التى يمكن تطبيقها فتعمل عندئذ على الخلوص إلى المعلومات التى يمكن الاعتماد عليها من بين العديد من التقارير التى يمكن تناولها . فكانت الأداة الرئيسية هنا هى « اختبار التكرار » test of recurrence أو « التوافق غير المبيَّت » "undesigned coincidence" الذى كان يتسنى بواسطته تقييم التقارير وفقًا لتكرار المعلومات بالتقارير الأخرى . فالتقارير التى تتفق فيما بينها ولا تتناقض بعضها مع بعض ، كانت تحظى بقبول أكبر من سواها . ويقول لووى بهذا الصدد « إن من يقوم بدراسة ما قام به تيلور فى عام ١٨٩٠ يتسنى له أن يفيد من الكمية الهائلة من المادة المستخلصة بإتقان شديد ، والتى تم تحقيقها باهتمام بالغ ، والتى تم تفسيرها من وجهة نظر تطورية موحّدة كما تم تناولها بأناة وتدقيق » .

وبعد أن أرسى تيلور قواعد الأنثروبولوجيا كفرع علمى جديد بأوكسفورد ، فقد صار فى استطاعته أن يبعث بالطلبة إلى أنحاء الدنيا « كدارسين ميدانيين للطبيعة البشرية » . فذهبوا إلى الميدان بتعليمات

وتقنيات دقيقة يتذرعون بها فى جمع المعلومات وفى تنظيم المادة التى يتسنى لهم جمعها ، فيتأتى عن ذلك إقامة علاقات وتعميمات مفيدة .

وأهم من كل هذا تلك الكمية الهائلة من المعلومات التى جمعها تيلور بنفسه وقام باستخدامها . فنجد واحدًا من المعلقين الفرنسيين على ترجمة لكتاب تيلور المسمى الثقافة البدائية **Primitive Culture** يعلق بقوله « إن ما يلاحظه المرء فى المقام الأول هو ذلك الكم الهائل من الوثائق . فالمرء يجد أمامه أكوامًا هائلة أو حتى جبالاً شاهقة من الوثائق لا نهاية لها » .

ومن المشهور عن تيلور أنه كان حذرًا ومدققًا فى تقديم نظرياته وأفكاره . فثمة الكثير من المراجع التى قدمها والتى تدل على احترامه المتناهى للوقائع وعلى صبره فى استنتاج المعلومات من بين الدقائق والتفصيلات حتى يجعل الحقائق ذاتها تتبلور فى هيئة تعميمات .

ومن الجدير بالملاحظة أنه فى المرحلة الأولى من تطور العلوم الاجتماعية كان الدارسون يحرصون جدًا على الاستعانة بمواقف وتقنيات العلم الطبيعى التى ثبت نجاحها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . فالمثل الأعلى الذى أرسى دعائمه بيكون **Bacon** فيما يتعلق بالاستقراء الجدير بالثقة فى العلوم ، كان يعتبر الطريقة الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها فى التوصل إلى تعميمات علمية . فلقد كان يعتبر هربرت سبنسر واحدًا من أعظم العقول قدرة على « الاستنباط » فى نطاق العلوم الاجتماعية . على أن تيلور كان بلا شك أكثر حرصًا وجدية من سبنسر ، ولكن من الخطأ أن نتصوره رجلاً غير حائز على تصورات مُسْبَقة ، أو أنه لم يكن حائزًا على اهتمامات شخصية فى العمل الذى كان يقدم عليه . فأعماله القديمة كانت تأملية بصفة خاصة بشكل جرىء كما كانت مفعمة بالحماسة

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد اعتقد تيلور أن العامل الرئيسى فى السلوك البشرى ينبثق من المعتقدات والتوجهات التى تعتمل فى قوام المؤسسات والتى تشكل أعظم الشواهد التى يمكن الاعتماد عليها فى دراسة التاريخ والتطور البشرى . من هنا فإن الأساطير والحكايات الشعبية والدين والعادات والتقاليد ، كانت تعتبر جميعًا المصادر الرئيسية لتلك المعلومات ، ومن ثم يجب القيام بدراساتها جنبًا لجنب مع المادة المدونة والحرف إذا كان لنا أن نصل إلى خلاصات يمكن الاعتماد عليها . بيد أن تيلور قد أخطأ فى بعض ما أكد عليه ، ولكنه على أية حال قام بتقديم منحى جديد تمامًا فى تناوله للثقافة بالدراسة .

كان تيلور داروينيا تمامًا فيما يتعلق بآرائه البيولوجية ، على الرغم من أنه أنكر أن يكون قد تأثر بشكل مباشر بكتابات دارون . فهو يقرر فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « الثقافة البدائية » "primitive Culture" لقد يندهش بعض القراء زاعمين أنه فى عمل كهذا عن الحضارة والذى يهتم بالدرجة الأولى بتقديم نظرية عن التطور ، كان من الواجب فى رأيهم أن يشار إلى دارون وسبنسر اللذين كان يجب الاعتراف بتأثيرهما فى طريقة التفكير الحديثة برمتها بإزاء موضوعات من هذا القبيل . بيد أن عدم ذكر مراجع بالذات يمكن أن يفسر بإزاء هذا العمل بأنه يرجع إلى أنه يختص بخطوطه وملامحه المستقلة ، بحيث لا يكاد يلتقى أو أن يتصل على أى نحو أو أن يتأثر بهذين الفيلسوفين العظيمين » والواقع أن كثيرًا من علماء الأنثروبولوجيا من أمثال لووى وهرسكوفيتس Herskovits وكروويبر Kroober قد عبروا عن هذا الرأى نفسه فيما يتعلق بتأثر تيلور بدارون ، وفى تطور الأنثروبولوجيا بوجه عام . وعلى الرغم من أن

تيلور ليس عالمًا تطوريًا على طول الخط بحيث يذهب إلى أن المجتمع يجب أن يمر عبر مراحل معينة ، فإنه استخدم الكثير من المفاهيم والأفكار التى استخدمتها الداروينية بإزاء تفسير التطور العضوى .

ومن المشكلات التى جابهت تيلور مشكلة إرساء قواعد أوجه الشبه الرئيسية فيما بين العقول البشرية ، أعنى « الوحدة النفسية التى تجمع البشرية فى نطاقها » كما كان يقال . والواقع أن ثمة أوجه شبه كثيرة إلى حد بعيد فيما يتعلق بالأدوات المستخدمة والعادات والتقاليد والمعتقدات بين الثقافات السابقة والحالية قد سبق أن أشار إليها الكثير من الدارسين قبل تيلور ، ولكن الفضل يرجع إليه فى أنه وقف على أنه عندما تكون الفرصة مواتية لاتصال الثقافات بعضها ببعض ولانتقال السمات الثقافية (التى اعترف كثير من الباحثين بنقلها فى ضوء الشواهد الأكيدة) ، فإن التشابهات عندئذ لا تكون بحاجة إلى أن تتطور فى استقلال وبغير تأثر بغيرها . فما كان عليه أن يظهره هو أنه فى ظل الظروف المتشابهة ، فإن عقول الناس تعمل على نحو متشابه . والواقع إن البرهان على ذلك لابد أن يستند إلى معطيات سيكولوجية أكثر من اعتماده على معطيات تاريخية ، وذلك لأن تاريخ أى سمة لإحدى الثقافات نادرًا ما تستبعد احتمال النقل الثقافى . فلابد إذن أن تكون السمات المختارة للدراسة هى تلك السمات التى لم تنتقل بعيدًا عن الظروف التى نشأت فيها كما يقول تيلور . فثمة الكثير من السمات الثقافية قد تأتت عن آماد من التدريب المتواتر بحيث لا يمكن اعتبارها انعكاسًا لظروف عقلية أو بيئية أصيلة . بيد أنه فى مناطق معينة كان هناك تأثر قليل ، كما هو الحال فى الكتابة بالصور ، وفى لغة الإيماءات ، وفى الألعاب الرياضية والأمثال والألغاز والأساطير

Looloo
www.dvd4arab.com

والخرافات والأدب الشعبى والدين . فتلك السمات تمثل بطريق مباشر العمليات العقلية التى لم تتأثر بالتدريب ، بل إنها تشكل مصدرًا لإعادة تفسير العقل البشرى فى ذاته . وتبعًا لذلك عمد تيلور فى كتابه المسمى « أبحاث » "Researches" (١٨٦٥) إلى تقديم تاريخ للحضارة ينبنى بصفة رئيسية على دراسة اللغة والأسطورة والتقاليد والعادات والمعتقدات .

والواقع أن أوجه الشبه فيما بين لغة الإشارات بالمجتمعات المتفرقة فى الزمان والمكان ، كانت بمثابة شواهد مُقْنعة فى نظر تيلور « على أن العقل لدى الناس غير المتحضرين يعمل بنفس الطريقة إلى حد بعيد عبر جميع العصور وفى كل مكان » . فتاريخ السحر فى كل بقاع الأرض يشير إلى ظاهرة واحدة معتملة فى قوام الإنسان ، أعنى الإسقاط الخارجى على الواقع المادى للعمليات التى تدور فى فكر الفرد . وبالنسبة لمعالجة الأساطير بالتفصيل الدقيق على النحو الذى قام به تيلور ، فإنه يحدد بإزائه ثمانية موضوعات أسطورية تحدث بشكل شائع فى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وفى آسيا . فهذه الموضوعات المتواترة فى تلك الأماكن المختلفة شاهد على أوجه الشبه بين العقول البشرية .

وجنبًا لجنب مع هذا الفرض الخاص بالوحدة النفسية بين الناس ، فإن تيلور كان فى وضع يسمح له بقبول الشواهد الدالة على انتشار التطور الثقافى أو على استقلاله . وفى كلتا الحالتين فإن التطور الثقافى يمكن أن يعزى إلى التشابه القائم فيما بين العقول البشرية . ففى الحالة الأولى يتسنى انتقال السمات بفضل التشابه فى بنية واعتمال العقل الذى يقوم بالإبداع والاستعارة ، وفى الحالة الثانية يبدو

أن التطور المتوازى يُعْزى إلى نشاط العقول المتشابهة فى ظل الظروف المتشابهة .

وبعد أن تسنى لتيلور أن يؤكد الوحدة النفسية لدى الجنس البشرى ، فإن الخطوة التالية التى كان عليه أن يضطلع بها ، هى القيام بتقديم تفسير ثقافى يبرهن بواسطته على استمرار التقدم التطورى بدءًا من الإنسان البدائى حتى الإنسان الحضارى . ولقد اضطلع بهذا فى كتابه المسمى « الثقافة البدائية » "Primitive Culture" (١٨٧١) ، وهو عمل أنثروبولوجى هام يعتبر علامة لبداية دراسة علمية جادة للثقافة . وثمة إسهامان رئيسيان فى مجال الأنثروبولوجيا الثقافية قد نبعا من هذا العمل هما « مبدأ البقايا التى خلّفها الأحياء » "doctrine of survivals" و« النظرية الأرواحية » animism .

ولقد أخذ تيلور فى اعتباره منهجين لتفسير التطور الثقافى أوحيا له بمنهج البقايا التى خلفها الأحياء . فكان أحدهما يقوم بتفسير الثقافة المادية بواسطة ما انتهى إليه علماء الآثار والجيولوجيون على أساس مكتشفات البقايا المادية (المشغولات) فى الطبقات الجيولوجية . فيتسنى لعالم الآثار الذى يعمل جنبًا لجنب مع الجيولوجى أن يقيم بناء على القليل مما يعثر عليه من المشغولات (كبقايا الأسلحة والأدوات والأوانى الفخارية) صورة عامة للحضارة المادية التى كانت شائعة فى مجتمع قديم ، كما يتسنى له تحديد وضع ذلك المجتمع بالتقريب فى سياق تسلسل الزمان . فالعصور الثلاثة المعروفة جيدًا ، وهى العصر الحجرى ، العصر البرونزى ، والعصر الحديدى ، إنما هى العصور التى تُعْزى إلى الحضارة المادية التى حدّدت بهذه الطريقة . أما الفرض الآخر المتعلق بمنهج الأرواحية ، فقد انبثق عن استخدام علماء الأحياء لبقايا الكائنات الحية فى تفسير التطور العضوى إذ

Looloo
www.dvd4arab.com

اعتبرت الأجزاء غير الموظفة من جسم الكائن الحى بمثابة رواسب لأشكال قديمة نزلت من الأجيال القديمة ، وهى الأجزاء أو الأعضاء التى كان لها دور وظيفى فى حياة تلك الأجيال القديمة .

وباختصار فإن مذهب تيلور الخاص بالبقايا التى خلّفها الأحياء قد اعتبر التقاليد والمعتقدات الغريبة التى لا معنى لها والتى لا توظّف لدى الشعوب الحضارية بمثابة « أشياء قديمة قام الإنسان قديمًا بصنعها » أو أنها « بقايا أثرية » . وكما سبق أن قلنا ، فإن تيلور كان مهتمًا حتى قبل عام ١٨٥٦ بما يتم العثور عليه من رواسب التقاليد والمعتقدات القديمة التى لا أساس لها من الواقع الراهن بالحضارة الحديثة . فما هذه الأشياء فى اعتقاد تيلور سوى بقايا أو رواسب نزلت إلينا من الماضى الحضارى واحتفظ بها فى « طبقات » السلوك البشرى .

ومع افتراض العقلانية كسمة رئيسية لدى الإنسان فى نطاق إطار بيئى معيّن ، فإن هذه « البقايا » يمكن أن تصير مفاتيح تفسيرية يعتد بها للكشف عن الماضى الحضارى البشرى « فعبر الزمان حدث تغير عام فى أوضاع الناس وظروفهم ، ولكن مع هذا فإن من الممكن العثور على الكثير من الأشياء التى ليس لها أصل فى الحالات الجديدة للأشياء ، بل إنها استمرت موجودة على أية حال . ففى ضوء هذه البقايا ، صار من الممكن الإعلان عن أن حضارة الجنس البشرى التى يمكن ملاحظتها ، لابد أنها استمدت مقوماتها من حضارة قديمة بحيث يتحتم رد تلك الأشياء إلى العصور التى كانت حية خلالها . وبذا فإن تجميع تلك الأشياء وتلك الوقائع يشكل مجالاً تستمد منه المعرفة التاريخية » . فهى توجد فى وسطنا باعتبارها آثارًا باقية خلّفها فكر وحياة البرابرة .

والواقع أن مبدأ بقايا الأحياء قد أضاف فائدة وميزة إلى « المنهج المقارن » كمفتاح للبحث فى مجال الأعراق البشرية . فكثيرًا ما يشار إلى تيلور باعتباره المؤسس « لعلم الأعراق المقارن » . فالمنهج المقارن قد أقيم على أساس الفرض المسلّم به الذى يذهب إلى أن الشعوب البدائية قد شكلت المراحل القديمة للتطور الثقافى التى تخطتها الشعوب المتحضرة . فبدراسة البقايا التى خلّفها الأحياء (المادية وغير المادية منها) بالمجتمعات الحديثة ، صار من الممكن اليوم – جريًا وراء تيلور – العثور على ما أثرت به هذه المراحل فى المجتمع الحديث : يقول تيلور « انظر إلى الفلاح الأوربى الحديث الذى يستخدم البلطة والمجرفة ، وانظر إلى طعامه الذى يقوم بغليه أو شيّلها على قُرْمة من الخشب المشتعلة ، واستمع إلى قصصه حول الأشباح التى تقطن البيت المسكون بالعفاريت القريب منه ، وكذا القصص المتعلقة بابنة خال الفلاح التى سُحرت بواسطة « عَمَل » دُسَّ فى ملابسها الداخلية فسقطت فى نوبات مرض وظلت تتلوى حتى ماتت . فإذا نحن قمنا بتحديد الأشياء على هذا النحو ، وهى الأشياء التى لم تتغير سوى قليلاً عبر القرون الكثيرة ، فإننا نستطيع أن نرسم صورة لا تختلف كثيرًا إذا ما قورنت بحياة وأحوال الفلاح الإنجليزى أو بحياة وأحوال الفلاح الزنجى القاطن فى وسط إفريقيا ... » .

والواقع أن مذهب تيلور الخاص بالبقايا المتخلفة عن الأحياء ، قد صار أهم أداة يستخدمها الأنثروبولوجيون اليوم ، وقد تأتى عن ذلك إحراز مادة عرقية ذات قيمة عظيمة من الممكن تلخيصها فى نطاق يجمع فيما بينها أعنى « الفولكلور » "folklore" أو الأدب الشعبى .

Looloo
www.dvd4arab.com

وقبل أن نتناول نظرية تيلور عن الأرواحية ، وهى النظرية التى كان لها تأثير بالغ ، فإن من المفيد أن نلقى الضوء على موقفه من الأسطورة بوجه عام ، وذلك لأنها تمهّد الطريق لفهم الأرواحية .

لقد اعتقد تيلور أن الأسطورة قد نشأت فى أذهان الناس عندما كانت البشرية فى حالة من الطفولة . فالأساطير قد مثّلت بالنسبة لتيلور المحاولات العقلانية الأولى الفجة برغم أنها كانت محاولات أساسية من جانب الشعوب فى مرحلتها الطفلية ، وذلك لإضفاء معنى على بيئتهم وخبراتهم . فهو يقول « الأسطورة لا تعدو أن تكون ترديدًا للقصة التليدة عن الحياة اليومية بالعالم » . فلقد اعتقد تيلور أن المرء يستطيع أن يقف فى الأسطورة على الفلسفة البدائية المتعلقة بالطبيعة والحياة . وهو يرى أن الأسطورة البولينيزية Polynesian حول الطبيعة تشكّل مثالاً يلقى بالضوء على ما كان قائمًا فى الفلسفة البدائية . والأسطورة تسير على النحو التالى :

إن السماء تمثل الأب ، والأرض تمثل الأم وقد قامتا بخلق جميع الأشياء . ولكن فى البداية لم يكن هناك ضوء لأن السماء والأرض كانتا متعلقتين بعضهما ببعض . ولكن الأطفال الذين أنجبتاهم تآمروا بعضهم مع بعض على ذبح الوالدين أو فصلهما بعضهما عن بعض لكى ينتشر الضوء . فأشار « أبو الغابات » "father of the forests" بفصل الوالدين بعضهما عن بعض ، وبذا تصير السماء « شخصًا غريبًا » بينما تصير الأرض أمًا قائمة على رعاية الأولاد . وهكذا فإن العديد من الأطفال حاولوا أن يفصلوا السماء عن الأرض ولكنهم فشلوا . وأخيرًا حاول أبو الغابات ذلك ، إذ قام بوضع رأسه فى وضع مقابل للأرض ، بينما جعل قدميه فى وضع مقابل للسماء ، وأخذ يفصلهما عن بعض بينما كانتا تصرخان وتتأوهان وتنوحان بصوت

مرتفع . ولكن أبا الريح والزوابع لم يوافق على خطة الأخوة وضرب فى إثر أبيه فى السماوات . وبعد ذلك قام بشن حرب على أخوته وذلك بإرسال الريح والزوابع لإهاجة البحر وتحطيم الغابات والقضاء على حياة النبات والحيوان . وفى أثناء المعركة هربت الزواحف من البحر للبحث عن ملجأ آمن لها فى الغابات . أما الأرض فإنها أمسكت بإلهة النباتات والحيوانات وخبأتها من إله الريح . وأخيرًا فإن إله الريح قبض على « والد الناس القساة » وهو الشخص الذى قام بالتخطيط للقضاء على الوالدين ، ولكن إله الريح لم يستطع أن يزعزعه ، وظل الإنسان مرفوع الرأس مزعزعًا مستندًا إلى بطن أمه الأرض . ولكنه كان مغيظًا لأنه صار مهجورًا من جانب أخوته فى المعركة ، فقام باستغلالهم لمصلحته منذ ذلك الوقت . وتغلب عليهم جميعًا باستثناء إله الريح الذى ما يزال يهاجمه من فترة إلى أخرى بالعاصفة والإعصار . وحتى يومنا هذا فإن السماء والأرض قد ظلتا منفصلتين على الرغم من استمرار حبهما بعضهما لبعض . فالتنهدات الدفينة تنبعث من بطن الأرض (الضباب) وتتجه إلى الرفيق المهجور ، بينما تقوم السماء بذرف الدموع الغزيرة (الأمطار) على أرضها المحبوبة .

ويقول تيلور عن هذه الأسطورة « إنه لا توجد بالكاد أى فكرة مما تضمنته ليست واضحة ، كما لا توجد بها كلمة قد فقدت معناها بالنسبة لنا » . فهو يعنى بالطبع أن هذه الأسطورة تعد تفسيرًا حقيقيًا للظواهر الطبيعية برغم أنها قد تلبست بصيغة طفولية . وهى تُشكّل الطابع العقلانى الذى تناول به تيلور الأدب الشعبى ، وهو ما يعتمل فى جميع أنحاء نظريته الخاصة بالنزعة الأرواحية .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد أطلق تيلور على الاعتقاد فى الكائنات الروحية اسم الأرواحية Animism ، واعتبرها أقرب تعريف للدين . فالأرواحية عند تيلور هى فى الواقع النظرية الشاملة لأصل وتطور النظم الدينية فى كل مكان ، وقد عمل هذا الاعتقاد على إيضاح التفسير الذى يمكن أن يقدم فى إطار نظرية متطورة . والأرواحية تقوم على أساس فكرة بسيطة جدًا هى أنه حينما يحلم الناس بالليل ، وحينما يشاهدون الأشباح بالنهار ، وطالما أنهم يموتون ، فإن الاعتقاد فى الكائنات الروحية سوف يظل قائمًا . ولقد قسم تيلور الأرواحية لدى الشعوب البدائية إلى قسمين رئيسيين هما : فكرة الروح soul، والاعتقاد المنبثق عن هذه الفكرة وهو الاعتقاد فى وجود الأرواح الأخرى .

ويعتقد تيلور أن فكرة الروح عند الرجل البدائى فكرة فجة ، ولكنها استنباط معقول . فالبدائى شأنه شأن أى إنسان يجابه فى حياته اليومية الطبيعة المزدوجة للطبيعة . فعند الموت تختفى ظواهر معينة . من ذلك اختفاء التنفس والنبض والشعور والقدرة على الإتيان بالحركات الإرادية . فالجسد يبقى ولكن ذلك المركب الذى يجمع فى نطاقه تلك الظواهر التى تعرف بالحياة ينهار . فهو يذهب إلى غير رجعه . فالحياة أو الروح تكون إذن قد تركت الجسد .

أما الأحلام والأشباح فإنها توحى بالثانية أيضًا . فهنا تبدو الأشكال البشرية التى هى صور ذهنية للأفراد الذين قد يكونون قاطنين أماكن بعيدة ، بل ويكونون قد ماتوا بالفعل . فيستنتج الرجل البدائى من ذلك بذهنه أن ثمة نسخة شبحية لجسم ذلك الشخص قد تترك جسمه مؤقتًا أو دومًا . إذن فلها وجود مستقل عنه .

وتبعًا لتيلور فإن العقلية البدائية تقيم علاقة طبيعية بين هذه الخصائص المنفصلة عن الجسم ـ أعنى النسخة الشبحية والروح ـ

وتجمع بينهما سويًا فى روح قابلة للظهور ، أو بتعبير آخر روح عفريت . وروح العفريت هذه هى التى يفسر بها الموت والأحلام والرؤى والنوم وحالات الوقوع تحت تأثير المخدرات والمرض والغيبوبة ونحو ذلك ، أعنى الحالات التى تتعرض فيها أنشطة الحياة للأذى أو للإنحراف عن مسارها أو للفساد . فتلك الروح هى مفتاح علم النفس البيولوجى بأسره لدى الإنسان البدائى : يقول تيلور « إنها صورة بشرية غير مادية ، وهى من حيث طبيعتها نوع من البخار أو من المادة الرقيقة أو الخيال ، وهى سبب الحياة والفكر لدى المرء الذى يحيا فى إطاره ، وهى فى قوامها المستقل تشتمل على الشعور والإرادة الشخصيين كما هو الحال لدى الشخص المجسّم سواء على ما كان عليه فى الماضى أم كما هو حاله فى الحاضر ، وبمقدورها أن تغادر الجسم وتستقل وتظل حية بعيدًا عنه ، بل وبمقدورها أن تومض بسرعة خاطفة من مكان إلى مكان ، دون أن تكون محسوسة ، ودون أن تكون مرئية ، ولكنها تبدى أيضًا قوة محسوسة وبخاصة لدى ظهورها للناس وهم فى حال اليقظة أو وهم نائمين ، فتتمثل لهم أشباحًا منفصلة عن الجسم الذى تحمل شبهًا له ، وتظل موجودة وتظهر للناس بعد موت ذلك الشخص ، وهى تكون قادرة على أن تَلج أجساد الناس أو الحيوانات أو حتى الأشياء الأخرى فتستحوذ بذلك على الشخص أو الحيوان أو الشىء الذى تَلجه وتعمل بواسطته » .

والمرحلة التالية فى تطور الأرواحية هى الامتداد الطبيعى للأرواح والنسخ الشبحية إلى نطاق الحيوانات ، علمًا بأنه لا يوجد سوى فرق ضئيل فى ذهن البدائى بين الإنسان والحيوانات الأخرى . فالحيوانات تظهر فى الأحلام ، كما أنها تموت . ومن ثم فإن الروح الشبحية يمكن أن توجد بإزاء الحيوان والإنسان على السواء . ويقدم تيلور

www.dvd4arab.com

لدعم هذه النظرية الكثير من الأمثلة التى تتعلق بالأضحيات الحيوانية التى تقدّم على قبور الناس . فهذا يشير إلى أن الروح الشبحية للحيوان الذى يُضحى به سوف ترافق الروح الشبحية للشخص المدفون وتقوم على خدمته فى العالم الآخر كما كانت تفعل فى هذا العالم . فالكلاب مثلاً تدفن مع الأطفال فى بعض الحضارات البدائية لكى ترافقهم فى رحلتهم إلى أرض الأرواح . وكذا فإن الخيول تقاد إلى قبر المحارب وتقتل هناك ثم يُلقى بها فى القبر مع سيدها . ولقد وجد تيلور حالة من هذا النوع وقعت فى حوالى عام ١٧٨١ فى أوربا وأثبت أنها كانت وما تزال تمارس فى آسيا .

أما الامتداد التالى للروح الشبحية فهو الامتداد إلى نطاق الأشياء غير الحية . فالأشياء تظهر أيضًا فى الأحلام ، ومن ثم فلابد أن لها نسخًا شبحية . بيد أن تلك النسخ الشبحية تختلف عن النسخ الشبحية الخاصة بالحيوانات من حيث إنها لا تموت . بيد أن هذا الاعتبار لم يكن ليؤخذ فى الاعتبار على أساس أنه حيثما يظهر الشبح ، فيمكن إذن أن يُفترض وجود الروح . والشواهد على هذه الفكرة توجد فى الممارسة الشائعة بإزاء إرسال الأشياء مثل الأسلحة والأدوات والأوانى الفخارية ونحو ذلك إلى العالم الآخر من خلال مقبرة الرجل الميت حتى يتسنى له استخدامها فى الحياة الأخرى .

وهناك معتقدات عامة فيما يتعلق بوجود الأرواح الشبحية بعد الموت يمكن استخلاصها من هذه المراحل المبكرة للأرواحية على النحو التالى : (١) الاعتقاد بأن الأرواح الشبحية تحوم حول الأرض وأنها تكلف بالبيوت التى يقطنها الناس ، ولقد تقوم فى بعض الأحيان بزيارة بيوتهم التى كانوا يقطنونها قبل موتهم . (٢) الاعتقاد فى تناسخ

الأرواح ، أعنى تقمص الأرواح للناس الأحياء أو حتى تقمصها لبعض الحيوانات والنباتات والأشياء . (٣) فكرة وجود مقر خاص بالعالم الآخر مثل الجزر الغربية ، والعالم السفلى تحت الأرض ، والجبال والسماء . وهذا النوع من الاعتقاد يقع فى نطاق واحد من فئتين يسميهما تيلور « النظرية المستمرة » « والنظرية الجزائية » . ففى الأولى تكون الحياة مستمرة على النمط نفسه الذى سارت الحياة الأرضية وفقه . وفى الثانية فإن الأرواح الشبحية تكافأ أو تعاقب تبعًا للأفعال التى قدمها المرء فى الحياة الأرضية . ومن الطبيعى أن النظرية الثانية كان لها أثر خاص فى السلوك الاجتماعى لدى الناس الذين آمنوا بها .

والواقع أن الفكرة العامة للروح الشبحية البدائية التى تعيش فى دخيلة الناس والحيوانات والنباتات والأشياء ، إنما تودى بالطبع إلى الاعتقاد فى نوع آخر من أنواع الوجود الروحانى على مستوى أرفع . وهذه تسمى « أرواح الأسلاف » "manes" وهى أرواح كانت عادية فى أصلها ، ولكنها اكتسبت صفة خاصة ترتفع بها إلى مستوى الشياطين والآلهة . وهذا التطور انتهى إلى واحد من الفروع العظيمة للدين يطلق عليه تيلور اسم « عبادة أرواح الأسلاف » "Manes"-Worship .

أما أرواح الأسلاف فهى أرواح أشخاص كانوا فى حياتهم على الأرض يحتلون مركز السلطة الذى يحظى بالاحترام من جانب المتعبد . وهذا الشخص يكون فى الغالب أحد الوالدين ، ومن ثم فإن عبادة السلف قد صارت شكلاً شائعًا من أشكال عبادة أرواح الأسلاف Manes-worship . ولكن تلك العبادة قد تقتصر على روح رئيس القبيلة أو بطل القبيلة أو أى شخص آخر من الأولياء . ولقد تكون

Looloo
www.dvd4arab.com

القوة التى حازها ذلك الشخص قوة خير أو قوة شر ، وبذا فإن الشخص إما أن يصير إلها وإما أن يصير شيطانًا .

وفيما يتعلق بعبادة أرواح الأسلاف ، فإن تيلور يقول « ليس من الصعوبة بمكان أن نقف على المبادئ التى تقوم عليها هذه العبادة وذلك لأنها ببساطة تحافظ على العلاقات الاجتماعية فى عالم الأحياء . فالسلف المائت يستحيل إلى معبود ، فهو ببساطة يستمر فى الحفاظ على أسرته بينما يتلقى منهم التوسلات والتقدمات . فالرئيس الذى مات يظل يرعى قبيلته ، بل ويظل ممسكًا بزمام سلطته وذلك بقيامه بمساعدة الأصدقاء وإيقاع الضرر على الأعداء ، كما يظل يجازى المستقيمين ، بينما يوقع العقوبات الصارمة على المخطئين » .

والواقع أن عبادة الأسلاف تحتل مكانة هامة بصفة خاصة فى نظر تيلور بصدد تفسير الأرواحية ، وذلك لأنه اعتبرها فى مركز وسط بين مراتب العالم الروحانى ، إذ أنها تقع فيما بين الأرواح العادية وبين الشياطين والآلهة الذين يرتفعون عن المستوى البشرى . ولقد كانت تلك العبادة تمثل فى نظر تيلور شاهدًا على تصييغ الأرواح السامية على مثال أرواح البشر . وهو يذكر التقرب إلى القديسين فى بعض الديانات الحديثة باعتبارها مثالاً واضحًا لعبادة الأسلاف باعتبار أنها عبادة الرجال والنساء المائتين الذين يشكلون طبقة من الآلهة الأقل مرتبة .

وثمة ملمح آخر هام فى تطور الدين البدائى هو الفكرة العامة عن تجسُّد embodiment الأرواح . فحيث إن الروح قد تحيا بداخل الجسم أو خارجه ، كذا فإن الأرواح يمكن أن تكون حرة فى أن تعتمل فى دخيلة الأشياء أو أن تكون خارجها ، سواء كانت تلك الأشياء حية أم غيرحية . ولقد حققت هذه الفكرة هدفين هامين فى الأرواحية السفلى .

فهى كنظرية تتعلق « بالتلبس بالشياطين » ، تلقى الضوء على جميع أشكال المرض الذى قد يصيب الإنسان ، وعلى جميع الاضطرابات التى قد تلحق به . ويقدم تيلور تقريرًا حيًا بصفة خاصة عن هذه الظواهر بقوله :

« فكما هو الحال فى الظروف العادية ، يعتقد أن روح الإنسان التى تقطن جسده ، تهبه الحياة ، وتوفر له القدرة على التفكير والكلام والعمل من خلالها . وبذا فإن تطبيق هذا المبدأ ، يلقى الضوء على الحالات غير السوية التى يتعرض لها الجسم والعقل ، وذلك بأن تفسر الظواهر الجديدة بأنها اعتمال كائن حى آخر شبيه بالروح أو هو روح غريبة . فالشخص الملبوس يهتز ويتشنج محمومًا ومتألمًا ومتلويًا كما لو أن كائنًا كائنًا حيًا ما يقوم بتمزيقه وليّه من الداخل وتعذيبه ، وكما لو أنه يقوم بابتلاع حيويته يومًا بعد يوم . والمريض يفسر ما يحس به من آلام بوجود كائن روحانى بداخله . فهو فى أحلامه البشعة قد يشاهد فى بعض الأحيان العفريت أو الشيطان الذى سيطر عليه وهو يهاجمه . وهذا يحدث بصفة خاصة عندما تعمد تلك القوة السرية غير المرئية بالإلقاء به إلى الأرض وتحيله بلا حول ولا قوة ، فيرتج ويتلوى فى تشنجات عنيفة ، ثم يهاجم الناس من حوله بقوة جبارة ووحشية لا تبقى ولا تذر ، وتجبره ـ وقد تلبّس بملامح وجه غريبة وبتصرفات جنونية وبصوت مباين تمامًا لصوته الذى لا يبدو أنه صوت بشرى ـ على أن يندفع بضراوة غير متسقة ، أو بفكر وبفصاحة ليست معهودة منه ، وليست فى مستوى مواهبه بإزاء ما يأمر أو يشير به أو يتنبأ بحدوثه . فشخص كهذا يبدو غريبًا فى رأى

www.dvd4arab.com

المشاهدين له ، بل وحتى بالنسبة لنفسه . فهو يصير مجرد أداة لروح لبسته ودخلت فى قوامه . فهو يكون تحت سيطرة تلك الروح التى أخذت بجماع شخصيته . وهذا هو اعتقاد المريض نفسه . فهو يتخيل أن لها اسمًا خاصًا بها يستطيع أن يعلن عنه عندما يكون متحدثًا بصوتها وبشخصيتها من خلال أجهزته الصوتية . وفى النهاية فإن تلك الروح تتركه منهوك القوى ومحطم الجسم ، وتغادره كما دخلت فيه » .

أما ممارسة التعاويذ فإنها بزغت إلى الوجود كوسيلة علاجية فى مواجهة الأرواح الشيطانية التى تغزو شخصية الإنسان . فالممارس للتعاويذ يقوم بإبعاد الروح الشريرة إما بتملقها ، وإما بتقديم الرشوة إليها ، وإما بتهديدها أو بإقناعها بأن تتحول إلى مقر آخر تختاره لنفسها ، أو يسوقها هو إلى ذلك المقر الذى يختاره لها .

وثمة تطبيق آخر هام لفكرة التجسيد يرتبط « بنظرية التلبس "possession Theory" يعرف بالفتيشية fetishism . فكما أن البدائى يعمد إلى « وضع » روح شيطانية فى أحد الأجسام الغريبة ، فإنه على النحو نفسه قد يستعين بإحدى الأرواح لجلب الفائدة . فهذه الروح المفيدة قد تحل فى شىء ما لتصد الأعداء ، ولتقى المرء من الإصابة بالمرض ، أو لقد يقام نُصُب للروح كإله يتمثل فى شىء مادى لاسترضائه وعبادته .

والفتيشية تستحيل إلى وثن عندما يتغير شكلها بطريقة مادية معينة بواسطة المتعبد لكى تتحدد وظيفته الخاصة كمكان لإقامة الروح . فيكفى أن تُعمل بعض الخدوش على قليل من الطلاء لكى يتشكل الوثن ، أو أن تعمل تغييرات دقيقة حتى يتسنى رسم صورة محددة ، تتمثل

فى تمثال أو صورة . والشىء المهم هو أن الوثن يتخذ « شخصية » أو روحًا لا تتوافر فى الفيتيش البحت . ففى رأى تيلور أن من الضرورى ارتباط الوثن بخصائص البورترية (رسم الوجه) بغض النظر عن مدى إتقانه ، وبغض النظر عن خصائص الفيتيش . فالرابطة فيما بين الأرواح والأرواح الأخرى ـ أعنى العامل الحاسم فى نظرية تيلور ـ قد تأيدت أكثر فأكثر بهذه النظرة إلى الوثنية : أى تجسد الروح والطيف فى وثن ، كالشأن بالنسبة لتجسدهما فى الأجساد البشرية فى بعض الظروف على الأقل .

وتقع المرحلة التالية من الأرواحية عندما يترسم العقل البدائى التماثل فيما بين السلوك الإنسانى وسلوك الطبيعة ككل . فكما أن الجسم البشرى يعمل بواسطة روح الشبح التى تقطنه ، كذا يبدو أن الطبيعة تُقْطن بشكل عام بواسطة عامل مماثل . وهكذا فإن الأرواحية التى بدأت كفلسفة للحياة البشرية ، تصير فلسفة شاملة للطبيعة بأسرها . « فعلل » "causes" جميع الظواهر الطبيعية إنما هى أرواح الطبيعة . فهى التى تحمل الريح على أن تهب ، والسماء لكى تمطر ، والأنهار لكى تتحرك ، والبراكين لكى تثور .

والأرجح أن فكرة أرواح الطبيعة قد صارت معممة بدءًا على الأرجح من الأرواح الخاصة جدا بأحداث بالذات ، ومن ثم فقد نشأت أنواع متباينة من الآلهة : أعنى آلهة الغابات والسماء والأرض والماء والشمس والقمر . وبعد ذلك بزغت إلى الوجود أنواع من الآلهة غير المرئيين مثل آلهة الزراعة والحرب والسلام والخير والشر . وهذه هى المرحلة العظيمة للإيمان بعدة آلهة polythcism .

Looloo
www.dvd4arab.com

وأخيرًا بزغ مفهوم الإله الأعلى Supreme Deity . ففوق الأرواح وأرواح الأسلاف وأرواح الطبيعة والأنواع المختلفة من الآلهة التى تتباين من حيث الطبقة ومن حيث العناصر ، فإن إلهًا واحدًا يرتفع إلى قمة الألوهية . ولقد انبثقت الوحدانية monotheism — وهى الاعتقاد العميق لدى الشعوب المتحضرة — من قوام الماضى البدائى . فتيلور يقول إذن بنظرية تطورية يمكن أن تفسر الوحدانية وتاريخ الديانة بأكمله .

يقول لووى عن تيلور إنه استخدم المناهج الإحصائية للاحتمالات التى تتضمنها المعلومات العرقية . فمنهجه قد استهدف اكتشاف العلاقات السببية إذا كانت هناك بالفعل علاقات من هذا القبيل فيما بين السمات الحضارية . فإذا ما تسنى اكتشاف تلك العلاقات ، فيكون من الممكن إذن القول بأن استنباطات السببية الحضارية يمكن أن تكتشف بإزاء الإنسانية جمعاء .

فتيلور كان مهتمًا بالقوانين الحضارية للزواج على سبيل المثال والسلالة ، وحصل على معلومات كثيرة بإزاء التقاليد الاجتماعية التى تغطى ثلاثمائة أمة ، ابتداء من « القبائل البدائية » وانتهاء إلى « الشعوب المتحضرة » . لقد وضعت جميع التقاليد التى ارتبطت بهذا الموضوع فى قوائم وتم تصنيفها . وباستقراء تلك القوائم ، يصير بمقدور الدارس أن يحدد بسهولة التقاليد التى كانت متواكبة مع غيرها مثل تسمية الأطفال بذكر اسم الأب بعد اسم الطفل ومسقط رأس الأم .

★ ★ ★

الفصل السابع عشر

جيمس فريزر James Frazer

لم يكن فريزر صاحب دراسة ميدانية . فليس من المبالغة أن نقول إنه لم تقع عيناه على « بدائى » واحد طوال حياته ، بل إنه اعتمد فى دراسته اعتمادًا تامًا على التقارير الميدانية التى قام بكتابتها باحثون آخرون ، وعلى ما قام الرحالة بتسجيله . وشأنه فى هذا الصدد كشأن تيلور Tylor . ناهيك عن اعتماده على ما حظى به من معرفة واسعة بالكتابات الكلاسيكية العميقة ، فلقد كان مُلمًا بلغات كثيرة منها : اليونانية واللاتينية والفرنسية والألمانية والأسبانية والإيطالية والهولندية ، وبذا فإنه كان خليقًا بأن يقف على الكثير من المعلومات فى لغاتها الأصلية . وقبل حصوله على أول مؤهل علمى من كامبردج ، كان قد اطّلع على كتابات أفلاطون فى اللغة اليونانية الأصلية . وكان يقضى فيما بين اثنى عشرة ساعة وخمس عشرة ساعة متصلة فى القراءة كل يوم ، كما كان يقوم فى أثناء ذلك بتدوين النصوص التى كان يشتم أنها سوف تساعده ، ثم يقوم بتبييضها بعد ذلك فى كراسات خصصها لذلك . وبهذه الطريقة فإنه جمع كمية هائلة من المادة قام بدرّج معظمها فيما قام بنشره من كتابات ، فاشتملت أعماله على صفحات كثيرة تعرض للأوصاف التفصيلية المستمدة من تلك النصوص التى اقتبسها . وهذا كان المنهج الذى اتصفت به أعمال كل من سبنسر وتيلور .

والواقع أن فريزر لم يستخدم أى معيار لتقييم الشواهد المتعلقة بالمادة الميدانية التى استمدها من المراجع مثلما فعل تيلور ، بل اعتمد

Looloo
www.dvd4arab.com

على ما كان يحس به من ثقة كان يوليها لمن كان ينقل عنهم فنشر بحوثًا حول المسائل المتعلقة بالتقاليد والعادات والديانات والخرافات وغير ذلك من جوانب ثقافية لدى الشعوب غير المتحضرة أو لدى الشعوب التى اكتسبت قدرًا متوسطًا من التحضر . وكان فريزر يهدف من تلك الكتابات معاونة الباحثين الميدانيين والرحالة على استخلاص المعلومات المفيدة من المجتمعات البدائية التى يتوجهون إليها ، ويحتكون بها لكى يقدموا إليه التقارير عنها فيقوم بجمعها والتنسيق فيما بينها . وكنتيجة لذلك فإن تلك التقارير قد مكنته من تلقى مراسلات عديدة وضخمة ومنتظمة من الباحثين عبر العالم بأسره وكان جل اهتمامه موجهًا إلى التقارير المباشرة التى كان أصحابها على صلة حميمة بالواقع ، أكثر من اهتمامه بالأفكار والآراء الشخصية المتعلقة بالثقافات البدائية .

وهكذا نلاحظ أن فريزر لم يكن مُوَجِّهًا اهتمامًا يذكر إلى النظريات المستخلصة من الوقائع بما فى ذلك نظرياته التى توصل إليها هو شخصيًا . فهو يقول فى مقدمة الطبعة الثالثة للغصن الذهبى The Golden Bough : « ... لقد كان من المُقدّر على جميع النظريات أن تتلاشى ... ولست أومل أو أرغب فى أن تكون نظرياتى مستثناة من ذلك القدر المحتوم على النظريات . فأنا لا أعوّل عليها كثيرًا ولا أقيم لها وزنًا ذا بال ، ولكنى استخدمتها بصفة أساسية كشماعات أعلّق عليها ما قمت بجمعه من وقائع » أما مالينوفسكى فإنه يقرر أن فريزر لم يكن شغوفًا بأن يُضفى على عالمه الحى حقائق جديدة ، كما كان يأبى القيام بإجراء أى جراحة لهذا العالم الحى بممارسة النقد النظرى بصدده . ولقد اعتقد مالينوفسكى أن ميدان البحوث فى هذا المضمار قد ظل أسيرًا لما انتحى إليه فريزر لحوالى خمسين عامًا .

وليس من شك فى أن أخطر التعميمات التى استخلصها فريزر من الأكوام الضخمة من الوثائق التى قام بجمعها ، كان ذلك التماثل الرئيسى فى أوجه النشاط العقلى لدى الشعوب الأقل تطورًا ، وهو ما يناظر التشابه الرئيسى فيما بينها من حيث شكل الجسم وتشريحه . ويعزو فريزر بعض أوجه التشابه فيما بين ديانات الشرق والغرب إلى أسباب متماثلة تعتمل فى خط متواز مع تركيب العقل البشرى بالأقطار المتباينة برغم اختلاف لون البشرة . والواقع أن انتحاء فريزر إلى « الوحْدة السيكولوجية » قد جعله سائرًا على الدرْب نفسه الذى انتحت إليه المدرسة المقارنة عند التطوريين ، بل إنه صار واحدًا من أكبر دُعَاتها . ويتضح اتفاقه مع تيلور فى قوله ، « إن البحوث الحديثة المتعلقة بالتاريخ القديم للإنسان - وهى البحوث التى اتسمت بالاتجاهات المتباينة - قد اتفقت جميعًا على أن جميع الأجناس المتحضرة قد تطورت من مرحلة أو مرحلة أخرى بدءًا من حالة بدائية مشابهة إلى حد بعيد للحالة التى ما تزال الشعوب المتخلفة مُتلحّفة بها حتى الوقت الحاضر . وعلى الرغم من مرور الأحقاب الكثيرة والطويلة ، وتَرك معظم الناس فى أى مجتمع متحضر ما كان الأسلاف ينهجون وفْقه ، فلا تزال تعتمل كرواسب متبقية من أنماط الحياة والفكر القديمة الفجّة فى عادات ومؤسسات الشعوب المتحضرة . وشأن فريزر كشأن تيلور من حيث إنه لم يكن مستعْبدًا لفكرة استقلال أصول السمات الثقافية ، وقد وافق على إمكان اختلاط تلك الأصول وتفاعلها بعضها ببعض . والخلاصة أن فريزر قد أقام نظرياته على أساس مادة سيكولوجة أكثر من اعتماده على المادة التاريخية ، وظل منحازًا لمبدأ التطور الحتمى حتى النهاية .

Looloo
www.dvd4arab.com

على أن فريزر لم يكن تابعًا بأى حال تبعية عمْياء لتيلور . ولا شك أن انحرافه الذى تجدر الإشارة إليه عما ذهب إليه تيلور ، كان إنكاره لعقلانية الإنسان البدائى التى تعد من الأفكار الرئيسية عند تيلور . يقول فريزر بهذا الصدد : إن الإنسان البدائى ينظر إلى العالم من زاوية مختلفة اختلافًا جذريًا عن الزاوية التى ننظر نحن منها إليه ، فما يبدو لنا بسيطًا وواضحًا ، لا يبدو كذلك بالتأكيد بالنسبة له ، والعكس أيضًا صحيح . فما يبدو بسيطًا وواضحًا فى نظره يكون بعيدًا عن طرائق تفكيرنا تمامًا ، ولم يكن ليجول بخاطرنا بحال .وتبعًا لهذا فإن أية تفسيرات لأصل الديانة أو المجتمع تبدو لنا متّفقة مع العقل والمنطق الذهنى ، يجب أن ينظر إليها بارتياب . فتصور فريزر للإنسان البدائى كان مُختلفًا إلى حد بعيد عن التصور المتعلق « بالفيلسوف البدائى » عند تيلور . ذلك أن الخرافة كانت لديه هى القوة الموجّهة للإنسان البدائى .

وأهم بحثين قام بهما فريزر هما « الغصن الذهبى » و الطوطمية والزواج من الأباعد "Totemism and Exogamy" والكتاب الأول أكثر شهرة من الكتاب الثانى . ولقد وصفه مالينوفسكى بأنه « ربما يكون أعظم مرجع علمى فى الكتابات الحديثة المتعلقة بالإنسان » ونعته ماريت Marett بأنه « الكنز الذهبى لقصص الصغار الذين شبوا عن الطوق ، وأن الغصن الذهبى قد صار من الموضوعات التى يُشْغف بها كل تلميذ » .

وحيث إن فريزر لم يكن كَلفًا إلى حد بعيد بوضع النظريات العلمية ، فإن الكثير من نظرياته المتعلقة بأسطورة الغصن الذهبى قد قُدّمت بشكل سطحى ، مما يحمل المرء على الإحساس بأنه لم يكن يعبأ بما إذا كان لما يسوقه من قصص رصيدٌ من الواقع أم لا . بيد أن التوجه

النظرى العام لديه يشير إلى أنه كان بالتأكيد ذا نزعة تطورية ، وأنه كان مؤمنًا بالمنهج المقارن بعمق . فلقد آمن بما انتهى إليه المنهج التطورى من حيث إنه نظرية وطريقة ، باستثناء القليل من التحفظات التى أبداها . ولكن على الرغم من هذا فإنه لم يُجْهد نفسه بتحديد موقفه النظرى أو المنهجى بشكل حاسم .

وبمناسبة ظهور الطبعة الثالثة للغصن الذهبى ، فإن فريزر ذكر أن تقديمه للأسطورة التى تضمنها كتابه ، إنما كان مجرد وسيلة درامية يقدّم عن طريقها جميع المعلومات التى قام بجمعها حول الفكر والثقافة عند البدائيين . وهو يقول فى هذه الطبعة الثالثة عن كاهن نيمى Nemi – وهو الشخصية الرئيسية فى الأسطورة – إنه كان مجرد رمز ، وذلك بما كان يرتديه من ملابس ، وبشخصيته الجذابة ، وبمشيته الاستعراضية على المسرح ، وقد حان الوقت لنزع القناع عن وجهه ، ومع هذا فقد صار من المستحيل تقديم الأفكار الواردة فى الغصن الذهبى خارج نطاق الإطار الذى قدمت به تلك الأسطورة .

ووفقًا لما ذهب إليه فريزر فى الغصن الذهبى ، فإن السحر يعتبر نوعًا من العلم الزائف ، وأيضًا من الفن الزائف ، وكان الإنسان البدائى يحاول التحكم بواسطته فى الطبيعة . والسحر يقوم على أساس وقوف المرء على ما تتصف به الطبيعة من اتساق يحتل مكان الصدارة فيها . وهذا الاتساق الموجود بالطبيعة ، يُعْزى إلى ذلك الارتباط الحتمى القائم فيما بين الأسباب والنتائج . ولقد أطلق فريزر على هذا المبدأ الخاص بالسحر اسم « قانون التماثل » "Law of Similarity" . أما المبدأ الآخر للسحر الذى يعتمد عليه الإنسان البدائى فهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم « قانون الإرتباط أو الملامسة » Law of contact Or Contagion وهو ينبنى على فكرة مؤداها أن الأشياء التى سبق أن تلامست بعضها ببعض ، سوف يستمر التأثير مستمرًا

Loofoo
www.dvd4arab.com

فيما بينها حتى وهى بعيدة بعضها عن بعض . ولقد ضمّن فريزر هذين المبدأين للسحر تحت عنوان السحر الانعطافى "Sympathetic Magic" وذلك لأنهما يقرران أن الأشياء تؤثر بعضها فى بعض برغم وجود مسافة فيما بينها ، وذلك من خلال انعطاف سرى "secret sympathy" ينتقل من خلال وسط غير مرئى بوساطة دافع ما . والواقع أن جميع الطقوس السحرية ، لا تعدو أن تكون مجرد تطبيقات لهذين المبدأين السحريين . فالإنسان البدائى يعتقد أن قواعد فنه السحرى (التى تتبنى على أساس مبدأ الترابط فيما بين أفكاره) تتطابق تمام التطابق مع قوانين الطبيعة ، وأن أداءه لعمل ما، سوف يؤدى إلى إحداث ما يرتبط به من وقائع فى الطبيعة . وعلى هذا فإنه يعتقد أنه يستطيع أن يقضى على حياة شخص ما ، أو أن يصيبه بأذى ، إذا ما قام برسم صورة له ثم يعمل على إفسادها أو تشويه ملامحها المشابهة لملامح ذلك الشخص الذى يرغب فى إيذائه.

والواقع أن جميع الحفلات والطقوس والتعاويذ السحرية تقوم على أساس ما تذهب إليه مبادئ السحر الانعطافى . فالساحر إذا ما استخدم الصيغة المحدّدة للسحر ، فإنه يكون بذلك قد صار مسيطرًا على الطبيعة . فهو لا يتضرع إلى قوة عليا ، كما أنه لا يلتمس إسداء معروف إليه من قبل كائن متقلب المزاج وصعب المراس ، كما أنه لا يستذل نفسه أمام أى معبود يخشى من بأسه ، بل يكون هو المسيطر على الموقف ؛ لأنه يتذرع بقوة سحرية يتحكم بوساطتها فى العالم ، ولكن لابد من الإلتزام التزامًا دقيقًا بقواعد اللعبة ، وعدم الوقوع فى أى خطأ أيًا كان . ذلك أن نظام الطبيعة يجب أن يُتّبع بدقة .

وكان لممارسة السحر فى الثقافات البدائية نتائج اجتماعية مهمة . بالتأكيد . فكفة القوة الاجتماعية لابد أن تخرج فى نهاية المطاف من

قبضة المجموع وتوكل إلى شخص واحد ممثّلاً فى ساحر القبيلة ثم فى الملك . وهنا نجد أن فريزر قد اعتقد فى تطور الهيمنة الاجتماعية والمطالب الفردية مع تطور الإنسان ، ونذكر أن تيلور قال : إن التغير كان مفيدًا جدًا بوجه عام . ذلك أن ظهور الملكية كان شرطًا جوهريًا لخروج الإنسان من إطار الحالة الهمجية . والواقع أن الخير المتأتى عن هذا كان مختلطًا بالشر ، ولكن هذا كان وضعًا اجتماعيًا ضروريًا . وكانت النتيجة العامة لهذه المرحلة من التطور الاجتماعى ، متمثلة فى استئثار رجال حاصلين على أعلى مستوى من الذكاء وأكثرهم بُعْدًا عن التمسك بالمبادئ الأخلاقية بالقوة العظمى . ولكن إذا نحن استطعنا أن نوازن فيما بين الضرر الذى كانوا يتسببون فيه باحتيالهم ودهائهم ، وبين الفوائد التى كانوا يُضفونها على الناس من حولهم بما لديهم من حكمة عظيمة ، فإننا نجد أن الخير الذى كان يتأتى عنهم كان أعظم بكثير من الشر الذى كانوا يتسببون فى إحداثه . وليس من المستغرب أن نقول إن النوائب التى ابتلى بها العالم بوساطة الحمقى الشرفاء ، تزيد بكثير عن تلك النوائب التى تصدر عن تصرفات الأوغاد الأذكياء .

والواقع أن الدين ينبنى فى رأى فريزر على فكرة مختلفة تمامًا ، بل ومتعارضة مع الفكرة التى ينبنى عليها السحر . فهو يقول : إن الدين عند البدائى عبارة عن استعطاف أو استرضاء لقوى معينة تعلو عن مستوى القوة البشرية ، وهو يعتقد أن هذه القوى هى التى تقوم بتوجيه المنحى الذى تتخذه الطبيعة بل والحياة البشرية وتتحكم فيه . ومن هذا المنظور الدينى ، فلا وجود للمفهوم العلمى لاتساق الطبيعة وانتظامها . وعلى العكس من هذا ؛ فإن القوى المهيمنة والضابطة يمكن أن تُسترحم وتُستعطف وتُستمال ، بل ويُقدم إليها الرشاوى أو تُكره

Looloo
www.dvd4arab.com

بالتهديد ؛ لكى تعمل على تغيير مجرى الأحداث الطبيعية والبشرية . وتبعًا لفريزر فإن الدين لا يمكن أن يبزغ إلى الوجود إلا بعد أن يكون الإنسان قد تقدم فى تطوره ووصل إلى مستوى رفيع من الذكاء بحيث يتسنى له أن يدرك عجزه عن التصرف . وهكذا فإن الدين لا بد أن يتلو السحر فى سياق التطور البشرى .

وحالما تكون فكرة القوى العليا التى تفوق مستوى قدرة الإنسان قد بزغت إلى الوجود فى نطاق الدين ، عندئذ يبزغ القادة الروحيون أو الملوك الذين كان يُضفى عليهم الناس تلك القوى الإلهية . وكانت تلك القوى تتطابق فى الغالب مع قوى الطبيعة كالماء والخصوبة ، أو كانت تتطابق مع الأشياء الطبيعية كالشمس والقمر والغابة . وتبعًا لفريزر فإن الكاهن الملك Prist-King فى نيمى Nemi ، والإلهة ديانا Diana ، كانا إلهين من آلهة الطبيعة من هذا النوع . فهما كملك وكملكة للغابة ، كانا مسئولين عن رفاهية الشعب ، كما كان اتحادهما ضروريًا بصفة خاصة لخصوبة الأرض والحيوان والإنسان .

وحيث إن المتقربين من الكاهن الملك يكونون فى حماه لأنه يشكل الحصن المنيع لهم ، فإنهم لذلك يحافظون عليه بكل ما فى وُسعهم ، ويأخذون حذرهم من أن يصاب بأى أذى ، فيحرصون على سلامته ، وعلى تمتُّعه بموفور الصحة . وتتبدى الاحتياطات التى يتخذونها بشكل واضح فيما يستعينون به من تابوهات Taboos أو محظورات قام فريزر بعرضها بالتفصيل فى الجزء الثانى من كتابه « الغصن الذهبى » .

والواقع أن الموضوع الرئيسى للتابوهات التى حُدّدت للحفاظ على حياة الملك الإلهى ، هى تلك التى يجب أن تتبنى على أساس مفهوم مُحدّد للحياة والموت . وهنا نجد أن فريزر يقفو إثر خطوات تيلور

فيصوّر الروح أو المانيكين Mannikin باعتبارها مبدأ الحياة لدى الإنسان البدائى . فهذا المانيكين أو الروح عند فريزر ذات طبيعة رقيقة وغير مجسّمة ، على الرغم من أنها ليست ذات طبيعة مجردة غير محسوسة . وبمقدور الروح أن تقوم بتعديل هيئة الشىء الطبيعى أو تغييرها وذلك بدخولها فيه ، كما أن بمقدورها أن تنتقل بسرعة من مكان إلى مكان آخر ، وهى تغيب عن جسد المرء فى أثناء نومه ، أو فى أثناء سرحانه ومرضه ، بينما تهجره تمامًا بعد موته . والتابوهات التى تعمل على الحفاظ على حياة الإنسان الإلهى god-man أو على روحه ، تعمل أيضًا على الحفاظ بفاعلية على حياة الإنسان العادى . ولكن بالنسبة للإنسان العادى فإن مسألة مراعاة التابوهات تترك لاختياره ، أما بالنسبة للإنسان الإله ، فقد كانت تفرض عليه فرضًا وإلا تعرّض للعزل أو حتى للقتل . ويعتمد المجتمع البدائى بأسره على استمرار الإنسان الإله متمتعًا بصحة جيدة ، وأن يظل على قيد الحياة ، ومن ثمّ فإن ذلك يحمله على أن يجتهد بكل وسيلة ممكنة لتأجيل تدهور صحته وموته .

ويبدو من النظرة الأولى أن الاهتمام الشديد بالمحافظة على حياة الكاهن الملك فى نيمى يتعارض مع قيام خليفة الملك بقتله . ولكن فريزر فى الجزء الثالث من « الغصن الذهبى » تحت عنوان « الإله المائت The Dying God » يكشف النقاب عن عدم التناقض بين هذين الإجراءين .

لقد اكتسف فريزر من دراسته للمجتمعات البدائية أنه فى كثير من الحالات ، يُدفع بالملك إلى الموت أو ينهون حياته باتباع تقاليد محددة . وهذا يحدث عادة عندما ينخرط الملك فى الشيخوخة ويبدأ فى فقد قواه . وثمة مظهر شائع لانهيار الملك يتبدى فى ذبول قوته الجنسية . فهم

Looloo
www.dvd4arab.com

يعتقدون أن رفاهيتهم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقوة الملك بوساطة الانعطاف "Sympathy" المتمثل بصفة خاصة فى نشاطه الجنسى . فما يصاب به من ضعف جنسى يؤثر فيهم جميعًا . فالماشية تتعرض للمرض ولا تتوالد . أما المحاصيل فإنها تخبو وتقل ، كما أن الناس يتعرضون للهلاك من الجوع والمرض . ولكن إذا ما ذبح الملك فى الوقت المناسب قبل أن يبدأ فى الذبول الجسمى ، فإن روحه يمكن أن تتحرر فى الوقت الذى تكون فيه متمتعة بأعظم قوة لها ، ويمكنها بالتالى أن تهبط إلى من يخلفه أو تنتقل إليه .

ويشتمل الجزء الرابع من « الغصن الذهبى » على أدونيس Adonis وأتيس Attis وأوزيريس Osiris . وفى هذا الجزء يحاول فريزر أن يتتبع تطور محاولة الإنسان لفهم الطبيعة والتحكم فيها ، وذلك من خلال السحر أولاً ، ثم بعد ذلك من خلال عبادة الآلهة والإلهات الذين كان يعتقد أنهم يرتبطون ارتباطاً حميمًا بقوى الطبيعة . ولقد كان الاهتمام بازدهار النباتات وتتابع الفصول مفتاح معظم العبادات ، إذ كان ينظر إلى أدونيس وأتيس واوزيريس باعتبارهم الآلهة العظيمة المسئولة عن مدّ الوجود البشرى بالحيوية والنمو . فموتهم ثم قيامتهم مرتبطين ارتباطاً وثيقًا بتغير الفصول وبنمو النباتات وموتها مع التحول من فصل إلى فصل آخر .

أما فى القسم الخامس من « الغصن الذهبى » ــ وهو الخاص بأرواح الزرع والحيوانات والوحوش ــ فإن فريزر تتبع فيه موت الآلهة وقيامتهم فى ارتباطها بأوجه تطور النماء فى الديانات الأخرى لدى الشعوب المتباينة . ولقد صار يؤكد على التشابه القائم فيما بين التقاليد بين الشرق والغرب ، وهو التشابه الذى عزاه إلى تشابه الأسباب التى أثّرت فى نشأة التكوين المتشابه للعقل البشرى .

أما القسم السادس وهو بعنوان المُحْرقة أو كبش الفداء The Scapegoat ، فإنه يُعتبر تكملة للقسم الخاص بالإله المائت The Dying God ، وهو يعزو ظاهرة المُحْرقة أو كبش الفداء إلى الاعتقاد القديم الذى يذهب إلى أن الأرواح الشريرة يمكن أن تنتقل من جسم الشخص الملبوس بها ، إلى أشياء أخرى ، سواء كانت حية أم ليس بها حياة . وهذا فى الواقع هو ما أشار إليه تيلور فى نظرية التجسد Embodiment . ولقد رأى فريزر أن من الممكن التوسُّع بهذه الفكرة فى ضوء اعتقاد الشعوب البدائية فى أن الشرور الخاصة بمجتمع ما بأسرة يمكن أن تنتقل إلى أحد الأفراد . ولكن إذا ما قُدّم ذلك الشخص الشرير أضحية ؛ فإن ذلك سوف يخلصه . ويرى فريزر أن من الممكن اعتبار « الإله المائت » محققًا لهذا الهدف كما يكون فى الوقت نفسه محققًا لهدف الحفاظ على قدراته الإيجابية من خلال إطلاق روحه من الأسر .

والواقع أن فريزر استخدم « الغصن الذهبى » كمسرح يستعرض عليه تطور الفكر البشرى والتقاليد الشائعة . واتضح فى ذلك التطور ، ما ينشأ من سحر ودين وعلم خلال التغير التدريجى عبر العصور المتعاقبة . وهو يقول : إن العلم إنما هو عودة إلى المرحلة السحرية ، ولكنه مدعّم فى وقتنا هذا بالمقدمات العلمية والتقنيات السليمة .

أما بالنسبة للفوائد الحالية والمُقْبلة للعلم الذى يتذرع به الإنسان المتحضر ، فإن فريزر يبدو غير حاسم بإزائه فى الواقع . فهو فى أحد المواضع يقول : « إننا نؤمل كثيرًا فى إحراز تقدم خلقى وعقلى بل ومادى فى المستقبل . وكل عقبة توضع فى طريق الاكتشافات العلمية ، تعتبر خطأ فى حق الإنسانية » . ولكنه يؤكد فى موضع آخر على ما يتعرض له الإنسان من انهيار مطّرد الزيادة ، كما يؤكد

Looloo
www.dvd4arab.com

عجزه عن عمل أى شىء يخلّصه من ذلك الدمار . وأكثر من هذا فإنه فى مواضع أخرى يبرهن بمرارة على إفلاس الدين الذى نشأ فى أحضان فلسفة ترنو إلى تجريد شخصية الإنسان من طبيعتها .

ولقد قام فريزر أيضًا فى أربعة مجلدات ضخمة بتوجيه الانتباه إلى المؤسسات الطوطمية والزواج من الأباعد Exogaamy . والطوطمية هى نظام خاص بالقرابة يقوم على أساس الاتحاد بنمط معين من الأشياء الطبيعية أو الصناعية ، وهو يكون فى العادة نباتًا أو حيوانًا . أما الزواج من الأباعد فهو تزكية اجتماعية للزواج بشخص خارج نطاق المجموعة .

وقبل قيام فريزر بنشر كتابه « الطوطمية والزواج من الأباعد » فى عام ١٩١٠ ، فإنه كان يعتبر أن الطوطمية ذات صلة حميمة بالزواج من الأباعد . ولكنه نبذ هذه الفكرة فى عمله هذا ، وقرر أنه على الرغم من أنهما يحدثان غالبًا جنبًا لجنب ، فإن لكل منهما أصلاً مستقلاً . على أن تأكيده قد كان بإزاء الحالات التى يتبديان فيها معًا بغض النظر عن أصل كل منهما الذى صدر عنه .

ويُعرّف فريزر الطوطمية بأنها « علاقة حميمة يُفترض أنها توجد فيما بين مجموعة من الناس من ذوى القربى من جهة ، كما أنها علاقة حميمة مع نوع من الأشياء الطبيعية أو الصناعية من جهة أخرى . ويطلق على تلك الأشياء اسم الطوطمات Totems ، وهى تلك الأشياء التى ترتبط بالمجموعات الإنسانية . ولقد أخذ فريزر فى التأكيد على أن علاقة الفرد بالطوطم الخاص به ، كان بمثابة الجوهر الذى تتبدى فيه الصداقة أو القرابة حيث يكون الاتحاد أو التطابق كاملاً تقريبًا . وهكذا فإن الطوطمية فى شكلها البحت يجب ألا تفسر بأنها ديانة ، حيث إن الديانة تتطلب دائمًا وجود علاقة معينة بين فرد

ما وبين قوة عليا أو قوى عليا . وكان فريزر قد سبق أن قام بعمل مطابقة فيما بين الطوطمية والدين ، ولكنه عاد فحذّر قرّاءه من تكرار الخطأ الذى وقع فيه . وعلى الرغم من أن الطوطمية قد تطورت إلى دين فى بعض الحالات ، وذلك بسبب عبادة الآلهة التى تشبه الحيوانات والنباتات التى نسبت إليها صفات خارقة ، فقد حذر فريزر من الذهاب إلى القول بأن هذه كانت الحالة الحتمية بالطبع أو بالضرورة . يقول فريزر : إن الوظيفة الرئيسية للطوطمية كانت العمل على قيام ترابط حميم بين الناس فى مجموعة اجتماعية معينة حتى يتسنى القيام بعمل جمعى مشترك وتحمّل مسئوليات اجتماعية مشتركة . ولقد اعتبر هذا بمثابة مساهمة مهمة فى نشأة الحضارة حيث يعتمد التقدم على توافر تعاون قلبى بين الناس فى المجتمع ، وأيضًا على أساس ثقتهم المتبادلة وحسن النوايا ، وعلى استعدادهم لإحلال مصالح المجموع محل المصالح والاهتمامات الشخصية .

ولقد قام فريزر بتقديم ثلاث نظريات متميزة تتعلق بنشأة الطوطمية . فهو كمؤمن بالوحدة النفسية لدى الجنس البشرى ، كان مقتنعًا بأن الطوطمية قد نشأت حتمًا وبصفة رئيسية على النحو نفسه لدى جميع الشعوب . فإذا ما تسنى تقديم تفسير مُقنع لنشأتها فى أحد الأماكن ، فإن من الممكن تعميمه بإزاء جميع الأماكن .

أما النظرية الأولى التى بدأ فريزر بها تفسيره للطوطمية ، فإنها تذهب إلى أن فكرة الطوطم قد بزغت إلى الوجود عندما كرّس شخص ما روحه لشىء معين نباتًا كان أم حيوانًا للاحتماء به . وبعد أن فقد أثر ذلك النبات أو الحيوان الفردى المُعيّن الذى احتمى به ، فإنه صار يرتمى فى أحضان النوع من الكائنات الحية بأكمله ، كما صار يُوحّد بينه وبين ذلك النوع . بيد أن الشواهد التالية أقنعت فريزر بعدم مصداقية هذه النظرية .

Looloo
www.dvd4arab.com

أما النظرية الثانية التى ذهب إليها فريزر فقد كانت مستقاة من دراسة بالدوين سبنسر Baldwin Spencer وجلين F. J. Gillen بأستراليا التى ذهبا فيها إلى أن الطوطمية قد تحددت ملامحها عن قصد كأداة سحرية لخدمة الحياة الاقتصادية . فثمة إحدى القبائل قد نظّمت عشائرها بطريقة طوطمية ، فكانت كل عشيرة منها مسئولة من خلال ممارسة طقوس سحرية معينة عن ضمان إحراز موارد جيدة لخدمة واستهلاك المجتمع . بيد أن فريزر قد نبذ هذه النظرية فى نهاية الأمر ، وذلك لأنها تستند إلى بواعث عقلانية أعلى من مدارك الإنسان البدائى .

أما النظرية الثالثة والأخيرة التى انتهى إليها فريزر ووافق عليها فإنها تُعْرف « بالنظرية التصورية للطوطمية » "Conceptional Theory Of Totemism" ، وهى تذهب إلى أن الانتساب الطوطمى للطفل قد كان يتحدد عن طريق أخيلة الأم خلال اللحظة الأولى التى كانت تحس فيها بأول حركة فى أحشائها . وقد اعتمدت هذه النظرية على الزعم بأن الأم التى كانت تجهل الأسباب التى أحدثت الحمل بالطفل ، كانت تعتقد أنه قد دخل رحمها فى اللحظة التى كان ذلك الشىء موجودًا فى مجال إدراكها ، فأحست عندئذ بحركة بداخلها ، وهى عندما أخذت فى التطلّع ؛ لتحديد ذلك الشىء الخارجى الذى عمل على دخول الطفل فى بطنها ، فإن من المرجح أنها ربطت فيما بين الشىء الذى كان يقع بصرها عليه أو كانت تحس به قبل حملها بالجنين وبين الحمل به . وذلك الشىء الذى كانت تعزو إليه الحمل إما أنه كان حيوانًا أو نباتًا أو حجرًا أو أى شىء آخر . وبعد ذلك ساد الاعتقاد بأن ذلك الشىء قد صار متحدًا بروح الطفل . ويذهب فريزر إلى أن هذه النظرية تفسر بشكل مناسب جدًا الربط التطابقى فيما بين الفرد وبين الطوطم ، وذلك لأنه كان يعتقد أنه هو ذلك الشىء نفسه ،

سواء أكان حيوانًا أم نباتًا أم أى شىء آخر ، وقد دخل فى رحم الأم فى لحظة الحمل به واستمر بها حتى بزغ منها فى لحظة الميلاد .

وهكذا نجد أن المصدر النهائى للطوطمية يعزى إلى جهل البدائيين بالأبوة وإلى رغبتهم فى تفسير أسباب الحمل . إذن فالطوطم كان فى أصله مكتسبًا ، ثم صار لأسباب متعددة مردودًا إلى أسباب وراثية .

والواقع أن أول من وجّه الانتباه إلى أهمية الطوطمية والزواج من الأباعد هو مكلينان J. F. Mclennan على الرغم من أنه لم يُقدّم نظرية تتعلق بأصل الطوطمية ، ولكن كانت لديه فكرة محددة عن أصل الزواج من الأباعد . فلقد اعتقد أن الزواج من الأباعد قد نشأ نتيجة ممارسة عادة الاستيلاء على العرائس بالقوة ، وهى العادة التى صارت أمرًا ضروريًا بسبب النقص الشديد فى عدد النساء ببعض القبائل نتيجة وأد البنات . ولقد عزا مكلينان ممارسة هذه العادة إلى أن القبيلة كانت تعجز عن توفير الغذاء لجميع أطفالها ، ومن ثمّ فإنها كانت تعمد إلى قتل الإناث منهن بسبب ضعفهن وعجزهن عن توفير الطعام ومقاتلة القبائل المعادية . وكان النقص الشديد فى عدد النساء سببًا أكيدًا فى زواج عدة رجال من امرأة واحدة فى نطاق القبيلة الواحدة أو الزواج من الأباعد ، وذلك عن طريق الاستيلاء على العرائس من القبائل الأخرى . على أن فريزر قد رفض هذه النظرية على أساس أن وأد البنات قد حدث بين القبائل المتقدمة نسبيًا فى سلسلة التطور بصفة رئيسية ، وبزغ هذا إلى الوجود بعد انتشار عادة الزواج من الأباعد . ولقد برهن فريزر أيضًا على أن من الصعب البرهنة على استمرار معدّل الزيادة فى عدد الذكور عن معدل الزيادة فى عدد الإناث بالقبائل التى بزغ فيها الزواج من الأباعد .

Looloo
www.dvd4arab.com

وبعد ذلك تحول فريزر إلى النظرية التى قدمها إدوار وسترمارك **Edwad Westermarck** التى يذهب فيها إلى أن الزواج من الأباعد قد نشأ نتيجة النفور الغريزى من الزوج والاتصال الجنسى فيما بين الأفراد الذين يعيشون معًا فى مكان واحد منذ مرحلة الشباب ، والذين يكونون فى العادة مرتبطين بصلة الرحم ، وإن كان هذا ليس من المحتوم . ولقد فسر وسترمارك هذا النفور باعتباره اتجاهًا ناشئًا عن عمليات الاختيار الطبيعى التى عملت على ملاشاة الزواج من الأقارب نتيجة الاعتقاد فى ضعف الذرية التى تنجم عن هذا النوع من الزواج . ولكن جريًا وراء مكلينان **J. F. Mclennan** ، فإن الشعب البدائى لم يكن على وعى بهذه الحقيقة مؤكدًا أنهم لم يكونوا يُميّزون فيما بين علاقات صلة الرحم وبين علاقات القرب المكانى . وهنا يثير فريزر السؤال عن الكيفية التى استحال بها الزواج محليًا من الأباعد إلى نظام الزواج من غير الأقرباء متخذًا صفة العمومية ، ولكنه لم يجد إجابة عن تساؤله هذا .

أخيرًا ضم فريزر صوته إلى نظرية مورجان **L. H. Morgan** العالم التطورى الشهير ومؤسس علم الأنساب . يقول فريزر عنه ، إنه خلافًا للكتّاب الآخرين الذين تقدموا بفروض علمية ، فإن مورجان قضى سنوات كثيرة وهو على صلة مباشرة بالبدائيين الذين لا يزالون يمارسون كلا من الطوطمية والزواج من الأباعد . فهو فى تناوله لهذه المشكلة ، قد وّفرت له ألفته العملية بالمجتمعات التى يتم فيها الزواج من الخارج ، ميزة أكيدة أفضل مما أتيح للباحثين الذين لم تتوافر لهم المعرفة المباشرة بالمؤسسة التى تناولوها بالمدارسة .

اعتمدت نظرية مورجان على فرض من الفروض الأساسية التى انتهى إليها ، أعنى الشيوعية الجنسية لدى الإنسان البدائى .

والشوعية الجنسية البدائية **Primitive Promiscuity** كما عرفت بهذا الاسم ، لم يلاحظ أحد أنها تمارس بين الشعوب البدائية الحالية ، وقد افترض الباحثون وجودها بالاستنباط . ومورجان باعتباره شخصًا متدينًا ، قد اعتقد أن الشيوعية الجنسية كانت بمثابة المرحلة الأولى التى يمكن تصورها فى سياق مراحل تطور المجتمع الإنسانى . أما الزواج من الأباعد فى رأى مورجان فهو بمثابة حركة إصلاحية للقضاء على الزواج بين أقرباء الرحم فى نطاق القبيلة وبخاصة بين الإخوة والأخوات ، وذلك بإجبارهم على الزواج من خارج القبيلة . ولقد اعتقد فريزر أن هذا التصور يُعد المفتاح الحقيقى الذى يمكن أن نفسر بوساطته نظام الزواج من الخارج بأسره . وامتد فريزر بهذا الفرض وذلك بالإشارة إلى السكان الأصليين بأستراليا للبرهنة على التعقُّد المتزايد لنظام الزواج من الغرباء . فالنظام الأول صار يُحرّم الزواج من الأشقاء ، والثانى صار يحرم زواج الوالدين ببناتهن ، والثالث صار يحرم الزواج بين أولاد العم وأولاد الخالة من الدرجة الأولى . ولقد اعتقد فريزر أن هذه النظم التحريمية قد وضعت عن قصد وذلك لمنع الزواج من ذوى القربى المباشرين . وهو يقول «وليس هناك مؤسسة بشرية تحمل انطباع التخطيط المقصود بأكثر وضوحًا من الطبقات الاجتماعية التى يتم فيها الزواج من الخارج كما هو الحال بإزاء السكان الأستراليين الأصليين » . وهو يستخدم البرهان المألوف الذى قدمه بالى **Paley** بقوله « إنه لو افترضنا أن هذه الممنوعات قد نشأت عن مصادفات غير مقصودة ، فإننا نكون كمن يقول : إن التركيب المُعقّد لساعة الحائط قد حدث بغير تخطيط بشرى ، وأنه بزغ إلى الوجود دون تدخّل من جانب أى إنسان » . على أن من الواجب أن نلاحظ أن فريزر يقول فى مواضع أخرى إنه « فيما يتعلق

Looloo
www.dvd4arab.com

بالشئون الإنسانية فكثيرًا ما يحدث أن الآثار التى تحدثها إحدى المؤسسات فى الواقع لم تكن بحال هى تلك التى قصدت إلى إحداثها » .

ولقد اعتقد فريزر أن الزيجات الجماعية كانت تُعقد فى العادة فى مرحلة تالية بعد نظام الزواج من الخارج بين طبقتين ، ثم تطوّر هذا النظام إلى الزواج بين شخصين فحسب . وهكذا فإن تاريخ الزواج من الغرباء يمكن أن يقارَن بسلسلة من الحلقات المتداخلة . وتتضمن الحلقة الخارجية جميع النساء فى القبيلة ، بينما تتضمن الحلقة الداخلية - وهى أضيق الحلقات - امرأة واحدة فقط . فالحلقة الأولى تمثل الشيوعية الجنسية ، والحلقة الأخيرة تمثل زواج رجل واحد بامرأة واحدة .

أما فيما يتعلق بالنفور المفترض بإزاء العلاقات الجنسية فيما بين المحارم - وهو الفرض الأساسى فى البحث بأسره - فإن فريزر لا يقدم بصدده تفسيرًا شافيًا . وهو يقول : « إننا لا نعلم ، بل من الصعب حتى أن نُخمّن » وهو يقصد التخمين بأن الناس قد وقفوا على الآثار الحقيقية أو المتخيّلة بإزاء العُقْم الناجم عن تلك الزيجات ، ولكن يبدو أنه غير مقتنع بهذا التفسير . فهو ينتهى إلى القول « إن ما كرهوه ونفروا منه هو فى الواقع شىء خرافى أو غامض » .

والواقع أن معظم النظريات التى قدمها فريزر والمتعلقة بتطور السحر والدين وأصل الطوطمية وتطورها ، لا يؤخذ بها اليوم ، ولكن الكمية الهائلة من المعلومات التى قام بجمعها لا تزال مُوثّرة وفعالة فى البحوث التى يقدمها بعض الباحثين على الرغم من قلة عددهم ، وذلك لعدم اتساقها وتفككها ، الأمر الذى يجعل القيام بإجراء بحث

حول تلك المسائل من الصعوبة بمكان . ناهيك عن أن الكثير من المعلومات الميدانية التى استُقيت من مصادرها غير موثوق فيها . ذلك أن فريزر كان يوحى بآرائه إلى أولئك الذين كانوا يُقدمون إليه التقارير . فكان يمُدُّهم بما يحتاج إليه فيما يقدمه من نظريات ، فيعمدون إلى تكييف المضامين التى تحتويها تقاريرهم وفْق مطالبه . ففريزر متهم بالتحيز إلى درجة كبيرة أكثر من أى باحث آخر فى الماضى والحاضر . وهذا مما يُصوّب سهام الشك إلى النظريات التى قدمها بدعم من التقارير التى كانت تصل إليه من أنحاء العالم .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الثامن عشر

إميل دوركايم Emile Durkheim

(١٨٥٨ ـ ١٩١٧)

إن الأساس الذى أقام عليه دوركايم مذهبه فى علم الاجتماع قد تحدد خلال الخمس سنوات التى قضاها كأستاذ للفلسفة فى كلية ليسيه أوف سنس Lycee of Sens فيما بين عامى ١٨٨٢و١٨٨٧. وفى تلك الفترة تشرّب بما يسمى وجهة نظر العضوية "organistic" بإزاء المجتمع . وقد استمد تفسيره هذا من سبنسر Spencer وإسبيناس Espinas اللذين تصورا المجتمع كنوع من المجموع الحى "living whole" . والواقع أن تصور اسبيناس للمجتمع كفرد عالى المقام super-individual يتضمن شعورًا جمعيًا مناظرًا لمجتمع الخلايا الذى يتشكل منه الفرد البشرى ، وهو التصور الذى يمكن اعتباره المصدر الأصلى الذى استمدت منه فكرة عضوية المجتمع .

على أن وجهة نظر دوركايم بصدد الطبيعة العضوية "Organic" للمجتمع ، تختلف من عدة نواح هامة عما ذهب إليه كل من سبنسر وإسبيناس . فيكفى أن نذكر أن دوركايم قد استحدث عبارات مثل الجسم الاجتماعى و البروتوبلازم الاجتماعى و نظام الجهاز العصبى الاجتماعى وهو بصدد شرحه للبنية الاجتماعية والوظائف الاجتماعية .

وكما هو الحال عند سبنسر فإن دوركايم باتخاذه وجهة النظر العضوية بإزاء المجتمع ، قد اعتبره حقيقة قائمة بذاتها . فالمجتمع يجب أن يُدرّس وأن يوصف وأن يُلقى عليه الضوء كمجال قائم بذاته ومنفصل عن الأفراد . فهو على الرغم من ارتباطه بالظواهر السيكولوجية ، فإن الوقائع الاجتماعية "soccal facts" لا يمكن أن تُشرّح بالاستعانة بعلم النفس . فالمجموع أو الكل يتضمن ما هو أكثر من مجموع الأجزاء التى يتشكل منها . ومن هنا فلابد من مدارسته بطريقة منفصلة . والواقع أن هذا المذهب الأعلى من العضوية "superorganic" كما يُنعت اليوم ، قد انضم إليه أشياع كثيرون لهم أهميتهم منذ كونت Comte . وهنا نجد أيضًا جانبًا مشتركًا مع بعض ما ذهب إليه فوندت Wundt . والواقع أن الكثير من النقد قد وُجّه إلى دوركايم بسبب نظرته إلى المجتمع ككائن حى ، وقد اتهم بأنه يعزو حقيقة ميتافيزيقية إليه ، ولكن على الرغم من أننا نجد فى كلامه ما يؤيد هذا الاتجاه ، فإن ما يبدو واضحًا هو أنه لم يُرد سوى تناول الوقائع الاجتماعية كأشياء حتى يتسنى له معالجة الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية .

ومما لا شك فيه أن إسهامات دوركايم التى أسّداها لمنهج البحث فى العلوم الاجتماعية يحتل أهمية عظيمة . لقد كان هدفه العام هو جعل علم الاجتماع علمًا تجريبيًا ، فاجتهد فى بحوثه أن يمارس التجريب الحاسم "crucial experiment" الذى يمارس بنجاح جدًا فى نطاق العلوم الطبيعية ، فكان هذا متعارضًا جدا مع ما ذهب إليه فلاسفة من أمثال هوبز Hobbes وهجل Hegel اللذين حاولا أن ينْشئا نُظمًا فلسفية تضم فى نطاقها ميدان النشاط البشرى بأسره ، كما يتعارض مع ما ذهب إليه أنثروبولوجيون من أمثال سبنسر وتيلور

Looloo
www.dvd4arab.com

وفريزر الذين عمدوا إلى الاضطلاع بدراسات مقارنة . ولقد نعت بارسونز Parsons دوركايم بأنه واحد من أعظم العلماء التجريبيين لزمانه ويصفه بأنه كان صاحب نظريات علمية بمعنى الكلمة . فهو لم يضع نظريات في الهواء ، كما أنه لم ينخرط على الإطلاق في تأملات عقيمة ، بل كان يبحث دائما عن حل للمشكلات التجريبية التي لها أهمية بصفة خاصة .

ولقد ظل دوركايم يؤكد أنه لكي نقوم بمعالجة تجريبية للمعطيات الاجتماعية ، فإن من الضروري معالجة الوقائع الاجتماعية باعتبارها أشياء . وهذا المطلب الهام الذي صار أساسا لكل دراسة قام بها ، قد أحدث كثيرا من الارتباك الذي نجم عن استخدامه لبعض المصطلحات اللغوية . فلقد كان يصر على اعتبار الوقائع الاجتماعية أشياء نتيجة إصراره على تحاشي الطريقة القياسية والعقلانية التي اتسمت بها أعمال كونت وسبنسر وغيرهما . وهو كعالم تجريبي كان عليه أن يتناول المُعْطيات التي يمكن ملاحظتها ، وأن يقوم بوصفها وتصنيفها وإلقاء الضوء عليها ، وألا تكون مجرد استنباطات من مجرد فروض اعتباطية قليلة مثل الوحْدة السيكولوجية للجنس البشري ، ومثل التطور الأحادي . وبالنسبة لدوركايم فإنه بقوله إن الواقعة الاجتماعية هي شيء إنما يعني تحديد هوية المعطيات الاجتماعية : فكل ما يتم الحصول عليه ، وكل ما يخضع للملاحظة يكون مُعبرا عن خصائص الشيء . فتناول الظواهر كأشياء ، إنما هو في الوقت نفسه تناولها كمعطيات ، وهو ما يشكل نقطة انطلاق العلم .

على أن دوركايم في أثناء حماسه لمحاكاة طرائق العلوم الدقيقة "exact sciences" ، قد بالغ في تشخيص واقع المجال الاجتماعي ، فصار بذلك عُرْضة للاتهام بعزو الحقيقة الميتافيزيقية إلى الظواهر

الاجتماعية . ولكن الواقع أن كل ما كان يقصده هو أنه حيث إن المؤسسات الاجتماعية تقع خارج نطاق الفرد ، وأنها تفْرض القيود عليه ، فإن من الممكن اعتبارها إذن جزءا من عالم ذلك الفرد ، وبالتالي فإن من الممكن دراستها في حد ذاتها . فيجب الاعتراف إذن بالواقعة الاجتماعية في ضوء الضغوط الخارجية التي تمارسها أو تقْدر على ممارستها بإزاء الأفراد . ولقد يتسنى إدراك وجود هذه القوة في ضوء دورها إما بإزاء القوانين التي يفرضها المجتمع على الفرد ، وإما في ضوء المقاومة التي يبديها المجتمع ضد ما يبديه أي فرد من مقاومة ضد إرادته .

وعلى الرغم من أن الوقائع الاجتماعية تنشأ في قوام مجموعة من العقول الفردية ، فإنها تصل إلى أي فرد من مجال خارج نطاقه الفردي ، أعني المجتمع ، ومن ثم فمن الواجب أن تفسّر في ضوء وقائع اجتماعية خارج نطاقه ، وليس في ضوء وقائع تتعلق بالنظام البيولوجي أو السيكولوجي لديه . وبهذا الصدد يقول دوركايم كلما عمد المرء إلى تفسير إحدى الظواهر الاجتماعية بواسطة ظاهرة سيكولوجية معينة ، فلا بد أن يعلم أنه قد تنكّب عن طريق الصواب .

وعلى الرغم من أن الوقائع الاجتماعية تتأتى لكل فرد من واقع خارجي ، فإنها تصير بعد ذلك من صميم دخيلته الشعورية ، وتمثل ما يكون عليه الفرد من مشاركة مع المجموعة . فتلك الوقائع الاجتماعية تصير هي المجتمع بذاته متمثلا في دخيلة الفرد ، ويكون من الممكن تمييزها من الشعور البيولوجي الذي يتصف به ذلك الفرد . ففي الإطار الاجتماعي يضع دوركايم بعض المفاهيم مثل مفهوم الزمن ومفهوم المكان ومفهوم القوة ، ومفهوم السببية ، وأيضا الشرائع

Looloo
www.dvd4arab.com

القانونية والتقاليد الأخلاقية ونحوها . ومما لا شك فيه أن للمضامين المعرفية هنا أهمية خاصة فيما يتعلق بمبحث المعرفة .

ولا شك أن المضامين التى تضمنها هذا المنهج الذى ضرب دوركايم فى إثره ، قد أضفت عليه لقب أبو النزعة الوظيفية "Father of Functionalism" فى الدراسات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية . فنجد أن راديليف براون "Radcliffe-Brown" يورد تعريف دوركايم لوظيفة المؤسسة الاجتماعية بقوله إن وظيفة المؤسسة الاجتماعية ـ كائنة ما تكون ـ هى تحقيق التوافق بينها وبين حاجات الكائن الحى الاجتماعى . بيد أن حاجات المجتمع الذى ينخرط فيه الأفراد ترتبط بهم ارتباطا وثيقا ، ولكنها ذات مستوى مختلف عن مستوى حاجات كل فرد منهم ، أعنى الأفراد الذين يتشكل منهم ذلك المجتمع . فالفرد يولد فى عالم اجتماعى ، تماما كما يولد فى عالم فيزيائى . فالعالم الاجتماعى شأنه شأن العالم الفيزيائى من حيث إنه يكون موجودا قبل أن يوجد الفرد ، وسوف يظل موجودا بعده . على أن الظروف التى تؤدى إلى وجود العالم الاجتماعى ليست هى بالضرورة الظروف نفسها التى تؤدى إلى وجود الفرد . ومن ثم فلابد من دراسة الظروف التى تؤدى إلى وجود العالم الاجتماعى فى انفصال واستقلال عن الظروف التى تعمل على وجود الفرد .

ويقرر راديليف براون أن دوركايم كان أول من أقام تشكيلاً نظاميا من ذلك التناظر القائم فيما بين المجتمع والحياة العضوية ، كما أظهر أن فرضه الأساسى كان فرضا وظيفيا . فكما أن حياة الكائن الحى تعتبر نتيجة تتأتى عن توظيف بنيتها العضوية ، كذا فإن الحياة الاجتماعية فى نظر دوركايم هى توظيف للبنية الاجتماعية .

وكما سبق أن قلنا فإن دوركايم قد استفاد من الافتراض التطورى ، ومن المنهج المقارن . والواقع أن معظم دراسى بحوثه يوافقون على

أنه استخدم هذه الأفكار بشكل أكثر عمقا مما فعل كونت وسبنسر وتيلور وفريزر . فهو فى استخدامه للمنهج المقارن على سبيل المثال ، صار يؤكد أن المقارنات يجب ألا تعقد إلا فى إطار نطاق النمط نفسه "interior of the same type" وحيثما انتحى التطوريون الكلاسيكيون من أمثال سبنسر وتيلور وفريزر ولانج إلى تناول جميع الأمثلة المتعلقة بإحدى الظواهر الاجتماعية باعتبارها ذات وزن واحد ، فإن دوركايم أدخل وجهة نظر نسبية ، حيث ينظر دائما إلى السوية باعتبارها سوية نسبية فى ضوء مرحلة معينة فى تطور كل مجتمع يقوم الباحث بتناوله .

والوقع أن مفهوم دوركايم الخاص بالسوية "normality" قد لعب دورا هاما فى جميع بحوثه . ولقد أثيرت مناقشات كثيرة حول ما عناه دوركايم بالسوى Normal وما عناه بالعليل "pathologecal" . بيد أن من يتصفح كلامه يجد أنه استخدم لفظ سوى بمعنى المتوسط "average" . فهو يقول إننا سوف نستخدم لفظ سوى بإزاء تلك الوقائع التى تشير إلى معظم الأشكال العامة ، وسوف نستخدم لفظ سقيم "morbid" أو عليل "pathological" بإزاء مجتمع واحد بعينه خلال فترة معينة ، أو بتعبير آخر فى ضوء نظرته التطورية بإزاء مرحلة معينة من تطور مجتمع ما .

فالمقارنات الكلية أو الشاملة للظواهر الاجتماعية قد استبعدها دوركايم بهذا الصدد إذ إن المرء لا يستطيع أن يشرح إحدى الوقائع الاجتماعية المعقّدة إلى حد ما ، إلا إذا تتبع تطورها الكلى المتكامل فى ضوء جميع الأنواع الاجتماعية الحية . ولكن على المرء أن يتناول المجتمعات التى يقوم بمقارنتها فى ضوء مراحل تطورها الخاصة بها . ولقد يكون من الخطأ أن نعزو إلى دوركايم أنه أدخل أى تحديد هام

Looloo
www.dvd4arab.com

بإزاء استخدامه للمفهوم التطورى والمنهج المقارن . فأقصى ما يمكن قوله هو أنه استخدمهما بعناية أكبر وبوعى أفضل بحدودهما . وكما يقول جهلك "Gehlke" فإن دوركايم هو بالتأكيد أحد المتمسكين بالمدرسة التطورية ، وقد قام بإلقاء الضوء عليها بفهم ودقة . ويقرر دوركايم نفسه أن هدف المنهج المُتبَع فى الدراسات الاجتماعية يجب أن يعمل على إحالة مفاهيم كونت "Compte" إلى حقيقة واقعة بدلا من كونها نزعات فلسفية "Philosophical aspirations" . ولتحقيق هذا الهدف فإن دوركايم استخدم التخصص المنتظم Systematic Specialization .

ويعرض دوركايم فى كتابه تقسيم العمل "Division Of Labor" لمفهومى التكافل والتطور . فعلى أساس افتراضه وجود قوى عدائية لدى الإنسان مما يتطلب وجود نوع من التعاون الذى لابد أن يُفرض بالقوة حتى يظل المجتمع باقيًا ، فإنه اضطلع بمدارسة القواعد الاجتماعية للسلوك ، سواء كانت قانونية أم أخلاقية ، وذلك حتى يتسنى له اكتشاف ظروف التكافل الاجتماعى والتطور . فذهب إلى أن من الممكن العثور على أنواع متباينة من تلك القواعد فى أى مجتمع من المجتمعات المتباينة ، الأمر الذى يساعد على الوقوف على مفاتيح بنيته الداخلية وعلى وظائفه . ولقد وجد هذه الأنواع من القواعد الاجتماعية للسلوك متمثلة فى الشرائع القانونية والأخلاقية ، وأيضا فى الإحصاءات الاجتماعية (معدلات الانتحار مثلا) ، وفى الممارسات الدينية . ويركز هذا الكتاب على الشرائع القانونية والأخلاقية التى تعتبر تعبيرا عن الحاجات الاجتماعية لأى مجتمع .

والواقع أن دوركايم برغم انتهاجه المنحى التطورى ، فإنه لم يُعْط صوته لأى فكرة بسيطة للتطور ووحيدة المنحى . فهو فى هذا العمل

يقرر أنه لم يعُد من الممكن الاعتقاد بأن التطور الأخلاقى يتشكل نتيجة تطور الفكر الذى كان مُشوَّشا وغير مؤكد لدى الإنسان البدائى . ولكن مع نمو عقله رويدا رويدا ، فإنه صار على جانب أكبر من اتضاح الرؤية والدقة ، وذلك عن طريق التقدم التلقائى للمعرفة . فعلى العكس من هذا ذهب دوركايم إلى القول بأن القانون الأخلاقى يتشكل ويستحيل ويُتَّبع تبعًا للمطالب المتغيرة .

ولقد وافق دوركايم سبنسر على أن التخصص المتزايد بين أفراد أى جماعة ، قد أدى إلى تحقيق التوافق والتعاون فيما بينهم ، وهو ما يميز تطور المجتمعات البدائية إلى أن صارت مجتمعات متحضرة . ولكن بينما نجد أن سبنسر ـ وهو من مؤيدى النزعة النفعية وصاحب نظرية فردية فى المجال الاقتصادى ـ قد عزا هذا التعاون إلى علاقات تعاقدية بين الأفراد لإحراز منافع مشتركة فيما بينهم ، فإننا نجد أن دوركايم قد أخذ يؤكد أن تلك التنظيمات قد صدرت عن المجتمع . فهى ليست مخلوقة بواسطة الأفراد لتحقيق مصالحهم المباشرة .

والواقع أن دوركايم قد استبعد تمامًا مبدأ السعادة أو المصلحة الشخصية التى تعتبر من وجهة النظر النفعية ، الهادى للإنسان فى سبيل تحقيق التعاون الاجتماعى . فهو يرى أن ما قد يبدو انسجامًا بين المصالح يخبئ وراءه صراعًا ضمنيًا ومؤجلاً . ذلك أن المصلحة عندما تكون هى القوة الوحيدة المتحكمة فى العلاقات بين الأفراد ، فإن كل فرد يجد نفسه عندئذ فى حالة حرب مع غيره ، طالما أن شيئًا لا يحدث لكى يخفف من غُلواء الأنانية المُعتَملة فى قوامهم ، ومن ثم فإن أى هدنة للتخفيف من هذا العداء ، سوف لا تطول مدتها . فليس هناك شىء أقل ثباتًا واستقرارًا من مصالح الأفراد .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد تحوّل دوركايم إلى دراسة التشريعات القانونية والأخلاقية باعتبار أنها المجال الذى يجب أن يوّجه إليه نظره لاكتشاف المصادر الاجتماعية للتلاحم فيما بين الأفراد بعضهم وبعض ، إذا أن الخصيصة الأساسية التى تتّسم بها القواعد الأخلاقية هى الإفصاح عن الشروط الأساسية للتكافل الاجتماعى . ولقد وجد دوركايم فى هذا المجال تمايزًا فيما بين قانونين أساسيين : القانون القمعى Repressive ، والقانون التعويقى Restitive .

أما القانون القمعى فهو ببساطة تعبير عن العادات والمعتقدات والأعراف التقليدية الخاصة بمجتمع ما ، والتى تم توارثها عبر الأجيال ، وهى التى يتم تثبيت قوانمها عن طريق التهديد بتوقيع العقوبة . ولقد أطلق دوركايم على التكافل الاجتماعى القائم على أساس القانون القمعى اسم التكافل الميكانيكى "Mechanical Solidarity" وهذا النوع من التكافل يستند إلى الحق الوراثى الذى يوجد لدى المجتمعات البدائية إلى حد بعيد بغير استثناء تقريبًا ، وهو يتشكل من مجموعة المعتقدات والعواطف الشائعة لدى جميع أعضاء المجموعة . ويطلق دوركايم على هذا اسم النمط الجمعى .

أما القانون التعويقى فإنه ينحو إلى فرض القيود بدلاً من توقيع العقوبة ، وهو لا يؤثر إلا فى عيّنات معينة من الأشخاص بالمجموعة فى أى فترة زمنية . أما وظيفته فهى الحفاظ على الوضع القائم وليس توقيع العقوبة بسبب ارتكاب جرائم ضد المجتمع . والواقع أن القانون التعويقى يعتبر دلالة على التكافل العضوى "Organic Solidarity" ، أعنى التكافل القائم على أساس تعاون أفراد من الخواص .

وحيثما يكون القانون التعويقى سائدًا ، فإن المجتمع يكون إذن قائمًا على أساس التباين المتخصص الذى يتم فيه التكافل على أساس نظام من الوظائف الخاصة المتباينة التى تعمل العلاقات المحددة على تآزرها . وحيث إن التكافل الميكانيكى يقوم على أساس استيعاب الأفراد فى مجموعة من المعتقدات والعواطف المشتركة ، فإنه ينشأ على حساب شخصية الفرد . أما التكافل العضوى من جهة أخرى ، فإنه يقوم على أساس التأكيد على ما هو شخصى ومتمايز بالنسبة للفرد . ولكن يجب ألا يفهم من هذا أنه فى حالة التكافل العضوى يعتمد الفرد بدرجة أقل على المجتمع . فالتقابل بالضبط يتبدى فى التخصص المتزايد ، أعنى التأكيد على الفروق الفردية ، وهو التأكيد القائم على أساس الحاجة إلى قدْر أكبر من التوافق . فالمجتمع فى هذه الحالة يُقدّم القواعد التى تعمل على تنظيم العلاقات الضرورية بين الأفراد . وهذا النمط من التكافل الاجتماعى شأنه شأن الوحدة التى يتّسم بها الكائن الحى . ومن هنا نشأ تعبير التكافل العضوى "Organic Solidarity" .

ودوركايم فى تحديده للتمييز السابق ، كان يرنو إلى الإجابة عن السؤال التالى : لماذا يعتمد الفرد على المجتمع ، بينما هو متمتع بقدر أكبر من التحرر ؟ إن ثمة شواهد تشير إلى أن دوركايم قد وضع هذه المشكلات على هذا النحو لدعم هجومه العنيف ضد مشايعى النزعة الاقتصادية الفردية من أمثال سبنسر الذى رفض التصادم الاجتماعى "Social Imterference" باعتباره قوة غاشمة ضد الميل الطبيعى المعتمل لدى الإنسان نحو تحسين وضعه . والواقع أن دوركايم كان متحمسًا لإظهار أن المعايير التنظيمية بالمجتمع قد وُضعت فى ضوء مفهوم يتعلق بالحرية الفردية ، ولقد ذهب

Looloo
www.dvd4arab.com

بارسونز Parsons إلى أن دوركايم قد تطور بفكرة التكافل العضوى انطلاقاً من رغبته فى الرد على المشايعين للنزعة الاقتصادية الفردية .

على أن دوركايم يبدو غامضاً وغير حاسم فى كتابه تقسيم العمل بإزاء مشكلته الرئيسية ، أعنى الأصول التى نشأ عنها تقسيم العمل . فعندما وجد أن البواعث الفردية غير ناجعة ، فإنه اضطر إلى البحث عن تفسير آخر . فاتجه أخيراً إلى تفسير يقوم على أساس الزيادة الطبيعية المطّردة فى عدد السكان ، حيث تحتم المنافسة المتزايدة التخصُّص والتعاون كثمن لاستمرار البقاء . وفى الخلاصة التى انتهى إليها فى كتاب هذا ، فإنه يعود ليؤكد أهمية القيم والاتجاهات والعواطف المشتركة فيما بين الناس فى أى من المجتمعات ، ويحاول أن يضع الفكرتين المتعلقتين بالتكافل الميكانيكى والتكافل العضوى فى سياق متكامل . فهو يقرر على سبيل المثال أنه إذا كانت ثمة قاعدة واحدة للسلوك لا خلاف عليها ، فهى تلك الفكرة التى تأمرنا بأن ندرك فى أنفسنا السمات الجوهرية للنمط الجمعى . على أن المجتمعات المتقدمة ، لا تتطلب وجود الالتحام الحميم مع المعتقدات والعواطف الجمعية ، التى تعتمل بشدة فى قوام المجتمعات البدائية . بيد أن عدم وجود بعض أوجه الشبه بين النوعين من المجتمعات ، إنما يعتبر علامة على انتشار الفشل الأخلاقى . فثمة عواطف مشتركة وأفكار مشتركة بدونها لا يكون المرء إنساناً بمعنى الكلمة . وعلى هذا فإن دوركايم ينتهى إلى القول بأن القاعدة التى تحملنا على أن نتفرّد ، تجد ما يحُد من عملها بقاعدة مضادة تأمرنا بأن نكون مشابهين بعضنا لبعض .

بيد أن دوركايم فى عمل آخر له ، نجد أن فكرة التكافل العضوى قد صارت على جانب أقل من الأهمية ، وقد جعل الضمير الجمعى "Conscience Collective" فى الصدارة . ومما لاشك فيه أن كتاب تقسيم العمل قد هيأ المسرح لتقديم عمل تال ، كما أن بعضاً من ملامحه الرئيسية لم تتلاش تماماً بأى حال وبخاصة فيما يتعلق بالتطابق فيما بين الحياة الاجتماعية والحياة الأخلاقية . فالمجتمع ليس مجرد تقارب مكانى بين الأفراد الذين يحملون فى مسيرة حياتهم نزعة أخلاقية فى قوامهم الذاتى ، بل بالأحرى فإن الإنسان هو فى الواقع كائن أخلاقى ، وذلك لأنه يعيش فى إطار مجتمع ما ، حيث تتشكل لديه النزعة الأخلاقية نتيجة كونه متكافلاً مع مجموعة من الناس ، وأنه يتباين فى سلوكه مع تباين هذا التكافل . فلو كتب على الحياة الاجتماعية أن تتلاشى ، فإن الحياة الأخلاقية سوف تتلاشى بالتالى ، إذ أنها لا تحمل بعد ذلك هدفاً لها ترنو إلى تحقيقه .

أما دراسة دوركايم الشهيرة بعنوان الانتحار "Suicide" ، فإنها تعتبر امتداداً للفكرة الأساسية التى أوردها فى كتابة تقسيم العمل ولكن فى نطاق آخر . وفى هذا الكتاب أدخل المؤلف تنقيحات نظرية وتعديلات متباينة . ففى تقسيم العمل نجد أن دوركايم قد أشار إلى ازدياد معدّل الانتحار خلال القرن التاسع عشر ، وذلك كذريعة استخدمها ضد القول بمبدأ السعادة "Happiness" الذى يؤمن به النفعيون . ولكنه فى كتابه الانتحار يقوم باختبار ظاهرة الانتحار لكى يُمْعن فى تحليلها . فعلى أساس الدراسات الإحصائية والنتائج النظرية ، فإنه يقوم بتقديم ثلاثة عوامل رئيسية تعمل على تحديد معدّل الإنتحار هى : العامل الغيْرى "Altruistic" والعامل الأنانى Egoistic والعامل اللاّمتعين Anomic .

Looloo
www.dvd4arab.com

ويرتبط العامل الغيْرى بفكرة التكافل الميكانيكى المهيمن ، فتكون الارتباطات الجمعية وضغوطها قوية للغاية بحيث تكون الحياة الفردية غير هامة إلى حد بعيد . ويتواكب مع القيمة الضئيلة جدًا المنوطة بالفرد ، سواء من جانبه (أى من جانب الفرد) أم جانب الآخرين ، عدم الاحتياج إلا إلى ممارسة ضغط قليل حتى يتسنى حمل المرء على لعب دوره فى الحياة . وبالإضافة إلى هذا فإن من المحتمل توافر مطلب اجتماعى للإقدام على الإنتحار . ولقد سبق أن أورد فريزر فى كتابه الغصن الذهبى أمثله عديدة تشير إلى ذلك .

أما العامل الأنانى فإنه يتخذ الموقف المضاد للموقف الغيْرى . فمع التأكيد المُطّرد على قيمة التفردية (وهى خاصية تتواكب مع الثورة الاجتماعية ومع نمو الحضارة) ، فإن الفرد يميل إلى أن يصير فى موقع أعلى من مواقع جميع الأشياء المحيطة به ، بل وأعلى أيضًا من مواقع جميع المؤسسات كالمجتمع والوطن وجميع ما تنصب إليه العواطف الجمعية . وعندما يصل هذا الشعور إلى منتهاه ، ويصير منفصلاً بالتالى بمشاعره عن المؤساسات الاجتماعية فلا يستطيع أن يدرك أو أن يحس بأى قوة أو سلطة لها تعتمل خارج نطاقه ، فإنه يصير عندئذ فى حالة من العزلة التى تجعل حياته لا تطاق . وهو عندما يحس بالتشوش والتوتر والقلق ، فإنه يجد نفسه غير مُدعَّم من جانب المجتمع ، وبالتالى فإنه يكون منتحيًا إلى التخلص من حياته نتيجة شعوره باليأس .

ويقدّم دوركايم إحصاءات مستقاة من الحياة السياسية والدينية والأسرية لدعم تحليلاته . ويبرهن على أن لمعدل الانتحار علاقة هامة بوضع الأسرة . فالأشخاص المتزوجون ينتحرون بمعدل أقل من معدل انتحار الأشخاص غير المتزوجين ، كما أن الآباء والأمهات

ينتحرون بمعدل أقل من معدل انتحار الأبناء غير المتزوجين ، بل إن الآباء والأمهات الذين يقومون برعاية أسر ضخمة ، ينتحرون بمعدل أقل من معدل انتحار غيرهم . ويفسر دوركايم هذه الإحصاءات للبرهنة على فاعلية القوة التى تتضمنها الارتباطات الجمعية القوية .

ولقد وجد دوركايم فى ميدان آخر هو ميدان الدين ، أن المتحررين فى فكرهم الدينى يبدون أعلى معدل من الانتحار ، وعلى رأسهم البروتستانت ويتلوهم الكاثوليك وأخيرًا اليهود . ووجد أيضًا أن معدل الإنتحار أقل فى ضوء مدى هيمنة السلطة فى نطاق المجموعة الدينية . ولكننا هنا نجد أن دوركايم يقدم فكرة جديدة هى أنه يقوم بالتمييز فيما بين البروتستانتى والكاثوليكى بأن الواحد منهما متحرر من ضغط المجموعة أكثر من الآخر ، إذ إن البروتستانتى برغم وقوعه تحت الضغط الاجتماعى أيضًا ، فإن الضغط الرامى إلى التحرر لا يسمح له بأن يختار بأن يكون حرًا أم غير حر ، بل لابد من ممارسة حريته . فالفردية إذن هى نتاج للضمير الجمعى وليست نتاجًا لضعف الضغط الجمعى . ويعتبر بارسونز أن هذا التفكير بمثابة تقدم عظيم فى التفسير .

أما بالنسبة لعامل اللاتعين غير المتضمن أية معايير ، فإنه يعتمل حيث تكون المعايير الاجتماعية مضطربة بسبب التغير السريع فى قوام المجتمع . ففى أوقات الرخاء الشديد أو فى أوقات الفقر المدقع على سبيل المثال ، فإن معدل الانتحار يرتفع . ففى كلتا الحالتين فإن العلاقة فيما بين الوسائل والغايات تكون مضطربة . فمع الفقر المفاجئ ، فإن الوسائل المؤدية إلى تحقيق الأهداف المعتادة تتقشع . ومع الرخاء المفاجئ فإن الأهداف تدرك ولكن مع غياب الوسائل المعتادة . فثمة فى الحالة الأولى إحباط مباشر وسريع ، وثمة فى

www.dvd4arab.com

الحالة الثانية شهية مطلقة العنان لابد أن تنتهى إلى حدوث الإحباط . فعدم وجود تحديد واضح للأهداف هو عامل مشترك فى الحالتين .

والواقع أن عدم توافر المعايير السلوكية هو ببساطة إضعاف أو فسْح للضمير الجمعى ، أعنى نظام المعايير الاجتماعية التى تعكس المعتقدات والعواطف والمشاعر المشتركة . فهو الحرية الجالبة للنوائب نتيجة انعدام وجود القيود الاجتماعية التى يستطيع الفرد أن يجد بواسطتها وجهة يصبو إليها أو معنى للحياة . والواقع أن دوركايم يقدم فكرة هنا ببلاغة لدى وصفه للحرية بأنها حالة من التحرر من جميع القيود الخارجية ، وهى الحاكم الطاغية أكثر من أى طاغية آخر عرفه التاريخ . إنها طاغية لا يتسنى لأى قوة خارجية أن تتحكم فيه أو أن تسيطر عليه . ويضيف دوركايم إلى ذلك أنه عندما تكون رغباتنا متحررة من جميع المؤثرات التى تعمل على تعديلها ، وعندما لا يكون هناك شىء يحُد منها ، فإنها تصير هى نفسها مستبَدّة ويصير العبد الذى قامت لتحريره هو نفسه العبد الذى يخضع لإمرّتها . وواضح أن الحرية التى يكفلها الخلو من المعايير مباينة للحرية التى تكفلها الأنانية التى هى فى الواقع كما قلنا نوع معين من القيد ، وأنها تعبير وصفى للضمير الجمعى ، فتكون ثمة حاجة إليه لكى يتسنى استئناس العامل الخالى من المعايير ، أعنى إيجاد سلطة أخلاقية جديدة تسير جنبًا لجنب مع التغيرات التى حدثت فى نطاق المجتمع . ويعترف دوركايم بأن هذا من أصعب العمليات التى يمكن استحداثها .

والواقع أن التقدم النظرى الرئيسى فى كتاب الانتحار والذى يمتاز به هذا العمل عن كتاب تقسيم العمل إنما يتبدى فى تطوير دوركايم لفكرة الضمير الجمعى الذى وإن كان قد ألمح إليه فى

الكتاب الأول ، فإنه لم يتخذ منه محورًا رئيسيًا إلا عندما قام بتأليف كتاب الانتحار . ففى كتابه تقسيم العمل فإن هذا المفهوم كان مندرجًا فى إطار مجموعة اجتماعية غير متمايزة ، ولكن فى كتاب الانتحار صار هذا المفهوم مفهومًا نشيطًا قابلاً للتطبيق بإزاء جميع المجتمعات كتعريف لعنصر اجتماعى موجود على نحو أو آخر فى كل شخصية فردية .

ومن الملاحظ أن دوركايم قد قام بتشكيل برنامج عملى فى ضوء ما تمكّن من الوقوف عليه من مكتشفات فى أثناء دراسته . فلقد قام بمدارسة الزيادة المخيفة التى طرأت على معدل الإنتحار خلال القرن الذى ترعرع فى إطاره . بيد أن الانتحار لم يبْدُ فى نظر دوركايم كظاهرة شاذة ، بل اعتبره ظاهرة ترتبط بجميع المجتمعات دون استثناء . فهو يعتبر الانتحار عاملاً مرتبطًا ارتباطًا مكينًا بالفضائل الحقيقية ، ولكنه مشُوب ببعض المبالغات . وهو يعنى هنا فضيلة التكافل الاجتماعى الغيْرى ، وفضيلة التفردية الأنانية ، وفضيلة المرونة المتعلقة بانعدام وجود معايير اجتماعية قسْرية . ولكن الانتحار يمكن أن يصير غير سوى عندما يتجاوز حدودًا معينة ، أعنى تلك الحدود التى تتفق مع طبيعة المجتمع . فالزيادة الهائلة فى معدل الانتحار خلال القرن التاسع عشر ، لابد أن تعتبر غير سوية ، بل وحالة مرضية فى ضوء المصدر الذى انبثقت عنه . فالسؤال إذن الذى يجب إثارته هو : ما المصادر التى تعمل على زيادة نسبة الانتحار ؟ وكيف يتسنى العمل على إضعافها ؟

لقد وجد دوركايم أن التيار الغيْرى فى الانتحار لم يستفحل أمره ، بل إنه فى الواقع قد تقلّص . وعلى العكس من هذا فإن التيار الأنانى وأيضًا التيار اللامتعين قد زادا زيادة شديدة كدفقهما بحيث

Looloo
www.dvd4arab.com

يمكن اعتبارهما بمثابة حالة مرضية . وفى كلتا الحالتين فإن السبب المعتمل فيهما هو ضعف التكافل الاجتماعى بسبب النمو السريع للبُنية الاقتصادية التى اشتعلت الثورة فى نطاقها . فلم تعد المؤسسات القديمة التى تكفل ـ الرعاية أعنى الدولة والدين والأسرة ـ قادرة على إشباع حاجات الأفراد . وكذا فإن الدولة الحديثة قد بعدت بعدًا شاسعًا عن مستوى الفرد ، وصارت على درجة من التعقيد جدًا بحيث لم تعد تسمح بأن تستوعب الاهتمامات الفردية وأن تتمثلها . أما الدين فلم تعد له قيمة تكيُّفية إيجابية إلا على حساب حرية الفكر . وعندما تتوقف ضوابط الفكر والبحث ويُلْقى بها جانبًا فى سياق التقدم البشرى ، فإن على الدين عندئذ أن يتخلى عن سلطته المفروضة ، ومن ثم فإنه ينحى عن التذرع بقوة تفاعله اجتماعيًا مع الناس . أما الأسرة فقد تقلّصت سلطتها التى كانت متوافرة لها بإزاء الأطفال . ذلك أنهم لم يعودوا يقضون الوقت الطويل فى نطاقها ويدورون باهتماماتهم فى فلكها . فهم اليوم يتعرّضون للكثير من المؤثرات المتباينة بل والمتضاربة . أما أهمية الأسرة والروابط التى تجمع أفرادها بعضهم مع بعض تحت مظلة تراثها ، فقد تقلّصت مع بزوغ الطبقة التجارية . فالاتجاه العام ينحو إلى تحطيم الحواجز القائمة فيما بين البيئات المحلية ، وإلى تحقيق مساواة عامة بين الطبقات الاجتماعية . فهذه الظروف جميعًا قد عملت على تنمية التيار الأنانى ، كما عملت على إشاعة الانتحار اللاّمتعين إلى حد بعيد .

فثمة حاجة إذن إلى قيام مؤسسة اجتماعية ترنو إلى تحقيق التكامل بحيث تكون منسجمة مع المؤسسات المتباينة والمُتطوّرة بالمجتمع الحديث . ولقد عثر دوركايم على تلك المؤسسة المنشودة فى المجموعة المهنية "Occupational Group" أو النقابة Corporation .

وهذه المجموعة مُنظّمة على أساس الوظائف والمصالح المشتركة وقد صارت تتخذ شخصية جمعية . ويوافق دوركايم على أنه لا يوجد مبرّر على الإطلاق لأى جهد تبذله النقابة ، لا يؤدى إلى كسْب العامل الشخصية المحترمة الحاصلة على وضع مرموق ، وهو ما يمكن اكتسابه بأى مجتمع قائم على أسس نظامية سوية عن طريق خدمة المصالح الاجتماعية وإعطائها الأولوية على المصالح الشخصية .

أما كتاب الأشكال الأولية للحياة الدينية "Elementary Forms Of The Religious Life" الذى نشر عام ١٩١٢ فهو آخر أعماله الهامة . ولكنه خلافًا لكتابه الانتحار الذى كان قائمًا على أساس بحث أصيل ، فإن هذا الكتاب يسير فى إثْر مصادر من المعلومات الأنثروبولوجية التى دُوّنت عن استراليا . وهذا الكتاب ليس هامًا كبحث حول الدين البدائى فحسب ، بل إنه يعتبر دعْمًا أساسيًا أيضًا للنظرية الاجتماعية ، ولمبحث المعرفة بصفة عامة .

وفى القسم الأول من هذا الكتاب يشير دوركايم إلى مصدر هام للمادة الاجتماعية المتعلقة بالدين . والواقع أن علماء الأنثروبولوجيا الإنجليز هم الذين أثاروا اهتمامه فيما يتعلق بأصل الدين وتحليله ، ومن أهمهم روبرتسون سميث Robertson Smith وفريزر . ولقد اطلع على بحث سميث قبل عام ١٨٩٥ ونعته بأنه بحث مُلْهم . وهو يقرر أن جميع البحوث التى اضطلعت بها ، يجب أن أتناولها من جديد بجهود متجددة حتى تصير منسجمة مع هذه الآراء الجديدة .

وعندما عكف على دراسة موضوع الدين باستفاضة ، اتخذ موقفًا مضادًا للطريقة التى عالج بها تيلور وفريزر وسميث هذا الموضوع . وبدلاً من اختيار حالة بالذات للدراسة المستفيضة ، كالطوطمية الأسترالية مثلاً ، فإنه تناول هذه الدراسة فى ضوء الفروض المألوفة ،

Looloo
www.dvd4arab.com

وهى أن الدين شأنه شأن أى مؤسسة اجتماعية يجب أن نتناولها كاستجابة لحاجات اجتماعية محددة . فالدين كظاهرة اجتماعية ، إنما هو نتاج للفكر الجمعى .

ويُعرِّف دوركايم الدين بأنه نظام مُوحّد من المعتقدات و لممارسات بإزاء أشياء مقدسة ، أعنى أشياء محددة يُنْهى المرء عن ممارستها . فهو مجموعة من المعتقدات والممارسات تعتمل فى مجتمع أخلاقى مُعيَّن ، ويندرج فى نطاقه جميع هؤلاء الذين يستمسكون بتلك المعتقدات والممارسات . ودوركايم يؤكد منذ البداية أن الدين يجب أن يمتد بأصله إلى واقع محسوس .

ويقوم دوركايم بعمل تمييزين يُشكلان دراسته بالكامل : فثمة أولاً ـ التمييز فيما بين المعتقدات **Beliefs** والطقوس **Rites** باعتبارهما فئات للظواهر الدينية . وثمة ثانيًا ـ التمييز فيما بين المقدس **Sacred** والدنس **Profane** . والأول يميز بين كل من عناصر الفكر **Thought** وعناصر العمل **Action** . أما الثانى فإنه يميز فيما بين الاتجاهات الدينية وبين التوجُّهات الإنسانية الأخرى . ولقد وجه دوركايم جُلّ الاهتمام إلى الأفكار المقدسة .

ويذهب دوركايم إلى أنه لا يوجد شىء له صفة جوهرية كما هو حال الطوطم الذى يستثير توَجُّهًا مقدسًا ، بل الأحرى أن نقول إن إضفاء معتقد معين على شىء ما ، هو الذى يجعله مقدسًا . وبتعبير آخر فإن الشىء المقدس هو عبارة عن رمز . فهو يقوم مقام حقيقة معينة ، ومن الواجب ألا يوجّه بحث للكشف عن أصل الأفكار والأشياء ، بل يجب أن يوجّه إلى الحقائق التى ترمز لها تلك الأفكار والأشياء . فعند دوركايم كباحث وضعى ، يجب أن تكون تلك

الحقيقة "**Reality**" قابلة لأن تلاحظ ، وتلك الحقيقة هى المجتمع نفسه . ذلك أن المجتمع وحْده يمكن أن يلاحظ كممارس للسلطة الأخلاقية . فالدين هو مجتمع اتخذ صورة رمزية ، وقد تسامى إلى موقع السلطة الأخلاقية التى لا يمكن مهاجمتها . والمجتمع كتعبير عن العواطف الجمعية للشعب ، هو حقيقة أخلاقية قبل كل شىء . والدين هو المُمثّل المتجسد لذلك الواقع . ومن الأفضل أن نقول إذن كما فعل بارسونز إن المجتمع فى نظر دوركايم هو ظاهرة دينية بدلاً من أن نقول إن الدين هو ظاهرة اجتماعية . والواقع أن دوركايم يقرر أن جميع المؤسسات الاجتماعية العظيمة قد ولدت انبثاقًا من الدين ، وأنه إذا كان الدين قد قدَّم كل ما هو أساسى بالمجتمع ، فلأن فكرة المجتمع هى روح الدين .

ولا يمكن أن يظل أى مجتمع متماسكًا ، ما لم يتوافر له التكافل والتعاون . فهو يستمد دعمًا مستمرًا ورسوخًا لأركانه منهما ، وهو ما يمكن أن يتوافر من خلال الممارسات والأفكار الدينية ، حيث يمكن أن تمارس المشاعر والتوجُّهات والعواطف الضرورية ويُعبّر عنها فى سلوك المرء على المستوى الرمزى .

إذن فوظيفة الدين هى رعاية السلوك البشرى الضرورى الذى يُحتّمه الوجود الاجتماعى على المستويات اللاشعورية ، والاستمرار فى دعمه ، وكذا مراعاة القيود المفروضة بإزاء الملذات والنزوات ، وتأكيد أهمية التضحية فى سبيل قضية اجتماعية معينة واتخاذ موقف إيجابى تجاه التعاون ، والاعتراف بوجود قوة أعلى من قوة الفرد . فبهذا الفهم للدين يكون من الممكن إذن التوصُّل إلى معنى للطقوس الدينية التى قد تبدو بلا معنى إذا ما نظر إليها من خلال أى منظور آخر . والواقع أن التمييز بين الأشياء المقدسة والأشياء النجسة ،

Looloo
www.dvd4arab.com

أعنى العبادة السلبية ، إنما هو حدّ من حرية التصرف بازاء موضوعات وأحداث معينة ، وفى الوقت نفسه دعّم للامتناع عن الانكباب على بعض اللذائذ ، والتمسك بالزهد وتحمّل الألم . أما من الزاوية الإيجابية ، فإن ثمة ممارسات معينة بازاء الدين كالطقوس المتعلقة بتقديم الأضحيات ، وهى تعمل على دعم الإحساس بالجماعية ، والاعتماد على قوى تفوق قوة الفرد .

وبوجه عام ، فإن ممارسة الطقوس تسمح بالقيام بممارسة إيجابية ، وكذا التعبير عن القيم والاتجاهات الاجتماعية لدى الشعب ، وهى القيم والاتجاهات التى لا يمكن فهمها بطريقة عقلانية ، بل يجب دعّمها بالممارسة من فترة إلى أخرى . فحتى يتسنى أن تحتل هذه العواطف المشتركة بؤرة الشعور ، فإنها يجب أن ترتبط ارتباطا حميمًا بموضوعات وقوى خارجية (أشياء مقدسة) حتى يتسنى بذلك ممارستها وإخضاعها لإرادة المرء . والواقع أن الخطأ الذى يقع فيه معظم دراسى الدين ، هو العزوف عن هذه العواطف الإنسانية التى يتم التعبير عنها وعدم التأكيد على وجود قوى خارج نطاق الإنسان ، وهى بالطبع خارج نطاق أى فرد ، وذلك لأنها ذات سمات جمعية أو أنها قوى اجتماعية . ناهيك عن أن أصلها البشرى لا يجعلها أقل سموا . أما المثل العليا فى جميع الأديان العظمى ، فهى مُثل عليا تتعلق بالمجتمع . وعلى الرغم من أنها لا تتحقق بالكامل على الإطلاق بواسطة الإنسان ، فإنها تعمل على الأقل على حفظه بعض الشىء من الإنهيار .

والواقع أن الخلاصة العامة التى قدمناها هنا قد انبثقت من تحليل دوركايم للطوطمية فى استراليا ، وبتعبير أفضل فإن دراسة الطوطمية قد أكدت ما سبق أن تصوره دوركايم فيما يتعلق بالعلاقات بين الفرد

والمجتمع كما تبدت فى بحوثه المتقدمة . ولقد تبدّى له أنه قد أخطأ بالفعل بازاء نقاط هامة تتعلق بالطوطمية ، وبالتالى فإن تحليله التفصيلى قد أتى ضعيفًا . ولكن ما وقف عليه ما يزال جديرًا بالتناول والاهتمام .

ومن الإسهامات الرئيسية التى قدّمها دوركايم الأشكال البدائية للحياة الدينية - وهو ما يُغض عنه عادة من جانب الأنثروبولوجيين - هو ذلك الجانب المتعلق بمبحث المعرفة . فدوركايم كفيلسوف كان واقفا على المشكلات الدقيقة المتعلقة بنظرية المعرفة . وكان هذا من المشكلات الرئيسية التى عرض لها كانط **Kant** ، والتى قام دوركايم بقراءتها ومدارستها باهتمام عظيم على الرغم من الشكوك الكثيرة التى راودته بازائها . ولقد كان مهتمًا بصفة خاصة بما يسمى بالمقولات **Categories** المتعلقة بالوقت والامتداد والعدد والمادة والسبب وغير ذلك من مقولات . فهل هذه المقولات التى نتعامل من خلالها مع العالم فيتسنى لنا فهمه ، سابقة على كل خبرة وتعتبر جزءا من قوام العقل البشرى ، أم أنها مصوغة بواسطة العقل بعد المرور بالخبرة الحسية بازاء موضوعات العالم الخارجى ؟ فهذا التساؤل الكلاسيكى هو موضوع خلافى بين العقلانيين والواقعيين . بيد أن دوركايم لم يقبل أيًا من الاتجاهين . فشمولية المقولات ، وما تفرضه من قيد خارجى ، يناهضان الاتجاه الواقعى . ذلك أن هذه الأفكار لو كانت مُصاغة بواسطة الفرد ، فإنها كانت إذن قادرة على أن تتغير بتغير مزاجه ونزواته . فالواقعية هنا لا تُفضى إلا إلى اللاعقلانية **Irrationalism** . أما العقلانيون من جهة أخرى ، فإنهم يفترضون هنا وجود حقيقة موضوعية للحياة المنطقية ، ولكنهم لا يستطيعون تقديم أى تفسير للمقولات التى تفوق التصور . فلا يكون ثمة مناص من القول بأنها

Looloo
www.dvd4arab.com

مفطورة "Inborm" أو أنها تصدر عن عقل إلهى ، وهما تفسيران لا يمكن البرهنة عليهما من حيث المبدأ .

وعلى هذا فقد برهن دوركايم على أنه ، لا مناص من الاعتراف بالأصول الاجتماعية للمقومات المتعلقة بفهم تلك المقولات حتى يتسنى التوصل إلى التفسير السليم . فإذا كانت المقولات بمثابة تمثيلات جمعية ، فيكون من الميسور التغلب على الاعتراضات المناهضة للمواقف الكلاسيكية . وهى باعتبارها أفكارًا اجتماعية ، فإنها تفرض على الفرد فرضًا ، بحيث يكون مجبرًا على قبولها بغير أن يُقدَّم إليه أى برهان أو دليل . وهذه المقولات ضرورية لأن من المستحيل حدوث اتصال فيما بين العقول بدونها ، كما أن الحياة البشرية بدونها تتوقف عن الوجود بالتالى . والواقع أن التطابق المنطقى وأيضًا التطابق الأخلاقى يُعد شرطًا ضروريًا للوجود الاجتماعى . وهذا التفسير يساند الجوانب الإيجابية من التراث الواقعى لأنه يربط المقولات بالظواهر التى تقع تحت الملاحظة ، أعنى وقائع الحياة الاجتماعية . ففى استراليا مثلاً ، نجد بعض المجتمعات تتصور أن الامتداد المكانى عبارة عن دائرة ضخمة منقسمة وفق النمط الذى تنقسم إليه دائرة القبيلة فى المعسكر . فهو بالنسبة لها صورة للنظام الواقعى الموجود بالمعسكر . وكذا فإن الطقوس التقليدية لدى بعض الشعوب البدائية تقوم على أساس فكرة أن الشبيه ينتج شبيهه . فهذا مفهوم واضح للسبب "Cause" . ولقد نفترض أن المبدأ الأكثر دقة المتعلق بالسببية ، إنما هو نتاج اجتماعى أيضًا . ودوركايم يجد أن هذا يصدق بإزاء جميع المقولات الأخرى المتعلقة بالفكر البشرى .

فهذا باختصار هو ما امتد به دوركايم بإزاء الفروض التى كانت قد تشكلت لدى الناس جميعًا وفى نطاق خبرتهم قبل صدور كتابة

تقسيم العمل . على أن ما انتحى إليه الرجل من فكر ضخم وجرىء ، قد عرّضه بالضرورة للوقوع فى تناقضات وصعاب كثيرة ، ولكنه كان رجلاً عنيدًا لا يمكن وقفه عن تقديم ما يتضمنه محور تفكيره من مضامين متنوعة ودقيقة . فلقد كشف النقاب إلى حد بعيد عن مشكلات متباينة ظلت تشغل بال العلماء الاجتماعيين لمدة طويلة .

والواقع أن دوركايم يحتل مكانة هامة فى كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، فالأنثربولوجيون أكدوا على أهمية إسهاماته فى الكتابات الأنثروبولوجية ، وبخاصة عندما كان مديرًا لتحرير الحولية Anne'e ، وبفضل دراسته للطوطمية وطريقته المتسمة بالنزعة الوظيفية . أما علماء الاجتماع ، فإنهم وجهوا إليه اهتمامًا أقل بإزاء مساهماته فى دراسة الشعوب البدائية ، ولكنهم اعترفوا بأهمية نظرياته الاجتماعية بوجه عام ، وبخاصة ما تضمنه كتابه تقسم العمل وكتابه الانتحار . ولقد اعتبروه مؤسس المنهج الاجتماعى الحديث . ويبدو من الصواب أن نقول إن علماء الاجتماع قد أعطوا دوركايم مكانة أعلى فى مجال العلوم الاجتماعية مما فعله الأنثروبولوجيون بالولايات المتحدة على الأقل . وعلى أية حال فإن دوركايم شخصية عظيمة بلا شك ، ويُعامَل باحترام عظيم من جانب الباحثين فى كلا المجالين .

ولقد نُعت دوركايم بأنه الأول بين علماء الاجتماع المُحْدثين ، وأنه أبو النزعة الوظيفية فى الأنثروبولوجيا . وكلا النعتين قد اكتسبهما عن طريق منهجه المتميز . وعلى الرغم من أن فكرته المتعلقة بتطبيق مناهج العلوم التطبيقية بإزاء المعطيات الاجتماعية صعبة التطبيق ، فإنه فى الواقع قد ثبّت أركانها بدرجة ملحوظة . والواقع أن سبنسر وتيلور وفريزر وغيرهم كانوا يُسلّمون بهذه النظرة ، ولكنهم لم

Looloo
www.dvd4arab.com

يبدوا نفس القدْر من العناية ومن النزعة النقدية كما فعل دوركايم ، وكما تتطبع به بحوثه . بيد أن ثقته العظيمة فى التطبيق العام لمناهج العلم لم يكن لها ما يبررها ، ولكن هذا من العيوب التى يشاركه فيها غيره بمن فيهم العلماء الطبيعيون أنفسهم . والواقع أن علماء الاجتماع اليوم الذين ينتحون إلى إقامة علم للسلوك البشرى لا يتسنى لهم فى العادة أن يغضوا النظر عن الصعوبات والشكوك التى تعتور طريق علماء الطبيعة وعلماء الكيمياء .

ومما لا شك فيه أن الإسهام الرئيسى لدوركايم فى المنهج العلمى بإزاء العلوم الاجتماعية يتبدى فى فهمه للرمزية وللتغيرات الأساسية التى تقع بالمجتمعات المتباينة . وعلى الرغم من أنه يُعتَبر معاديًا لعلم النفس ، فإنه يبدو فى هذا الميدان كعالم نفس اجتماعى من الطراز الأول . وهذا يتضح بصفة خاصة فى التحليل الوظيفى للنزعة الطقسية وللإحتفالات بالمجتمعات البدائية حيث إنه أكّد على الربط بين هذه الأنشطة الرمزية بما يضطلع الناس به بالفعل فى ممارساتهم الاجتماعية اليومية .

ومن حيث الجانب السلبى ، فإن دوركايم يتعرض للنقد المستمر بسبب إهماله لعلم النفس . فهو فى تأكيده على أهمية دراسة المجتمع كواقع فى ذاته ، قد رفض أن يتناول علم النفس الفردى ودرّجه فى إطار علم الاجتماع . ذلك أنه يعتقد أن تجمع مجموعة من الأفراد البشريين بعضهم مع بعض ، يؤدى إلى خلق ظواهر سلوكية خارج نطاق قدرات أى من أولئك الأفراد الذين تشكلت منهم تلك المجموعة . وعلى هذا فإن دوركايم يتساءل : هل يتسنى لنا أن نفسّر هذه الظواهر بأن نجعل الفرد محورًا للمشكلة ؟ الواقع أنه طالما أن الإنسان ،

لا يعدو أن يكون نتاجًا اجتماعيًا بالدرجة الأولى ، فإن دراسة المجتمع يجب أن تسبق دراسة السلوك الفردى ، وأن تحتل مكانة الصدارة .

ولقد وجّه بارسونز الانتباه إلى أن التناقض الذى يتبدى فى بحوث دوركايم ، إنما يكمن فى تمسكه بتعاليم المدرسة الوضعية من جهة ، وفى تناوله للأهداف والتوجهات والعواطف والقيم كظواهر على أكبر قدر من الأهمية فى دراسة المجتمع من جهة أخرى . فالقوى الجبرية الضاغطة التى يبديها المجتمع ، لا يمكن إخضاعها للملاحظة المحسوسة كما يطالب الوضعيون ، ولكنها لا تفهم بأى حال إلا بعد جهد تخيُّلى كبير . ولكن هذا النقد الموجه إلى دوركايم لا يبدو أنه هام جدًا عندما نتذكر أن من الصعب تحديد معنى لفظ ملاحظة "Observation" . ولكن ما له أهمية أكثر من ذلك عندما نتناول ما يفعله العالم بالفعل ، وليس ما يقول إنه أخذ فى عمله . فما فعله دوركايم هو أنه جعل نفسه على ألْفة بمجموعة ضخمة ومتنوعة من المُعْطيات الثقافية ، وقد عمد إلى البحث عن قوانين عامة تخضع لها العلاقات ، كما اهتم بتشكيل فروض ونظريات يمكن بواسطتها تفسير الطريق المؤدى إلى تحسين حال الناس بالمجتمع محاولا تحديد ذلك الطريق .

والواقع أن دوركايم كان له تأثير عظيم فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وبخاصة فى فرنسا وانجلترا . بيد أن من الصعب تقييم تأثيره العام . ولكن باعتباره أول من قام بتوظيف أفكاره ، فإن تأثيره صار بعيد الشأو . وهو كداعية لوجهة النظر العضوية "Organic" ، قد ساهم فى تطوير ما يعرف الآن بالأفكار الفوق عضوية "Superorganic" . ويقرر لوى Lowie أن دوركايم قد أوضح فكرة النمط "Patterm" التى صارت شائعة فيما بين الأنثروبولوجيين الأمريكيين الذين يجتهدون فى البحث عن فكرة

Looloo
www.dvd4arab.com

مركزية أو عن مزاج أو عن ترتيب مُعيّن يتبدى فى جميع الممارسات الشائعة بكل مجتمع من المجتمعات التى يقومون بمدارستها .

أخيرًا فإن دوركايم اليوم ليس مجرد شخصية تاريخية ، بل إن أعماله وبخاصة فيما يتعلق بميدان علم الاجتماع ، يتم مدارستها بجدّية وعمق ، بفضل الضوء الذى توجهه إلى المشكلات والنظريات المعاصرة . فمن الواجب توجيه الاهتمام إلى ما شغل اهتامه ، وإلى ما قام بإنجازه وتقديمه من بحوث قيّمة .

★ ★ ★

الفصل التاسع عشر

فرانز بوس Franz Boas

بدأ فرانز بوس نشاطه الأنثروبولوجى فى عام ١٨٨٣ برحلة قصيرة قام بها إلى بافينلاند Baffinand ، وكانت هذه خبرة هامة جدًّا اكتسبها وأكسبها لعلم الإنسان . وتكفّلت جريدة ألمانية تسمى برلينار تاجيبلات Berliner Tageblatt بالإنفاق على مصاريف هذه الرحلة ، كما قامت بنشر خطاباته ومقالاته التى كتبها فى أثناء قيامه بها .

ولقد كان لتعامله المباشر مع الإسكيمو هناك ، أثر حاسم فى تحويل اهتماماته من الظواهر الطبيعية إلى الظواهر البشرية ، إذ إنه قام بالكتابة عن الإسكيمو بعد سنوات قليلة بعد ذلك بعاطفة جياشة قائلاً : « لقد رأيت أنهم يستمتعون بالحياة القاسية كما نفعل نحن . فالطبيعة جميلة فى أعينهم ، كما أن مشاعر الصداقة تمتد بجذورها فى قلب كل واحد منهم . وعلى الرغم من أن طابع حياتهم يتسم بالخشونة بالمقارنة بالحياة الحضارية ، فإن الإسكيمو إنسان أولاً وقبل كل شىء شأنه شأننا . فمشاعره وفضائله ونقائصه تقوم على أساس ما تتسم به الطبيعة البشرية على النحو نفسه الذى نضرب نحن فى إثره » .

ولقد قضى بوس العامين التاليين ، أعنى عامى ١٨٨٤و١٨٨٥ فى نيويورك ، ثم تحول بعد ذلك إلى ألمانيا حيث عمل مساعدًا لمتحف فولكركوند Muscum For Volkerkunde وهو مؤسسة قام بإنشائها الأنثروبولوجى الشهير أدولف باستيان Adolf Bastian . وفى عام ١٨٨٦

Looloo
www.dvd4arab.com

قام بدراسة مجموعة من هنود بللا كولا Bella Coola Indians كانوا قد نقلوا إلى برلين ، وقرر بعد ذلك سبر أغوار مجال جديد هو فى هذه المرة كولومبيا البريطانية ، ثم عاد بعد عام واحد من هذه الرحلة إلى نيويورك ، أى فى عام ١٨٨٧ حيث شغل وظيفة مساعد رئيس تحرير مجلة العلم Science . وفى هذه السنة ذاتها تزوج مارى كراكووتزر Marie Krackowizer ، وقرر أن يصير مواطنًا أمريكيًا . وعاد إلى كولومبيا البريطانية فى صيف عام ١٨٨٨ لدراسة القبائل الهندية الشمالية الغربية ، وكان هذا بداية لدراسة أنثروبولوجية خالدة .

وفيما بين عام ١٨٨٨ وعام ١٨٩٢ اشتغل بكلية جامعة كلارك حيث حصل على درجة الدكتوراه فى الأنثروبولوجيا ، ثم استقال من جامعة كلارك فى عام ١٨٩٢ وشغل منصب رئيس مساعد فى قسم الأنثروبولوجيا بمعرض شيكاغو . وفى عام ١٨٩٥ شغل منصب أمين مكتبة الأنثروبولوجيا بالمتحف الميدانى بشيكاغو Field Museum ، وظل يعمل هناك إلى أن تسبب خلاف شخصى نشب بينه وبين بعض الزملاء هناك فى استبعاده . وفى عام ١٨٩٦ عمل أمينًا لمكتبة المتحف الأمريكى للأعراق البشرية . وفى عام ١٨٩٩ بدأ عمله الطويل كأستاذ للأنثروبولوجيا بجامعة كولومبيا . وشغل أيضًا منصب أمين مكتبة المتحف الأمريكى لمدة سبع سنوات من عام ١٩٠١ إلى عام ١٩٠٨ ، وكان مسئولاً فى أثناء ذلك عن الكثير من الدراسات والمكتشفات الهامة التى اضطلعت بها هذه المؤسسة فى مجال الأنثروبولوجيا .

والواقع أن بوس كان يكره السلطة ، سواء كانت سلطة التراث أم سلطة الإدارة الجامعية . فكان يندفع فى المقاومة والتحدى . ولقد كان يحُض تلاميذه على ممارسة الاستقلال فى الفكر والعمل ، كما كان

ينعى على أولئك الذين لا يتمتعون بالاستقلال الشخصى . وظل طوال حياته يحارب السلطة بما فى ذلك سلطته شخصيًا . فعندما كانت أى من أفكاره تهدد سياق عمله ، فإنه كان يطّردها من ذهنه ويقفو إثر فكرة أخرى . وعلى الرغم من أنه يعتبر أعظم بطل فى تاريخ الأنثروبولوجيا الأمريكية ، فإنه لم ينشئ لنفسه جماعة تلتف حوله وتشكل مدرسة فكرية متميزة .

ومن المواقف التى أشعلت ثورته ضد السلطة إعلان أحد أصدقائه أنه يؤمن إيمانًا مطلقًا بسلطة التراث ، وأنه يعتقد أن ما من أحد له الحق فى أن يشك فى أى شىء يحمله الماضى إلينا . لقد ارتعد بوس من هذا التصريح ، وقال بعد سنوات إن ذلك الموقف بينه وبين صديقه ذاك ، كان له تأثير قوى بعيد المدى فى تفكيره طوال حياته كلها .

وعلى الرغم من أن بوس كان يمارس مناهج العلوم بإزاء الأنثروبولوجيا ، وبخاصة فيما يتعلق بخطوات الاستقراء ، فإنه كان فى العادة متشككًا فى إمكان التوصل إلى تعميمات مفيدة بإزاء الأنثروبولوجيا . وعلى هذا فقد كانت هناك تباينات فى الآراء بين طلاب بوس والمعلقين حول ما إذا كان بوس يعتقد فى صواب أو خطأ القوانين المتعلقة بالتطور الاجتماعى . فمن الممكن أن تجد الرأى ونقيضه فيما قام بوس بكتابته بصدد الموضوعات الأنثروبولوجية التى عرض لها .

فهو يقول مثلاً : إننا نتفق على أن ثمة قوانين معينة مؤكدة تهيمن على نمو الثقافة البشرية . ومهمتنا أن نقوم باكتشاف تلك القوانين . ولكنه يقول فى سياق آخر : ثمة تباين أساسى بين الظاهرة المعقدة التى أخذت فى النمو فى السياق التاريخى ، وبين القوانين العلمية

Looloo
www.dvd4arab.com

المُعمّمة . فما تتصف به الأحداث التاريخية من تعقيد ، يجعل الحياة الثقافية لدى أى شعب ، بل ولدى أى قبيلة ، غير قابلة للدراسة إلا باعتبارها ناشئة عن تلك الظروف الفريدة التى عاشت فى كنفها .

فهو يعتقد أن من الحق علينا أن نتساءل : إلى أى حد يمكن أن توجد قوانين محددة تعبّر عن عمليات متشابهة تحدث بالمجتمعات المتباينة .

وقد يكون هذا إشارة إلى أن من الممكن التوصّل إلى تعميمات بعد دراسة المعلومات الأنثروبولوجية المقارنة . بيد أنه رفض أن يذهب إلى ما هو أبعد من تناول الشواهد المباشرة فى وصف إحدى الثقافات . وحيث إن تناول أى مجتمع بالدراسة الدقيقة اللازمة للتوصل إلى تصور متكامل من الصعوبة بمكان ، فإنه لذلك لم يزعم أن بمقدور أحد القيام بمثل تلك الدراسة .

ومن الممكن فى الواقع العثور على الكثير من التناقضات فى كتابات بوس . ويمكن تفسير ذلك بأن قيامه بوضع النظريات ، كان بمثابة هجوم عنيف ضد ما كان شائعًا فى زمانه من نظريات ومذاهب . ولقد كان أولاً وقبل كل شىء واحدًا من الشكّاك والمحللين . ففى عام ١٨٩٦ قام بتوجيه ضربة عنيفة إلى نظرية التطور وإلى المنهج المقارن لم يفق من أثرها الأنثروبولوجيون الأمريكيون حتى اليوم . وقدّم منهج « التفسير التاريخى » بدلاً من منهج « التفسير التطورى » ، وكان يهدف من ذلك إحلال الطريقة القياسية والطريقة الاستقرائية محل الطرائق التى كانت متبعة وقتئذ . ولا يتسنى هذا إلا بالعكوف على مدارسة جبهات ثقافية محددة بعناية ، ثم القيام بعد ذلك بمقارنة العمليات المتعلقة بالنمو الثقافى فى كل نطاق منها ، حتى يتسنى التوصل إلى تعميمات استقرائية ذات بال . يقول بوس بهذا الصدد : « إننا عندما نقوم بالوقوف بدقة على تاريخ إحدى الثقافات ، ونفهم

آثار البيئة والظروف السيكولوجية التى تنعكس عليها ، فإننا نكون بذلك قد خطونا خطوة إلى الأمام . وبذا يكون من الممكن أن نقوم بدراسة المدى الذى تؤثر به الأسباب نفسها وغيرها فى تطوير الثقافات الأخرى . وعلى هذا فبمقارنة تواريخ التطور ، يكون من الممكن التوصل إلى قوانين عامة » .

والواقع أن النقطة الرئيسة التى ساقها بوس ضد التطوريين وضد طريقتهم المقارنة ، هى أنهم يعزون تشابهات ثقافية إلى العمليات المتطابقة ، على أساس زعم باطل ، هو أن العقل البشرى ينهج وفق القوانين ذاتها فى كل مكان . فهو يبرهن على أن من غير الأمن أن نقارن نتائج التطور الثقافى فحسب فى ضوء التقاليد الاجتماعية والسمات والمعتقدات المتشابهة التى يمكن أن تنشأ عن أسباب متباينة . فمن غير الممكن البحث عن قوانين عامة للتطور الثقافى إلا بعد القيام بدراسة مستفيضة لعمليات التطور فى مناطق جغرافية صغيرة ، ثم القيام بعد ذلك بمقارنة تاريخ تطور كل منها على حدة .

ولقد أُطْلق على الفترة فيما بين ١٨٩٥و١٩٠٥ من حياة بوس اسم : « الفترة الحماسية "Enthusiastic Period" » . فلقد أخذ خلالها فى كشف النقاب عن المبالغات التى شابت عمل التطوريين ، كما أنه فى الوقت نفسه قدم برنامجًا إيجابيًا يتضمن بناءً تاريخيًا محدودًا ، وتشكيلاً لقوانين التطور الثقافى . ولقد صار تاريخ الثقافة وتفسير تطورها من المهام الرئيسية لدى الأنثروبولوجيين الأمريكيين فيما بين عامى ١٩٠٠و١٩٢٠ بفضل تأثيره . على أن بوس ، قد ازدادت شكوكه بإزاء التفاؤل الذى قادت إليه أفكاره ، كما أنه خلال السنوات التى تلت ذلك ، قد حوّل اهتمامه إلى دراسة المعلومات المتجمعة ، ثم تحول بعد ذلك إلى النزعة التوظيفية ، كما اتجه أخيرًا إلى مشكلات

Looloo
www.dvd4arab.com

ثقافة الشخصية . ولقد صار غير مقتنع بأى مذهب يهدد بالتمادى فى التفسير ، كما صار ينتحى إلى مهاجمة أى مذهب يُفرط فى تبسيط المشكلات . ومن هنا فإنه صار الواضع لمذهب ليست له ملامح محددة .

والواقع أن هذا الاتجاه قد أدى إلى نشوب بعض الخلافات بينه وبين بعض تلاميذه ، كان أشهرها ذلك النزاع الذى كان متبادلاً بينه وبين كروبير **Kroeber** والذى نشر فى مجلة الأنثروبولوجى الأمريكى **American Anthropologist** . وكروبير باعتباره تلميذًا قديمًا لبوس ، كان مقتنعًا بأن من الممكن إقامة بناء جديد مفيد عن طريق استخدام التاريخ المقارن ، كما صار مقتنعًا باستخدام الأنثروبولوجيا باعتبارها علمًا تاريخيًا . وبعد عدة سنوات عندما تحوّل بوس إلى وجهة نظر مضادة ، فإن كروبير احتج عليه . ولكن بوس فى إجابته على احتجاج كروبير ، أخذ يوبّخه لأنه كان قانعًا بمستوى متواضع من الاحتمالات بإزاء النتائج التى توصل إليها ، ونعته بأنه شخص أبيقورى . وعبّر بوس عن نفسه بأنه عدو لكل نظرية تأملية ، وانتهى إلى أن : النظم المُطلقة بإزاء الظواهر المعقدة كتلك الظواهر المتعلقة بالثقافة ، إنما هى نظم يستحيل إقامتها . والشىء الوحيد المؤكد هو أن التعميمات العلمية المتعلقة بالثقافات المباينة لثقافتنا مستحيلة . وكان لهذا تأثير بعيد المدى فى الأنثروبولوجيا الأمريكية بوجه خاص .

والواقع أن هذه النزعة الشكّية المتطرفة حتى ولو كانت مفيدة فى بعض الأحيان ، فإن لها بعض النتائج السيئة . فلقد قيل إن كروبير عندما عرض أن يُظهر بوس على قائمة تتضمن الألفاظ اللغوية المقارنة التى تبرهن على صحة العلاقات الموجودة فيما بين اللغات الهندية بأمريكا الشمالية ، فإن بوس رفض أن يتصفحها قائلاً : إنه

لا يحس باهتمام بإزائها . ويقال : إن هذه الواقعة قد حدثت خلال مناقشة حول مجال اللغات بدءًا بتصنيف سابير **Sapir** للغات الهندية بأمريكا الشمالية ، ولكن بوس أنكر وجود تلك العلاقات التى زعم سابير أنها موجودة . وتبعًا لبعض الخبراء ، فإن الخلاف بين بوس وتلاميذه حول بحث سابير ، قد أعاق التقدم فى هذا المجال جيلاً بأكمله .

ولقد ازدادت شكوك بوس أكثر فأكثر فى هذه النظرية مع مرور السنوات ، وصار يركز طاقته الضخمة فى الدراسة المستفيضة لمجالات محدودة ، وذلك باستخدام المناهج الإحصائية الدقيقة والمضنية التى استطاع أن يعثر عليها . بيد أنه لم يعثر على شواهد كافية لدعم أى تعميم ، وذلك لأنه كان متمسكًا كعادته بالمنهج الاستقرائى الذى يمارس فى نطاق العلوم الطبيعية .

ولقد مكّنه إصراره على النسبية الثقافية **"Cultural Relativism"** ـ وهو ما دأب عليه خلال بحوثه كلها ـ على أن يقوم بدراسة أى ثقافة من الثقافات التى تناولها بحد أدنى من المفاهيم المعتمدة الخاصة بالأعراق البشرية . وإلى الحد الذى يعمل فيه هذا التوجّه على التحرز من إصدار أحكام قيمية فى ضوء القيم الشائعة فى ثقافتنا بإزاء الثقافة التى نقوم بدراستها ، فإنه شرط ضرورى بلا شك بإزاء مدارسة ميدان مهم كهذا ، وأيضًا بإزاء التحليل الثقافى . ولقد كان لبوس تأثير عظيم فى جعل هذا الاتجاه شائعًا فى دراسة الأنثروبولوجيا . والواقع أن بعض الطلبة بدءوا يتساءلون عما يمكن أن تسهم به الأنثروبولوجيا فى معرفة السلوك البشرى بعد أن شاهدوا ما توصل إليه بوس من أخذ بالنسبية الثقافية إلى الحد الذى ظهر وكأنه لا يعتقد فى إمكان تقديم أى مقررات نسبية وعامة حول الثقافات .

Looloo
www.dvd4arab.com

ومن الممكن فى الواقع أن نربط فيما بين بوس وبين كل مذهب نظرى ومنهجى رئيسى فى الأنثروبولوجيا الحديثة . فلقد عكف دائما على البحث عن وسيلة لحفظ الأنثروبولوجيا متحررة من النظرية التأملية ، وأعطى صوته لأى نظرية تساعد على هدم أو إضعاف العقائد الشائعة . ولقد عمل عدم صبره على التأمل النظرى على جعله فى طليعة الأنثروبولوجيين ، كما صار عاملاً من عوامل فتح مجالات جديدة مهمة للبحث والتحليل . ومن الممكن أن نقول : إن كل بحث فى مجال الأنثروبولوجيا منذ عهد بوس قد تأثر فيما يتّبعه من مناهج بمنهجه ، بدءًا من بحوثه . ناهيك عن أن بوس ربما يكون قد مارس تلك المناهج قبله . ومن الممكن أن نقول ذلك إذا نحن أغضينا عن مدى الاهتمام الذى أولاه لتلك المناهج .

والواقع أن مدى اهتمامات ومنجزات بوس فى مضمار الأنثروبولوجيا لم تُقيَّم بوساطة أى عالم أنثروبولوجيا باستثناء كوربير . فالواقع أن اهتماماته ومنجزاته قد اشتملت على المجالات الرئيسة فى الأنثروبولوجيا الفيزيائية والثقافية .

ولقد كان بوس قانعًا بالمعلومات التى أمكن جمعها وتصنيفها بحيث تصير قابلة للتحليل الإحصائى . فهو فى دراساته الشهيرة للأجناس البشرية ومعدلات النمو الجسمى وتطوره ، قد استفاد إلى أقصى حد بالتقنيات والتحليلات الإحصائية ، كما أنه استبعد الطريقة التحليلية فى دراسة الأنماط الجسمية ، وأحل محلها التقنيات الحيوية فيما قام بجمعه من كميات هائلة من المعطيات التى قام بدراستها .

أما إسهامه الرئيسى فى تفهُّم الجنس البشرى ، فقد تمثَّل فى إصراره على مرونة الأنماط الجسمية البشرية إلى حد بعيد . فلقد

تصور الإنسان باعتباره حيوانًا تم ترويضه ، مؤكدًا أنه يتصف بعدم الثبات من حيث خصائص نمطه الجسمى ، شأنه فى ذلك شأن الحيوانات التى يتم ترويضها . ولقد أورد فى دراسة مثيرة نشرت فى عام ١٩١٢ تلك التباينات التى تتعلق بأشكال الرأس فيما بين ١٧٨٢١ شخصًا قام هو وثلاثة عشر باحثًا مساعدًا بقياسها . وأظهرت النتائج وجود تباينات مهمة تتعلق بأشكال الرأس بين المهاجرين الأمريكيين وبين أولادهم المولودين بامريكا ، كما أظهرت الاختلافات التى تترتب بطريقة مباشرة على المدة التى قضاها الآباء بالولايات المتحدة . فتلك التباينات كانت فيما بين الأشخاص الذين تمت دراستهم (وهم إيطاليون وتشيك ويهود) وقد كانوا جميعًا من النمط الأنجلوسكسونى الشائع بالولايات المتحدة .

وبصدد اختيار بوس لمعيار رئيسى يقيس فى ضوئه ما يحدث من تغيرات فى شكل الرأس بسبب تأثير البيئة ، فإنه وقع على السمة الأكثر شيوعًا والتى كان يفترض فيها الثبات ، ولكنه لم يُقدِّم أى تفسير يوضح به الكيفية التى حدثت بها تلك التغيرات ، ولكنه بتواضع مشوب بالمرارة انتهى إلى القول بأن كل ما يتسنى لنا تقريره هو أن المعايير الرئيسية قد تخضع لتغيرات معينة مع مرور الوقت دون وقوع تغيرات فى الأشياء التى نقوم بقياسها . على أن هذه الدراسة بالإضافة إلى الدراسات الأنثروبولوجية المعيارية الأخرى ، قد أفادت إلى حد بعيد فى تقديم بعض المفاهيم المهمة التى تدل على أن الإرثات البشرية التى تنتقل من خلال جرثوم البلازم ؛ لا تحمل خواصًا ثابتة ، وإنما هى إمكانات تعتمد على البيئة لكى تتخذ شكلاً معينًا . وعلى هذا فإن التناقض بين الطبيعة والتطبيع قد تلاشى بهذا التفسير إلى حد بعيد .

Looloo
www.dvd4arab.com

ومن بين الدراسات المهمة جدًا التى اضطلع بها بوس بإزاء تأثير البيئة فى النمو والتطور ، دراسته لأطفال الملجأ اليهودى للأيتام Hebrew Orphan Asylum فى مدينة نيويورك ، ولقد أظهرت هذه الدراسة قيمة البيئة المنزلية التى تفوق فى أهميتها بيئة المؤسسات فيما يتعلق بالنمو الصحى العام ، كما أنها أظهرت أكثر من ذلك الأثر الصحى فى تطور شخصيات الأطفال فى ذلك الملجأ الخاص بالأيتام ، وهو الأثر الذى ينجم عن تغير الإدارة . بيد أن العوامل التى أثرت فى تلك التغيرات لم تكن محصورة فى نطاق التغذية والعناية الصحية ، بل شملت أيضًا مستوى النظام المتّبع والاهتمام بإشباع الحاجات الفردية لدى الأطفال . ولقد أيّدت الدراسات الحديثة المتعلقة بالصحة العامة وتطور شخصيات الأطفال ـ وهى الدراسات التى أجريت فى بيوت اللقطاء وما يشبهها من مؤسسات ـ ما ذهب إليه بوس فى هذا المضمار ثم توّسعت فيها إلى حد بعيد .

ومن المرّجح أن بوس فى كتابه الشهير عقل الإنسان البدائى "The mid Of Primiive Man" قد أسهم أكثر من أى شخص آخر فى إلقاء الضوء على مسألة الأجناس البشرية ، وأطلق على هذا الكتاب اسم مجنا كارتا المساواة بين الأجناس البشرية "Magna Carta Of Race Equality" ، وبرهن فى هذا الكتاب بوضوح على أن أجناس البشرية كانت مختلطة بعضها ببعض ، ولم تكن ثابتة بلا تغيرات فى قوامها ، وأن النمط الجسمى لا يحمل أى علاقة فطرية بالنسبة لعقلية الإنسان أو صفاته الأخلاقية أو بالنسبة للغة أو غير ذلك من سمات ثقافية . ولقد استمر بوس طوال حياته وهو ينشد القيام بعمل تطبيقات إنسانية عملية فى ضوء ما انتهى إليه بحثه حول أجناس البشرية .

وكان بوس مهتمًا خلال بحوثه كلها بالأدب الشعبى ، كما كان معتقدًا فى أهميته الأساسية لفهم الثقافات الأجنبية . فقدّم إسهامات أساسية فيما يتعلق بالنقوش الشعبية الخاصة بثقافات التسيمشيان Tsimshian والكواكيوتل Kutenai Kwakiutl والكيريس Keres . وكان باعتباره رئيسا لتحرير مجلة الفولكلور الأمريكية Journal Of American Folklore فيما بين عامى ١٩٠٨و١٩٢٥ مسئولا عن النهوض بهذا المجال مما أدى إلى جمع الكثير من المعلومات حول الهنود الأمريكيين الشماليين .

وفى دراسته للأساطير التسمشانية Tsimshian التى كانت أكثر الأساطير تناولا فى هذا المجال ، أخذ يؤكد العلاقة فيما بين الأسطورة وبين جوانب الحياة اليومية للشعب وهو يقول بهذا الصدد ... إن تلك الشواهد المتعلقة بالحياة اليومية التى لها أهمية فى نظرهم سوف تتبدى إما بطريقة تلقائية ، وإما كأساس للتخطيط . ومعظم الشواهد المتعلقة بنمط حياة الشعب إنما هى انعكاس دقيق لعاداتهم . وأكثر من هذا ، فإن فحوى القصة ، سوف تجلى بوضوح عما يعتبر صوابًا وما يعتبر خطأ ... فهى تقدّم طريقة تعبّر القبيلة من خلالها عن سيرتها ومنهجها فى الحياة . ولقد ظل الفرد فى نظر بوس هو محور جميع المؤسسات الاجتماعية ، كما ظل يؤكد أنه من الممكن النظر إلى معظم المذاهب الفلسفية والدينية الخاصة بأى شعب ، كتعبيرات صادرة عن المؤسسات الاجتماعية ، الأمر الذى يجلى عن الأفكار الشائعة ، وعن الاتجاهات والقيم التى يأخذ بها مجموع الشعب .

وهناك من يزعمون أن بوس كان واحدا من الممارسين للتوظيف " functionalist " قبل أن يكتب الباحثون من أمثال مالينوفسكى Malinowski وراد كليف براون ـ Radcliffe Brown سطرا واحدا .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكى يبرهنوا على زعمهم هذا ، فإنهم يشيرون إلى جهوده التى بذلها فى مضمار الأدب الشعبى والأسطورة والفلسفة والدين وأثر كل هذا وغيره فى الحياة اليومية للشعوب التى قام بدراستها . وهم يشيرون إلى اهتمامه الذى ألمحنا إليه بالعلاقة فيما بين النمو الجسمى والنمو الثقافى ، كما أنهم يشيرون إلى بحوثه اللغوية التى يذكر فيها الشكل اللغوى من حيث علاقته بالخبرة الثقافية . يقول بنيمان Penniman بصدد بحث بوس حول الإسكيمو الوسطى Central Eskimo الذى نشر فى عام ١٨٨٨ إننا نستطيع أن نشاهد علاقة كل ملمح بسواه ، وأن نقف على وظيفته الحقيقية التى يلعبها فى الثقافة ككل .

أما لسلى سبيير Leslie Spier ـ وهو من المُعلّقين المناهضين لبوس على طول الخط ـ فإنه لا يضم صوته لوجهة النظر القائلة : إن بوس قد قدم مساهمات مهمة فى فهم العلاقات بين الفرد وبين الثقافة . ولكنه يعترف بأن بوس كان واقفًا على حقيقة المشكلات ، وأن دراساته الخاصة بالأنثروبولوجيا الوصفية قد اشتملت على معلومات تصلح للقيام بتحليل وظيفى ، ولكنه يذكر أيضًا أنها ظلت دون توظيف إلى أن قيّض لها دارسون من أمثال لوى Lowie وميد Mead وبندكت Benedict فقدموا إسهامات جيدة فى ذلك المجال . ولعل من الأصح أن نقول : إن بوس عندما كان ينتهى من جمع المادة بإزاء إحدى الثقافات ، فإنها كانت تصير جاهزة للقيام بأى نوع من التحليل . ولكن ثمة تساؤلاً مهمًا عن مدى إمكان الحصول على معلومات قيّمة بغير أن تكون هناك تصورات مُسبقة ومحددة من الناحية النظرية والتأملية القاطعة . إن بوس قد تحاشى بوعى الاعتماد على ظهور بوادر تشير إلى وجود بعض المشكلات التى يمكن تناولها بالمدارسة .

وفى نهاية المطاف أبدى روس رضاه عن الدراسات الثقافية المتعلقة بالشخصية ، ولكنه عبّر عن عدم رضاه عن الطرائق التى كانت مستخدمة بإزاء ذلك المجال . لقد كان متشككًا فى قيمة تواريخ الحياة "life-histories" على أساس أنها تعتمد على ذكريات زائفة ومتأثرة بالاهتمامات الحالية . ومن ثمّ فإنه حبّذ استخدام منهج التنصّت cavesdropping الذى يكون الملاحظ فيه قائمًا بتسجيل الأحداث الصغيرة التى تقع بالحياة اليومية ، ومُصْغيًا للمناقشات التلقائية ، ومتابعًا للجلسات التى تدور فيها الأحاديث العادية .

ولقد كان بوس متشككًا فى جدوى بحوث علماء النفس ورجال الطب فيما يتعلق بالأنثروبولوجيا ، وأعتقد أن جهودهم قد أدّت إلى الكثير من الفكر المُشوّش ، كما أن المعالجين النفسيين بصفة خاصة قد وقعوا تحت طائلة نقده ، إذ يقول إنى أعتقد بحزم أن استخدام التحليل النفسى الذى يهدف إلى تناول مشكلات الثقافة البدائية ، لا ينطوى على ذريعة تُعين على القيام بالاختيار النقدى المُتمعّن . فما أجيزه هو أن التحليل النفسى يقدّم مساهمة مهمة بإزاء تأثير خبرات الطفولة فى شخصية الفرد ، ولكنى لا أستطيع تأييد هذا المنهج إذا ما اتُبع لتفسير الأساطير والطوطمية والتابوهات على أساس نظريات التحليل النفسى . فثمة الكثير من الفروض التى تتضمنها كل خطوة بهذا المنهج ، مما يحملنى على الشعور بأن النتائج المتأتية لا يمكن نعتها بأنها علمية بمعنى الكلمة .

ولقد نقول : إن عدم توافر مناهج وتقنيات دقيقة يستعان بها فى دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية ، قد حال بلا شك بين بوس وبين تتبُّع المشكلات الموجودة فى هذا المجال بنفس المستوى من الاتساق والحماس اللذين يميّزان بحوثه فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية . وكذا فإن

www.dvd4arab.com

نزعته الثقافية النسبية المتطرفة قد عملت على إعاقة أى تقييمات مُرْضية بإزاء السلوك البشرى بالثقافات الأجنبية . صحيح أن استخدام أدوات قياس شكل الرأس وطول القامة يعتبر وسيلة مكينة فى مدارسة أى ثقافة ، ولكن ليس هناك أدوات قياسية كهذه يمكن الاستعانة بها لقياس مدى السعادة أو لتقييم القوانين الأخلاقية لدى أحد الشعوب . فمن الصعب أن نحصل على نتائج علمية كتلك التى يطالب بها بوس فى الكثير من ميادين الأنثروبولوجيا الثقافية . والواقع أن منجزاته فى هذا الميدان تعكس قلقه وعدم رضاه عن ممارسة العمليات الحدسية والتأملية .

يقول مرّى إميرو Murray B. Emeneau إن بوس هو المثل الأعلى الذى يحتذيه جميع أولئك الذين يعملون فى مجال اللغويات الوصفية فليس هناك شك بإزاء قيمة النسبية relativism فى هذا المضمار . فبوس يرفض فرض الأشكال المألوفة والتصنيفات التى تأخذ بها الأسر اللغوية الكبرى (أعنى اللغات الهندية الأوربية والسامية) على اللهجات البدائية ، مؤكدًا أن كل لسان يجب أن يُدرّس تبعًا لبنيته . فطريقته المتحررة بإزاء اللغات والبحوث التى أنجزها بإزائها ، قد أفضت إلى بزوغ سريع للدراسة المقارنة للغات البدائية .

ولقد أمن بوس بضرورة الوقوف بطريق مباشر على اللغة ، على أساس أن ذلك يُعد شرطًا لا غنى عنه للوقوف على قوام أى ثقافة . ففى كتابه المرجع فى اللغات الهندية الأمريكية Handbook of American indian Languages وهو من بحوثه العظيمة ، يؤكد أهمية تمكّن الملاحظ من اللغة ، إذ إن ذلك يساعده على الإلمام بدقائق الحياة اليومية التى تتبدى من خلال الأحاديث العادية ومن خلال الأنشطة اليومية .

ومن الواجب أن نعتبر بوس واحدًا من أئمة الأنثروبولوجيا الحديثة وذلك بفضل منجزاته فى كل ميدان رئيسى فى هذا العلم ،

وبفضل تكاملية بحوثه . فالواقع أن المشكلات التى قام بالكشف عنها وإلقاء الضوء عليها ، وكذا المناهج والتوجُّهات التى اتخذها بصدد بحوثه ، قد عملت إلى حد بعيد على رسم الطريق الذى اتخذته الأنثروبولوجيا الحديثة .

وأهم منجزاته فى الواقع هو تلك الكمية الهائلة من المعلومات الأنثروبولوجية الوصفية التى قام بجمعها والحفاظ عليها . فالواقع أنه جمع المعلومات الثقافية واللغوية ووسائل قياس الجسم عن طريق مُدارسة الكثير من القبائل الموجودة بين الإسكيمو والهنود بالشاطئ الشمالى والجنوب الغربى والسهول وكاليفورنيا . ولقد اعتقد كما فعل فريزر أن جمع المعلومات الواقعية ، هو أمن وأدوم إسهام يستطيع الأنثروبولوجى القيام به . ولكن بينما حصل فريزر على معلوماته من مكتبات كامبردج ، فإن بوس حصل عليها مباشرة بالعمل الميدانى فى الولايات المتحدة .

وبوس كعالم وصاحب منهج فى العلوم الاجتماعية ، كان رائعًا فى تطبيق الإجراءات العلمية ولم يكن مجرد داعية لها ، وبخاصة فيما يتعلق بالتحليل الإحصائى للمعطيات الاجتماعية . لقد كان يتفحّص بحوثه التى يضطلع بها بحذر نقدى وبنزعة شكّلية ، كما استخدم الطريقة ذاتها بإزاء بحوث الآخرين . فمن الممكن أن نعزو إليه الفضل فى الحد من التطرف والخروج عن الحدود التى يجب أن تقف عندها كل مدرسة أنثروبولوجية . والواقع أن نقده للنظرية التطورية وللمنهج المقارن فى الأنثروبولوجيا ، كان عامل تحذير للباحثين فى هذا المجال بصفة خاصة .

بيد أن من الصعوبة بمكان تقدير إسهامات بوس الإيجابية فى النظرية الإثنولوجية ، أعنى الأنثروبولوجيا الوصفية . فمن الممكن الربط بين بحوثه وبين جميع النظريات تقريبًا ، ولكن ليس من الممكن مطابقتها

www.dvd4arab.com

مع أى منها . وحيث إنه كان دائم الشعور بالتعقيد المُحيِّر بإزاء الإنسان والمجتمع ، فإنه ظل ينظر إلى النظريات العامة على أنها غير ناضجة إن لم تكن مستحيلة من حيث المبدأ . وقد ترتب على ذلك أن مزاياه العظيمة قد صارت فى الوقت نفسه عبئًا وعائقًا أمام تقدم الأنثروبولوجيا .

ولا شك أنه بسبب شهرته الواسعة ، فإن نقاط ضعفه فيما قام بإنجازه من بحوث ، كان لها تأثير أكبر مما كان يجب أن تؤثر به . فالشك الزائد والخوف من الوقوع فى الأخطاء قد اتصفت به معظم بحوثه ابتداء من عام ١٩١٠ إلى ما بعدها . ولقد صارت التعقيدات الكبيرة التى تحيق بدراسة الإنسان والمجتمع والمشكلات المتعلقة بالنسبية الثقافية ، تشكل عقبات لا يمكن التغلب عليها حتى يتسنى التوصل إلى تعميمات مفيدة فى نطاق الأنثروبولوجيا الوصفية . فالواقع أن ما يتطلبه البرهان العلمى من صرامة ، كان أمرًا مقدسا بالنسبة لبوس ، ومن ثمّ فإنه فرض قيودًا صارمة على بحوثه وعلى بحوث الآخرين . فما لا يمكن البرهنة عليه بالبحث الاستقرائى ، يجب ألا يعتبر حقيقة مؤكدة . فالدراسة المستأنية بإزاء ميادين محددة بوساطة باحثين كثيرين عبر سنوات كثيرة ، هى الخليقة بأن تؤدى إلى تعميمات مأمونة . فليس من المستغرب إذن أن نجد بوس قد بقى متشائمًا على طول الخط . فلابد أنه ظل يفكر فى المُعْطيات التى تتعلق بآلاف الثقافات المنحدرة إلينا من الماضى والتى نكاد نفقد آثارها .

ولقد ظل بوس حتى يوم وفاته مشغولا بمراجعة ما سبق أن جمعه من معلومات حول كواكيوتل Kwakiutl ، كما كان دأبه خلال الستين سنة التى قضاها فى البحث . ويمكن الوقوف على إسهامه العظيم فى ضوء انكبابه المستمر على تشييد أنثروبولوجيا دقيقة وأكيدة ، وهو ما يلزم لأى باحث مدقق فى أى من العلوم المتباينة .

★ ★ ★

الفصل العشرون

برونيسلو مالينوفسكى

Bronislaw Malinowski

لم يكن مالينوفسكى من العلماء الذين يحصرون اهتمامهم فى مجال واحد بعينه ، بل إنه لم يعترف بوجود فواصل فيما بين العلوم بعضها وبعض . ومن الطبيعى أن يعمل هذا على إثارة حَنَق المشتغلين بالأنثروبولوجيا الذين يريدون أن يكون مجال تخصصهم قائمًا بذاته ، ولا يتداخل مع مجالات ثقافية أخرى . فلقد أغضى مالينوفسكى عن الفواصل القائمة فيما بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس ، وأخذ يتحرك بحرية وانطلاق من مجال لآخر تبعًا لما تتطلبه المشكلة التى يتعرض لها بالمناقشة والدراسة . وعلى النحو نفسه فإنه تناول الموضوعات المتعلقة بالبدائيين وهو متحرر من أى فكر مسبق . فنجد أن المسائل المتعلقة بالسلوك الفردى وبالمؤسسات الثقافية مرهونة بما يمكن أن تساعده منها فى الدراسة . فبهذا الموقف أرسى أسس المدرسة « الوظيفية » "functionalist" بالأنثروبولوجيا ، وبدأ فى إرساء قواعد الدارس المشارك "Participant observer" فى مجال الدراسة الأنثروبولوجية .

ولقد كان مالينوفسكى محبًا لإشراك الآخرين فيما يهتم به من أمور علمية . فكان بيته مزدحمًا بالطلبة والأصدقاء والزملاء والغرباء ، مما اضطر زوجته إلى استئجار بيت خارج لندن حتى تهرب من الضوضاء والزحام المستمر بالبيت . بيد أن ذلك البيت

Looloo
www.dvd4arab.com

المزدحم كان بمثابة قاعة للدراسة الحية ، حيث توافر به المناخ المناسب للتفكير وللبحث الخلاّق . وكان مالينوفسكى مرتاحًا إلى هذا المناخ الذى كان يعلم فيه ويبحث .

بيد أن حياته خلال الطفولة منذ نشأته بأستراليا ، كانت على عكس ذلك ، فقد كان الابن الوحيد ، كما أن أباه مات وهو ما يزال طفلا صغيرًا . ولقد أظهر مالينوفسكى تفوقًا ونبوغًا خلال دراساته كلها . وهو يختلف عن فريزر فى أنه لم يستمد أبحاثه من المكتبة ، بل إنه بعد أربع سنوات من الدراسة والبحث والكتابة فى مدرسة لندن للاقتصاد ، قام برحلة ميدانية إلى استراليا باعتباره سكرتيرًا لمهمة ميدانية تحت رعاية الجمعية البريطانية لتقدم العلم British Association for the Advancement of Science .

وكان نجاحه فى التعامل مع سكان القرى التى قام بدراستها هناك ، وفى حثهم على الإفصاح عن أفكارهم وعواطفهم ، مُعبّرًا عن مواهبه العظيمة ، وعن طبيعته الحساسة إلى حد بعيد . فلقد كانت رغبته فى معرفة طبائع الآخرين وتجاوبه نفسيًا معهم طبْعًا تلقائيًا وحدْسًا وقدرة على تحليل المعلومات التى كان يقف عليها . وكان حبه للناس على جانب كبير من القوة والتدفق . ومما لا شك فيه أن شخصية مالينوفسكى كانت ذات أثر بعيد المدى فى تاريخ الأنثروبولوجيا ، كما أن بحوثه الميدانية ونظرياته وتعاليمه وسمعته الواسعة تعكس جميعًا قوة شخصيته .

والواقع أن الخلفية الثقافية الخصبة التى حصل عليها مالينوفسكى ، كانت ذات فاعلية عظيمة فى إنتاجه فى مجال الأنثروبولوجيا . فدراسته الكيميائية قد ساعدته على المساهمة فى العلم الفيزيائى . بيد أن انخراطه فى هذا العلم لم يمنعه من الإلمام بالعلوم الاجتماعية .

أما قراءاته الأنثروبولوجية وبخاصة اطلاعه على أبحاث فريزر ، فقد ساعدته على المساهمة فى هذا المضمار .

وكذا فإن منهج دوركايم الوظيفى فى تناوله لدراسة علم الاجتماع ، قد أثّر فى فكر مالينوفسكى إلى حد بعيد على الرغم من أنه انتقد دوركايم وأتباعه لمبالغتهم فى تقييم الطبيعة الاجتماعية للإنسان ، وإهمالهم الفرد بما لديه من قدرة على الإبداع ، بيد أنه حاول أن يُعدّل النزعة الوظيفية الاجتماعية التى انتحى إليها دوركايم وذلك بإحداث تفاعل بينها وبين نظريات فندت Wundt ومن بعده فرويد Freud . بيد أن فكرة دوركايم الأساسية التى تذهب إلى أن الباحث يجب أن يظل يبحث عن الحقائق الثقافية خلف الرموز المجسمة فى المؤسسات بالمجتمع قد صارت المرشد والدليل لمالينوفسكى فى بحوثه .

على أن حماسه لنظريات التحليل النفسى لدى فرويد وريفرز Rivers وجونز Jones ، لم يستمر مدة طويلة . فلقد وجد أن مزاعمهم مبالغ فيها ، وأن براهينهم مشوّشة ، ومصطلحاتهم مُعقّدة . ولكنه ظل يعترف بفضلهم عليه فيما يتعلق بالنظرية الدينامية للعقل ، كما أنه كان يقدّر تركيزهم على علم نفس الطفل وعلى التاريخ الشخصى للأشخاص الذين يقومون بتناولهم بالدراسة . وبالإضافة إلى هذا فإنه كان يقدّر اهتمامهم المخلص والجاد بمسائل الجنس . والواقع أن مالينوفسكى برغم تمسكه المستمر بتعاليم المدرسة السلوكية فيما يتعلق بدراسته لعلم النفس ، فإنه استفاد من تعاليم التحليل النفسى فى جانب كبير من دراساته الميدانية ، وبخاصة فيما يتعلق بالأسرة وقرابة الدم وفى بحوثه التى كانت بحاجة إلى الاستعانة بالعديد من النظريات وطرائق البحث .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد أصر مالينوفسكى على استبعاد مناهج الأنثروبولوجيا التطورية باستثناء ما أتاحه من دور صغير بها فى تحليل الثقافة . صحيح أن العمليات الثقافية تخضع لقوانين معينة ، ولكن تلك القوانين يجب أن يتم العثور عليها فى وظيفة العناصر الواقعية للثقافة . والواقع أن إغضاء مالينوفسكى عن النظرية التطورية لم يكن بالشىء الجديد . ذلك أن النزعة الوظيفية **Functionalism** قد صارت شائعة فى كثير من الميادين خلال حياته ، وصارت عاملاً مؤثرًا فى العلم والسياسة والفلسفة والفنون المتباينة . ومالينوفسكى نفسه قد أخذ فى تتبُّع النظرة الوظيفية للثقافة تاريخيًا حتى باستيان **Bastian** ، وقد ذكر الكثير من أسماء العلماء والمدارس التى أسهمت فى هذا الاتجاه .

ومهما كان مالينوفسكى مدينا للآخرين بنزعته الوظيفية ، فمما لا شك فيه أنه العالم اللامع الذى حقق التكامل فى دراسة الثقافة وقد جعلها منهجًا مذكورًا فى الأنثروبولوجيا . والواقع أن المدة الطويلة التى قضاها فى جزائر تروبرياند **Trobriand Islands** ، وحياته كواحد من أهل تروبرياند ، قد حمله على الاقتناع بأن الثقافة لا يمكن أن تفهم إلا عن طريق المعرفة المباشرة بأهلها ، والكيفية التى يتفاعل بها الفرد مع بيئته الثقافية .

كان منهج مالينوفسكى قائمًا على أساس الاعتقاد فى أن هناك قوانين علمية للثقافة . فمن الأساسيات التى نادى بها فى إقامة نظرية علمية ، أن تكون الفروض مُتَّسمة بالجلاء والوضوح . وعلى الرغم من أنه يعرّف الأنثروبولوجيا بأنها العلم المقارن للثقافات ، فإنه كان دائب النقد للاستخدام الذى يتم بوساطة المنهج المقارن على أيدى الأنثروبولوجيين التطوريين . وكان ناقدًا بصفة خاصة لمفهوم الأشياء المتبقية **Survivals** الذى لعب دورًا هامًا فى الفكر التطورى .

وهو لم يستطع أن يقبل ما يزعم من أن من الممكن أن تظل مؤسسة ما حية بعد انتهاء وظيفتها . ولقد أشار إلى أن ما يسمى بالأشياء المتبقية من الماضى تتوقف عن الوجود الحقيقى حالما نعرف أشياء كثيرة عن المجتمع ، وبصفة خاصة عن المضمون الثقافى بإزاء مؤسسة ما . وهو يبرهن على أن الأشياء المتبقية يمكن أن تعمل على تضليلنا .

والواقع أن مالينوفسكى قد شارك تيلور فى القول بأن الأنثروبولوجيا لم تحتل المكانة التى بلغتها بسبب غرائب البدائيين **"Savage Exotecisms"** ، بل بفضل هيرودوت والروايات الغريبة التى نقلها عنهم . وعلى عكس تيلور فقد كان اعتماد مالينوفسكى على البدائيين الأحياء نتيجة خوفه من أن يساعد الخيال على إشاعة وجهة نظر خاطئة عن المجتمعات البدائية . فالمجتمع فى نظر مالينوفسكى قد تشكّل من مجموعة من المؤسسات التى ترتبط بحاجات الإنسان الراهنة التى تساعده على التوافق مع البيئة ، كما أن دراسة هذه المؤسسات ــ أعنى المؤسسات الاقتصادية والسياسية وكذا التربية والقانون والدين والعلم والنظام الأسرى ــ وعلاقة الفرد بها ، هى التى يجب أن تحتل الأولوية وليس التفسيرات التاريخية ، سواء كانت من جانب التطوريين أم من جانب غيرهم .

ولكن مالينوفسكى يعترف بأن التفسيرات الدقيقة والفروض المعتدلة وغير المبالغ فيها من جانب التطوريين ، يمكن أن تكون مفيدة إذا أتت فى المرتبة الثانية . ولقد وجه النقد إلى بوس وتلاميذه من أمثال روث بنيدكت **Ruth Benedict** لأنهم أقروا مفهومًا خاصًا بالثقافة كان شائعًا وغامضًا ، مما أدى إلى إعاقة أى نوع من التقييم العلمى . وكان مالينوفسكى متشددًا فى هجومه على هذا الاتجاه ، فهو يقول : لقد

Looloo
www.dvd4arab.com

أشرت المرة تلو المرة إلى أنه من غير الجائز أن نخفى عجزنا عن تناول بعض الوقائع بالاستعانة باللافتات الغامضة مثل "عبقرية الثقافة" "Genius Of Culture" ، أو بأن نصف تلك العبقرية بأنها أبولونية أو ديونيسية أو بغير ذلك من نعوت .

وعلينا أن نتناول نقد مالينوفسكى للتطوريين والتويريين وغيرهم فى ضوء كفاحه المستميت لتأييد النزعة الوظيفية الفردية فى مجال الأنثروبولوجيا . لقد كان مالينوفسكى صاحب قضية . فبالغ فى التأكيد على نقاط الضعف بالمدارس التى كان يعارضها ، ولكنه أغضى فى الوقت نفسه عما أسهمت به أو قلل من تأثيرها . فمن الأفضل إذن أن نوجه أنظارنا إلى وجهات نظره الإيجابية بدلاً من الاستمرار فى تناول نقده الشديد ـ وغير العادل فى بعض الأحيان ـ للمدارس التى كانت تعارض اتجاهاته .

الواقع أن مالينوفسكى قد حدد فى مواضع كثيرة المنهج الوظيفى فى الأنثروبولوجيا . ومن أوضح ما قاله إن وجهة النظر الوظيفية للثقافة تقرر من حيث المبدأ أنه فى كل نمط بالحضارة ، وبإزاء كل عادة وكل شىء مادى ، هناك فكرة وعقيدة يضطلعان بوظيفة حيوية معينة ، كما أن لهما عملاً تؤديانه ، وتمثلان جزءًا لا غنى عنه فى نطاق الكل الذى يعمل بنشاط وإيجابية والوظيفية تبعًا لمالينوفسكى تهتم بالدرجة الأولى بالمهام الحالية للثقافة البشرية ، وليس بالنظريات الطموحة المتعلقة بالماضى والمشكوك فيها . وهو يعتقد أن القوانين الثقافية ـ أعنى العلاقات القائمة فيما بين الحاجات الفردية والمؤسسات الاجتماعية ـ لا يمكن أن تكتشف إلا من خلال الدراسة المقارنة للثقافات التى تظهرنا على الفرد ، وهو يضطلع بتكيُّفاته اليومية ، سواء كانت تكيُّفات جسمية أم تكيفات عقلية . ولقد كانت

عقيدة مالينوفسكى ونصيحته ألا ننسى قوام الإنسان الحى بلحمه ودمه النابضين بالحياة ، وهو ما يعتمل على نحو ما فى قلب كل مؤسسة . فتاريخ أى مؤسسة وشكلها وتوزيع نشاطها وتطورها وما تنتحى إليه كل هذه المشكلات تحتل أهمية ثانوية . أما الأسئلة المهمة فهى : كيف أن مؤسسة ما تعمل وظيفيًا الآن ؟ وإلى أى حد تعمل على إشباع حاجات الفرد وثقافته فى المجتمع الذى يضمه ؟ وكيف أن إحدى المؤسسات ترتبط بوشائج بالمؤسسات الأخرى ؟

ويعرِّف مالينوفسكى الوظيفية Functionalism بشكل أدق بأنها النظرية المتعلقة بتشكيل حاجات الفرد فى ضوء ضوابط وأوامر مستقاة من تلك الحاجات . فالمجتمع يشكل الفرد بوساطة اعتمال الجهاز التكيفى لديه ليستحيل إلى شخصية اجتماعية .

ثمة حاجات فسيولوجية أساسية ضرورية لدى الفرد تتطلّب استجابات جمعية منظمة من جانب أعضاء المجتمع . وهذه تتضمن الحاجة إلى الطعام والمأوى والأمن والاسترخاء والحركة والنمو والتناسل . وتمثل الاستجابات المنظمة لهذه الضرورات الأساسية ـ أعنى الجهات التى توفر التغذية والمأوى والملبس وراحة الجسم ، والوسائل الوقائية والمنظمات التى تكفل الأمان ، والزواج والأسرة من أجل التناسل ـ نظامًا آخر مقتبسًا من الظروف التى يجب أن يتعامل معها أعضاء المجتمع . فالحصول على الطعام مثلاً ، يتطلب نظامًا اقتصاديًا معقدًا إلى حد ما ، يضطلع بتنظيم إنتاج الطعام والعمليات المتعلقة به والتبادل التجارى وتوزيعه بوساطة قواعد اجتماعية معينة ، كما أن المأوى المناسب يتطلب جهدًا تعاونيًا وموافقة جماعية فيما يتعلق بالإنتاج وصيانة الممتلكات والنظام الذى ينبغى إتباعه . وكذا فإن نظام الزواج والأبوة والأمومة يجب أن ينظم بوساطة قواعد

Looloo
www.dvd4arab.com

اجتماعية تحدد الحقوق والواجبات المنوطة بالأشخاص المشتركين فى هذه الأدوار بإزاء بعضهم البعض وبالنسبة للأعضاء الآخرين بالمجتمع . وقل الشيء نفسه بالنسبة لجميع الأمور الاجتماعية . هكذا يمكن القول بأن المؤسسات الكبيرة بالمجتمع ، أعنى المنظمات الاقتصادية والسياسية والتشريعية والتربوية والاجتماعية ، تعتبر فى نظر مالينوفسكى بمثابة استجابات جمعية لمشكلات تتعلق بالتكيف لإشباع الحاجات الفسيولوجية الأساسية لدى الإنسان .

وهناك من جهة أخرى نظام ثالث للقواعد الاجتماعية يتمثل فى القواعد التكاملية "Integrative" أو القواعد التركيبية "Synthetic" التى تتبلور فى سياق محاولة خلق نظم تتعلق بالعلم والسحر والأسطور والدين والفن . وهذه أيضًا يمكن أن نتتبّع أصولها على الرغم من أن ذلك يتسنى بطريق غير مباشر بإزاء حاجات الإنسان العضوية . فمن بين جميع المخلوقات الحية جميعًا ، يستطيع الإنسان وحده أن يختزن خبراته وأن يتأملها ويستخدمها فى التنبؤ بالمستقبل . فهذه القدرات تجعل منه بطلا تراجيديًا . فهى تكشف النقاب عن إمكانات جديدة وعن فرص تتاح لكل جيل ، ولكنها تكشف أيضًا النقاب عن عجز الإنسان النسبى وعن منافحته للحصول على أكثر مما يستطيع ، وذلك عن طريق الخيال الذى يُشكّل بوساطتها أكثر مما يتسنى له أن يتوقع إحرازه بعقله . فنُظم المعرفة ومن بينها العلم Science ، تساعد المرء على تنظيم الأنشطة الإنسانية ، وأن يتحقق التكامل فيما بينها بحيث يمكن أن يصير الحاضر والمستقبل ، أفضل من الماضى ، وذلك بالاستخدام الحكيم لما سبق إحرازه من خبرة ويتسنى بالتالى العمل على إشباع حاجات الإنسان . والواقع أن الفجوات الموجودة فى معرفة الإنسان وفى مدى قدرته ، يخلقان لديه

القلق والتردد . وهنا يستطيع السحر أن يُستخدم كبديل للنظم العقلانية ، وأن يوفر للإنسان الشجاعة للإقدام على العمل ، حتى بغير أن تكون فى حوزته المعرفة السديدة . أما الأسطورة فإنها تعزز التراث الاجتماعى ، وذلك بأن تضفى عليه بدايات تبعث على الشعور بالهيبة والجلال . وبذا فإنها ترتقى ، كما أنها تساند السلوك الاجتماعى المناسب وتعمل على تكامله . أما الدين فإنه يدعم أمن الفرد ويوفر له التلاحم الاجتماعى بالجماعة التى نشأ بها إلى حد التضحية بالحياة من أجلها والشد من أزرها (بوساطة العقيدة والطقوس) ، ودعم الحياة المتسمة بالتعاون . ومالينوفسكى ينظر إلى الفن باعتباره عاملاً على إشباع طموح الإنسان فى أن يقيم الروابط بين الانطباعات الحسية المتسقة بعضها مع بعض ، سواء فيما يتعلق بالإيقاعات التى تتعلق بالحركات الجسمية ، أم بالتآلف الذى يحس به فيما يقع عليه من نغمات وألوان وأشكال .

والواقع أن مالينوفسكى قد اعتقد أن نزعته الوظيفية متباينة عن النظم الاجتماعية الأخرى من حيث إنها تؤكد على الحاجات الجسمية الأساسية ، وتعتبرها مصدر جميع الحاجات الأخرى . فالجوانب العقلانية والجمالية فى سلوك المرء ــ أعنى الجانب الأعلى "Higher Side" فى أنشطته ، والتى تحتل الاهتمام الأكبر من جانب معظم الباحثين ــ يجب أن ينظر إليها أيضًا باعتبارها مُعتملة فى صميم الحاجات الفسيولوجية لدى المرء .

فمن وجهة نظر مالينوفسكى فإن المطالب الاجتماعية أو الثقافية ــ سواء كانت على هيئة قوانين تشريعية ، أم على هيئة قوانين أخلاقية ، أم كانت طقوسًا دينية ، أم تنظيمًا اقتصاديًا ، أم عادات وتقاليد ، أم تذوقات جمالية ــ فإنها جميعًا أوجه أخرى للبواعث والحوافز

Looloo
www.dvd4arab.com

البيولوجية العضوية . فهى لذلك تعتبر الوسائل التى يتذرع بها الفرد لا شعوريًا حتى يتسنى له توفير الظروف التى تسمح له بالبقاء والانسجام ثقافيًا . ويقرر مالينوفسكى هنا على عكس فريزر أن الأهداف الاجتماعية لا تتواجد بأى حال فى عقول البدائيين ، كما أن التشريع لا يمكن أن يوجد بأى حال على نطاق واسع لدى القبيلة أيا كانت .

ومهمة الأنثروبولوجى تتمثل إذن فى الكشف عن الوظائف الدقيقة التى تضطلع بها عناصر إحدى الثقافات ، وذلك عن طريق وضع تخطيط متكامل . والواقع أن بحوث مالينوفسكى فى العمل الميدانى قد كُرّست لتحقيق هذا الهدف .

ويهزأ مالينوفسكى من الدرسات السابقة التى أجريت بإزاء الشعوب البدائية . ولكن على الرغم من أن بحوثه لم تمثل تقدما أكثر مما حققته البحوث التى هزأ منها ، فإنه كان فى الواقع أول باحث يقوم بشرح طرائق البحث التى يجب أن تتبع فى دراسة المجتمع البدائى ، والعمل على تثبيت أركانها فيما يضطلع به الباحث ، مع التحرز من تأثير القيم الثقافية التى يأخذ بها بقدر المستطاع فيما يقوم بالاضطلاع به من بحوث ميدانية .

وتبعًا لمالينوفسكى فإن هدف جميع البحوث الميدانية هو استيعاب وجهة نظر البدائى ، وعلاقته بالحياة ، والوقوف على نظرته إلى العالم ، أو على حد تعبيره فى مقام آخر الولوج فى دخيلة جلد البدائى . وبينما يتحتم استبعاد جميع الأفكار المسبقة حول الكيفية التى تعمل بها إحدى الثقافات ، أو التى يجب أن تعمل بها ، فإن من

الضرورى على النحو نفسه أن يكون لدى الباحث إطار عمل نظرى إيجابى يتحسس المشكلات بوساطته . فهو يرى أن هذا هو الذى يمثل النزعة الوظيفية .

ويقسم مالينوفسكى العمل الميدانى إلى ثلاثة مجالات على النحو التالى :

أولاً ـ الوقوف على تنظيم القبيلة والقيام بتشريح ثقافتها بحيث تسجل النتائج المستخلصة فى ضوء تخطيط دقيق وواضح . وهنا تكون الطريقة التى تتبع فى تسجيل الوثائق الحقيقية والمشفوعة بالإحصاءات هى السبيل لوضع مثل هذا التخطيط .

ثانيًا ـ يسجل فى نطاق هذا التخطيط ما يكون غير قابل للتقييم بدقة ويقف عليه الباحث فى الحياة الواقعية للقبيلة . فلابد من جمع تلك المشاهدات بدقة وتفصيل ، بحيث تكون فى هيئة نوع من السجلات الأنثروبولوجية الوصفية التى تكون قد استمدت عن طريق الاتصال المباشر بالحياة البدائية .

ثالثًا ـ وما يجمع من تقارير أنثروبولوجية وصفية وبخاصة الحكايات والتعبيرات الشائعة وبنود الأدب الشعبى والصيغ السحرية ، يجب أن يُقدم كما هو بغير تعديل باعتبار أن ذلك يشكل وثائق تتعلق بالعقلية البدائية .

وتناظر هذه الفئات الثلاث فى الخطة الوظيفية لدى مالينوفسكى (١) الروتين المحدد بوساطة التقاليد والتراث (٢) الطريقة التى ينفذ بها ذلك الروتين (٣) ما يعتمل فى العقل البدائى من أفكار ومشاعر بينما يكون خاضعًا لذلك الروتين ومتفاعلاً معه . ويؤكد مالينوفسكى على أهمية التوثيق الإحصائى للشواهد الفعلية المحسوسة باعتبار

Looloo
www.dvd4arab.com

انه الطريق الذى يتسنى بوساطته الحصول على المعلومات الخاصة بأحد الشعوب . ولكن هذا لا يكون من خلال إجراء يتعلق بوجهة نظر ثابتة ، ولا من جانب أحد المفسرين من أفراد الشعب البدائى . فلكى يتسنى الحصول على صورة متكاملة ، فإن على المشتغل بالبحث المتعلق بأحد المجتمعات أن يتعلم لغته ، وأن يعيش بين ابنائه ، وأن يشاركهم طعامهم وعاداتهم ، وأن يستوعب تقاليدهم ، وأن يتعلم بقدر ما يستطيع كيف يحس . وكيف يفكر كما يحسون ويفكرون .

وهذا هو المذهب الذى يجب أن ينهجه الباحث المشارك "Participant Observer" . فالقيام برحلة ميدانية يجب أن يكون فى رأى مالينوفسكى بمثابة خبْرة شخصية عميقة ، بحيث أن ما نعرفه عن طريقه ، لا يمكن أن يكون مغايرًا للحقيقة بأى حال . فبالنسبة لمالينوفسكى ليست هناك متعة شخصية فى دراسة أى ثقافة أجنبية أعمق من متعة إشباع حب الاستطلاع العلمى . وهو يقرر أن دراسة المؤسسات والتقاليد الاجتماعية والشرائع ، أو دراسة السلوك والعقلية دون احتدام الرغبة الشخصية فى الإحساس بالكيفية التى يعيش بها هؤلاء الناس الذين يُقْبل على دراستهم ، والوقوف على جوهر شعورهم بالسعادة ، إنما هو فى نظرى الفقدان بعينه لأعظم عائد يمكن أن يأمل المرء فى الحصول عليه من دراسة الإنسان .

وما يبرر الأخذ بهذا المنهج لا يكمن فى رغبة الباحث فى الحصول على المتعة الشخصية ، بل يكمن فى أن ذلك هو الطريق الوحيد للوقوف على حقيقة الشعب الذى يدور حوله البحث . فمالينوفسكى يقول على سبيل المثال إنه اكتشف وظيفة السحر يوم أن كان يرتعد فرقًا عندما هب إعصار فى ميلانزيا Melanesia ، وذلك

بملاحظة ما كان يقوم به أحد السحرة ، وقد أخذ يأمر الإعصار بأن يتوقف ، بينما كان يُطمْئن الأهالى بأن أحدًا لن يصاب بأى شر يمكن أن يقع للقرية . يقول مالينوفسكى : « إنى عندئذ أدركت وأنا فى ذلك الموقف وظيفة السحر الحقيقية . ومن الجانب السيكولوجى فإن ذلك يؤدى إلى تحقيق التكامل الذهنى ، وإلى إشاعة التفاؤل والإحساس بالطمأنينة فى مواجهة الخطر ، الأمر الذى حمل الإنسان على الانتصار فى كثير من المعارك ضد الطبيعة أو ضد خصومه من البشر . فمن الناحية الاجتماعية ، يُشكّل السحر نوعا من التنظيم ولم الشمل عن طريق تسليم القيادة لرجل واحد فى الوقت الذى يكون فيه العمل المنظّم والفعّال على أكبر درجة من الأهمية » .

ولعل من أهم ما عرض له مالينوفسكى ، ما قام بتقديمه من أمثلة عن كيف يتسنى للباحث الحصول على المعلومات عن المجتمعات البدائية التى يضطلع بدراستها ، وما يجب عليه أن يتحاشاه من أخطاء . فهو يحُض الباحثين على ألا يوجهوا هذا السؤال الآتى إلى أى من أفراد القبيلة التى يقومون بدراستها . كيف تعامل مجرمًا وكيف تعاقبه ؟ فما يجب عليه عمله هو مواجهة حالة واقعية ويبدأ بها ، أى من حالة بعينها . فمن هذا المنطلق سوف تتاح الفرصة لتوجيه المناقشات ، وللحصول على مجموعة من المعلومات والدلالات التى ربما تتضمن ثروة من وجهات النظر المحددة ، ومن الآليات التى ترتبط بالجريمة المرتكبة . ويقدم مالينوفسكى مجموعة من الوقائع المثيرة التى حدثت له فى أثناء ممارسته للعمل بهذه الطريقة .

على أن هذا لا يحملنا على الظن بأن مالينوفسكى كان مفتقدًا الأهداف العلمية الحقيقية . فالواقع أنه كان مقتنعًا بأن ثمة قوانين ثقافية موجودة بالفعل ، وأن المهمة الأولى المنوطة بالأنثروبولوجى هى

Looloo
www.dvd4arab.com

القيام بالكشف عن تلك القوانين . بيد أن هذه المهمة تتطلب ما هو أكثر من مجرد المشاركة الدقيقة والحدسية . فهى تتطلب الصبر والتجميع الدقيق لكمية هائلة من الشواهد الأنثروبولوجية الوصفية بالتفصيل ، ثم القيام بتسجيلها فى ضوء نظام تفرضه الاعتبارات النظرية . بيد أن التقارير التى كتبها مالينوفسكى والكتب التى قام بتأليفها وما تتضمنه من خرائط ورسوم بيانية وصور فوتوغرافية وايضاحات وتأريخ للحالات ، ما تزال غير كافية لاستيعاب الكمية الهائلة من المادة التى قام بجمعها ، والتى استشف منها تقاريره وكتبه . فالكثير من تلك المادة التى قام بجمعها لم تنشر بعد حتى اليوم .

والواقع أن الدراسة الميدانية الجادة التى اضطلع بها مالينوفسكى ، كانت منحصرة فى نطاق جزر تروبرياند **Trobriand** حيث ظل عاكفا على دراسة أحوالها بحماس منقطع النظير لمدة ست سنوات . وعلى الرغم من أن لوى **Lowie** قد وجه إليه النقد بأنه حصر اهتمامه فى نطاق ضيق ، كما أن كلوكوهن **Kluckhohn** اتهمه بأن المعلومات الأنثروبولوجية الوصفية التى قدمها كانت معلومات سطحية ، فإن الواقع أن الطرائق الميدانية التى خطط لها مالينوفسكى ومارسها بالفعل وقام بنشرها ، تحمل قيمة عظيمة ،لا يمكن الغض من أهميتها ، وهى الطرائق التى انتشرت بعد ذلك من خلال تأثيره على نطاق واسع .

وقبل أن نقوم بمناقشة الأفكار والنظريات المحددة التى قام مالينوفسكى بتقديمها بإزاء الدين والسحر والأسطورة والأسرة ، فإن علينا أن نقوم بإلقاء الضوء على نظريته العامة الخاصة بالثقافة .

لقد رأى مالينوفسكى أن من الضرورى أن يقوم الباحث بحصر العناصر المتباينة بالمجتمع وتمييزها ، حتى يتسنى له بعد ذلك تقديم تحليل وظيفى لذلك المجتمع . والواقع أنه على الرغم من أن باحثين آخرين قد استخدموا هذا المنهج الوظيفى فى دراساتهم الأنثروبولوجية على نحو او آخر ، فإن مالينوفسكى كان أول أنثروبولوجى يقوم بوضع الأساس النظرى للأنثروبولوجيا الوظيفية بوعى ووضوح .

وهو يعرّف الثقافة بأنها ذلك الواقع الأدائى الذى يزغ إلى الوجود لإشباع حاجات الإنسان على مستوى يعلو بكثير عن مستوى أى تكييف مباشر للبيئة . فأى ثقافة من الثقافات المتباينة يمكن أن تحلل إلى مؤسسات **institutions** يمكن تعريفها بأنها مجموعة من الناس يتحدون بعضهم مع بعض للقيام بعمل أو بأعمال مشتركة فيما بينهم ، والعمل أو الأعمال التى يبغون النهوض بها ، تنحصر فى قطاع محدد من البيئة ، وهؤلاء الناس يقومون باستخدام جهاز تقنى معين ،كما أنهم يخضعون لمجموعة من القواعد السلوكية . ومن المحتم على الباحث أن يقوم بدراسة تلك المؤسسات حتى يتسنى له الحصول على صورة محددة للتنظيم الاجتماعى الذى تشتمل عليه الثقافة . والمؤسسات هى الوحدات البنيوية للثقافة . وهى وليست السمات أو الأشكال أو الأفكار أو المركبات العارضة لتلك العناصر ، هى التى تعمل على تحقيق التكامل الأساسى للمجتمع ، وهى التى تعمل على إشاعته والتطور به فى أثناء دعمها له . وتبزغ هذه المؤسسات إلى الوجود لكى تشبع الحاجات البيولوجية لدى الإنسان ، سواء بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر . ومن ثم فيجب دراستها فى ضوء فكرة أساسية يضعها الباحث نصب عينيه .

Looloo
www.dvd4arab.com

والواقع أن المنهج الوظيفى الذى استخدمه مالينوفسكى فى دراسة الثقافة قد شكل نقطة انطلاق مباينة للمنهج التحليلى الذى استهدى به كثير من الأنثروبولوجيين السابقين فى بحوثهم . وهو بتركيزه الانتباه فى السلوك الواقعى لأعضاء أى مجتمع ، فإن طريقته فى تناول المؤسسات قد أفضت إلى تقديم وصف للمجتمع أكثر تكاملاً وتحليلا . فهو بدلاً من أن يقتصر لدى مدارسته على طريقة تشييد البيوت واستعراضه للحياة الأسرية على سبيل المثال ، فإنه أخذ يتناول تشييد البيوت والحياة الأسرية فى ضوء علاقات وظيفية تعتمل فيما بينهما .

وهو يعتقد أن المؤسسة الأساسية التى عن طريقها تتعدل البواعث الغريزية لدى الفرد بحيث يتسنى توفير الظروف المناسبة لبقاء المجتمع هى الأسرة . فالأسرة فى نظر مالينوفسكى هى نوع من المشيمة أو غشاء الجنين Placenta الذى من خلاله يكتسب الفرد البيولوجى النتاجات المتجمعة للثقافة ، ويستحيل بذلك إلى فرد اجتماعى . ولقد كان مالينوفسكى مقتنعا بأن الزواج الأحادى (زوج وزوجة فقط) هو الذى يوفر أفضل أساس لتحقيق الوظائف الرئيسية للأسرة . فهو يوفر أفضل شكل مُرْض للخيال الجنسى ، كما أنه يوفر أفضل شكل للارتباطات الشخصية التى تعمل على تمكين أواصر الأسرة بيولوجيًا ، وبخاصة فيما بين الوالدين والطفل ، وبالتالى فإن تلك الارتباطات تنسحب بإزاء العلاقات والروابط الاجتماعية . يقول مالينوفسكى إن علاقات الحب فى نطاق الأسرة تشكل النماذج الأصلية للولاء والانتماء للعشيرة كما تعتبر النواة لذلك ، بل إنها تعتبر نواة المشاعر الطيبة تجاه الجار ، وبالتالى فإنها تعتبر نواة مشاعر الولاء للقبيلة . وهو يستعين بشواهد من نظريات الأنثروبولوجيا والتحليل النفسى لدعم هذه النظرية ، ويذكر من بين من قالوا بذلك

لوى وكروبر ورادكليف براون وفرويد وفلوجل . ومن الطبيعى أن الاعتراف بالوظيفة المهمة التى تضطلع بها الأسرة ، لم يكن بالشىء الجديد الذى استحدثه هؤلاء العلماء . فلقد أبدى دارون بصفة خاصة تقديرًا خاصًا لوظيفة المشاعر المتبادلة فى نطاق الأسرة .

ولما كان مالينوفسكى مركزًا انتباهه على موضوع الأسرة ، فإنه أخذ فى وضع نظريات التحليل النفسى لدى فرويد موضع الاختبار . وعلى الرغم من أنه وجد أن الكثير مما ذهب إليه فرويد غير ناجع ، ولا يجد له سندًا من المعلومات المستمدة من الأنثروبولوجيا الوصفية المقارنة ، فإنه اعتبر أن المذهب العام لفرويد الخاص بالكبت ، هو أول نظرية تقدّم تفسيرًا للعلاقات الوظيفية من منطلق الحياة الغريزية بالمؤسسات الاجتماعية وبإزاء ما ينشأ بينها من وشائج .

وعندما اتضح لمالينوفسكى أن عقدة أوديب غير موجودة ببعض المجتمعات مثل (غينيا الشرقية الجديدة) التى تكون فيها الأم هى رأس الأسرة وينتسب إليها الأبناء ، فإنه فقد ثقته فى الركائز الأساسية التى يقوم عليها علم النفس الفرويدى . ذلك أن العلاقات بين الأفراد فى نطاق الأسرة إذا ما خضعت للتغير ، فيكون فرويد إذن على حق فيما ذهب إليه إذا حدث تغير فى توجيه الرغبات المكبوته . ففى هذه المجتمعات التى تكون فيها الأم هى رأس الأسرة ، فإن الخال كبديل للأب يكون هو الشخصية الذكرية القوية بالأسرة ، كما يكون صاحب السلطة بها . فالخال وليس الأب هو الذى يأتى بعده الوالد من حيث الموقع بالأسرة باعتباره الشخصية صاحبة القوة والسلطة . أما الأب من جهة أخرى ، فإنه لا يمثل تهديدًا للولد على الإطلاق . فهو ليس أداة لفرض السلطة ، كما أنه نادرًا ما يتدخل فى أنشطة الطفل . فهو لا يعدو أن يكون صديقًا ومساعدًا فى تعليم الحياة . ولكن ما هو أهم

Looloo
www.dvd4arab.com

من هذا فيما يتعلق بعقدة أوديب ، فإن مالينوفسكى يزعم أن أولئك الميلانيزيين يجهلون وظيفة الأب فى النظام الأبوى ، ويذهب إلى أن فرويد لو كان على صواب فيما يتعلق بفكرته الرئيسية ، إذن لكان المتوقع فى هذه المجتمعات أن تكون مجموعة الصفات التى يجب أن توجد لدى الطفل الذكر ، وهى المتمثلة فى الخشية والاحترام والخوف والغيرة والكراهية والحقد موجهة إلى الخال ، وأن غشيان المحارم لابد أن يتمركز فى العلاقة بين الأخ والأخت . وهذا — تبعًا لمالينوفسكى — هو بالضبط الذى يحدث . على أن شواهد هذه التوجهات لا توجد فى الحياة الاجتماعية العادية فحسب ، بل توجد أيضًا على نحو أهم من ذلك فى الأدب الشعبى لدى هؤلاء الناس ، كما تتبدى فى الأسطورة والقصة الخيالية والسحر ، كما توجد أيضًا فى الأحلام والوساوس التى تمر فى أذهان الأفراد هناك .

على أن مالينوفسكى باعتباره باحثًا يؤمن بالنزعة الوظيفية ، قد رحب بما اتجه إليه علم النفس الفرويدى لتوفير طريقة لفهم العلاقات الوظيفية بين الأدب الشعبى وبين التنظيم الاجتماعى . ولقد كانت لديه آمال كثيرة فى إمكان تطبيق التوجهات السياسية لدى فرويد فى مجال الأنثروبولوجيا ، فكتب فى عام ١٩٢٣ قائلاً « إن مذهب فرويد المتعلق بالكبت تحت ضغط التأثير الاجتماعى ، يسمح لنا بأن نقوم بإلقاء الضوء على بعض الرغبات المخبوءة أو « العُقد » التى توجد بالفولكلور المنبثق من نظام مجتمع بالذات . وبالإضافة إلى هذا ، فإنها تسمح لنا بأن نتتبع نمط الميول الغريزية والانفعالية فى نسيج القوام الاجتماعى . أما عدم اتفاقه مع التحليل النفسى وهو ما حدث بعد ذلك ، فإنه نشأ عن ملاحظته لما يتسم به علماء التحليل النفسى من تمسك أعمى بتفاصيل تعاليم فرويد ، مما يترتب عليه إهمال

أفكاره الرئيسية . وعندما أخذ ايرنست جونز Ernest Jones فى البرهنة على أن إنكار قيمة الأب وسلطته ، وكراهية الخال ، والمحرمات المتعلقة بالعلاقات بين الأخ والأخت توظّف جميعًا لتوجيه الانتباه بعيدًا عن التنافس بين الأب والابن ، فإن مالينوفسكى أحس بالسرور والسخرية فى الوقت نفسه . ذلك أنه اتخذ من تحليل جونز ذريعة للبرهنة على صحة استنتاجاته الشخصية ، أعنى « أنه عندما تكون الأم هى رئيسة الأسرة ، فإن عقدة الأسرة family complex لابد أن تكون مباينة لعقدة أوديب ، أعنى أنه فى نطاق الأسرة التى تكون الأم هى رأسها ، فإن الكراهية لا توجه إلى الأب ، بل توجه إلى الخال ، ومن ثم فإن أية إغراءات لغشيان المحارم توجه إلى الأخت وليس إلى الأم » فعزو هذا إلى « كبت عقدة أوديب » كما يشتم مالينوفسكى من كلام جونز ، إنما يُحمّل كلامه معنيين فى نظر مالينوفسكى ، فيتساءل : « هل هناك ما يسمى بما تحت الشعور ؟ وما معنى مفهوم الكبت المكبوت repressed repression ؟ وعلى هذا فإن مالينوفسكى لا يوافق على القول بعقدة أوديب أو بأى حالة مفردة باعتبارها « المصدر الوحيد للثقافة وللتنظيم أو للاعتقاد ... الذى يسبق كل الأشياء ، وليس سببًا لأى شىء . » ففى نظر مالينوفسكى فإن « عقدة الأسرة كانت دائمًا شكلاً وظيفيًا يعتمد على بنية المجتمع وثقافته » .

وعلى الرغم من أن السحر والدين أقل ارتباطًا بالحاجات البيولوجية من ارتباطهما بالمؤسسات الاجتماعية ، فإنهما من « صميم الثقافة » كما يقول مالينوفسكى ، كما أن الدين بصفة خاصة يعتبر فى نظره قوة أساسية فى المجتمع تعمل على تحقيق تكامله .

أما الحافز الذى يحمل الفرد على أن ينكر قابليته للفناء ، وجهاده فى سبيل التعلق بالخلود الشخصى بعد الحياة الأرضية ، فإنه يستمد

www.dvd4arab.com

أصله ـ تبعًا لمالينوفسكى ـ من العواطف الإنسانية التى تعمل الثقافة على بلورتها . فالعواطف أو الانفعالات تعتبر فى نظره هى العناصر البنيوية للتلاحم الاجتماعى ، ومن ثمّ فلابد أن تقوم المؤسسات الاجتماعية برعايتها ومساندتها . أما الدين فإنه يؤكد ويقوى العواطف الإنسانية التى تتطلبها المشاعر الأخلاقية ، وذلك بتحديد المعتقدات والتوجهات والقيم التى تشكل أخلاقيات المجتمع ، مما يجعل التلاحم الاجتماعى ممكنا ، وذلك بأن يُضفى على تلك الأخلاقيات تأكيدات غيبية واجتماعية .

من هنا فإن الدين لا ينشأ نتيجة الوهم أو التأمل أو سوء التقدير ، بل ينشأ كاستجابة للحاجة إلى الاستمرار بالثقافة قائمة ومؤثرة . فهو مؤسسة تعمل على تحقيق التكامل الذى يطبع الناس بطابع معين ، ويعوّضهم عن التضحيات الفردية التى يتطلبها ثبات المجتمع واستمرار بقائه .

والواقع أن مالينوفسكى يعارض ما ذهب إليه فريزر بإزاء وظيفة السحر فى المجتمع ، فالسحر لا يمثل فى نظره العلم البدائى كما اعتقد فريزر ، بل يمثل على العكس من هذا إدراك الناس أن الفن البشرى والمعرفة البشرية يقفان عند حدود معينة لا يتعدانها . وعلى هذا فإن مالينوفسكى يقرر أن السحر والفن العملى مستقلان بعضهما عن بعض تمامًا ، ولا يمكن أن ينصهرا بعضهما فى بعض . وعندما تقع أحداث حرجة أقوى من تحكّم الإنسان وتأثيره ، فعندئذ يرتمى الناس فى أحضان السحر ، وذلك حتى يحصلوا على إرضاء نفسى خدّاع . فممارسة السحر هى بديل لبذل الجهد ولممارسة النشاط ، وذلك عند العجز عن الحصول على أى حل عملى بإزاء المشكلات الملحة

والمفاجئة ، ومن ثم فإنه يوفر على الأقل مساندة سيكولوجية للفرد ، فيحميه بالتالى من الانهيار ومن تفسُّخ الشخصية . فقيمة السحر ومصداقيته إذن هما قيمة ومصداقية ذاتيتان تمامًا ، ولكنه يشبع حاجة بيولوجية حقيقية . وكما سبق أن ذكرنا فإن السحر فى نظر مالينوفسكى يمكن أن يساعد أيضًا على تنظيم المجتمع فى مجابهة أى أزمة ، وذلك بتحميل رجل واحد أو قليل من الرجال السلطة والقيادة .

والسحر والدين فى نظر مالينوفسكى يحتلان مكانتهما جنبًا لجنب مع المعرفة العقلانية باعتبارهما ضمن الأسس التى تتبنى عليها الثقافة . ويقول بهذا الصدد « إن المعرفة والسحر والدين تشكل جميعًا أسمى ما افرزته الثقافة البشرية . وهذه المقوّمات الثلاثة فى ترعرعها ونموها ، كضرورة حتمية لإزالة الصراع الداخلى لدى الفرد ولتنظيم المجتمع ، فإنها تصير العوامل الرئيسية التى تعمل على تحقيق التكامل الاجتماعى . فهى تتناول المشكلات التى تؤثر فى جميع أفراد المجتمع ، وهى تعمل على القيام بتصرفات تعتمد عليها رفاهية الفرد والمجتمع على السواء . وهكذا نجد أن الدين ، وإلى حد ما السحر ، قد صارا من صميم البنية التى تتشكل منها الثقافة .

والواقع أنه ليس من السهل أن نحاول تحديد أهمية مالينوفسكى كعالم أنثروبولوجيا . ذلك أنه شخصية تتضارب الآراء حولها ، فنجد أن المعلقين ينتحون أو يضطرون إلى اتخاذ موقف مؤيد أو موقف معارض بإزاء ما أسهم به من بحوث . ولكن بصفة عامة فإن تقاريره المتعلقة بالأنثروبولوجيا الوصفية وبحوثه الطليعية فى مجال الطرائق والتقنيات ، قد لقيت تقديرًا من جانب معظم الباحثين باعتبارها من أهم المساهمات فى الأنثروبولوجيا الثقافية . ولكن بالنسبة لمفاهيمه النظرية فإن ثمة موافقة قليلة بإزائها .

Looloo
www.dvd4arab.com

بيد أن لوى وكلوكهوهن كانا من أكثر العلماء انتقاصًا من قدر مالينوفسكى . وقد كان لوى أكثر نعتًا عليه . فهو يقارن مالينوفسكى ببوس فيما يتعلق بالعديد من الاعتبارات ، ويؤكد أن بوس إما أنه كان قد سبق مالينوفسكى فيما قرره ، أو أنه تفوّق عليه فى الوقوف على الحقائق المذكورة . والواقع أن الإنجاز الإيجابى الوحيد الذى يعزوه لوى إلى مالينوفسكى هو استخدامه لمفاهيم التحليل النفسى فى سياق بحوثه الإنثروبولوجية الوصفية . وحتى بالنسبة لهذا المجال فإن التقنيات الميدانية ، يقلل لوى من أهمية مالينوفسكى بإزائها وأسبقيته فيها . ذلك أنه يلاحظ ببساطة أن تقنياته تتطابق مع ما سبق بوس إلى التذرع به .

أما كلوكهوهن فإنه ينوط مالينوفسكى بقدرة عظيمة على التعبير عن أفكاره ، كما ينوطه بالقدرة على إضفاء الجاذبية على بحوثه . وبالإضافة إلى هذا فإنه يوافق مالينوفسكى على ما أسهم به فى توسيع معرفتنا المتعلقة بالأسرة والدين والاقتصاد والقانون . أما النقد الرئيسى الذى يوجهه كلوكهوهن إلى مالينوفسكى فهو ضحالة تفكيره النظرى وعدم تمكنه بالقدر الكافى فى هذا النوع من التفكير النظرى . وهو يقول إن مالينوفسكى لم يستطع أن يتفهم الدقائق الصغيرة ، وأنه لا يعدو أن يكون قائمًا بتجميع الشواهد بعضها إلى بعض على مستوى ضحل .

والواقع أن من الصعب تقييم هذا النقد . فالفيزيائيون قبل نيوتن Newton كانوا منهمكين فى تناول الأجسام المتحركة على الأرض ، وقد انصرفوا نسبيًا عن التفكير فى الأجسام المتحركة فى السماء وإخضاع جميع الأجسام المتحركة ، سواء على الأرض أم بالسماء تحت قانون واحد بغير استثناء . فعلينا إذن أن ننظر إلى بحوث

مالينوفسكى من هذا المنظور قبل أن نُصدر حكمنا عما إذا كان قيامه بعمل تكاملات بين مشاهداته سطحيًا أم غير سطحى .

أما هرسكوفيتس Herskovits فإنه يتفق مع لوى على أن ما أسهم به مالينوفسكى كان مجرد امتداد وتكييف لنظرية فرويد بإزاء تطبيقاته بصدد المعطيات الثقافية . أضف إلى هذا أن مالينوفسكى فيما يتعلق ببحوثه الميدانية ، قد اعتبر فى نظر هرسكوفيتس صاحب فضل فى إلقاء الضوء على الطرائق الميدانية وفى توفير الإجراءات التى طبقت بصدد تسهيل المعالجة العلمية وتناول المعلومات الأنثروبولوجية . أما بالنسبة لما ذهب إليه بإزاء الباحث المشارك "participant observer" فإنه ينوط مالينوفسكى بالقيام بنقلة حقيقية بعيدًا عن الاستخدامات التى ضرب فى إثرها كثير من الباحثين السابقين فى مجال الثقافة .... وفيما يتعلق بالجانب النظرى فإن هرسكوفيتس يعتبر أن فهم مالينوفسكى للأسرة باعتبارها حلقة الصلة بين المعطيات الغريزية وبين اكتساب التراث الثقافى ، بمثابة غزو فكرى أساسى .

أما بيتر موردوك Peter Murdock الذى كانت علاقاته مع مالينوفسكى مشوبة بالتوتر فى بعض الأحيان ، فإنه يضعه فى مستوى مورجان Morgan وتيلور وبوس فى مجال الأنثروبولوجيا ، ويعتبره واحدًا من أعظم المجددين فى العلوم الإنسانية السلوكية على قدم المساواة مع آدم سميث Adam Smith وماركس Marx وسمنر Sumner وفرويد وبافلوف Pavlov . وهو ينوط مالينوفسكى بفضل إرساء مفهوم المؤسسات الاجتماعية فى مجال الأنثروبولوجيا ، باعتبارها الاستجابات الجمعية للحاجات البشرية الأساسية .

ولعل من الأسباب التى عملت على وجود مثل هذا التباين فى الآراء بين الأنثروبولوجيين بإزاء بحوث مالينوفسكى ، هو أنه حاول

Looloo
www.dvd4arab.com

أن يستخدم بعض الأفكار التى استمدها من ميادين أخرى وبخاصة علم الاجتماع وعلم النفس . فبالنسبة للكثيرين الذين كرّسوا أنفسهم للتخصص فى العلوم الاجتماعية ، فإن النزعة الانتقائية eclectic تعتبر فى نظرهم نزعة رديئة ، وقد اتهم مالينوفسكى بأنه لم يراع الحدود التى تفصل فيما بين دراسة الإنسان ودراسة المجتمع . ولكن الواقع أنه إذا كانت بحوث مالينوفسكى ذات أهمية ، فإن ذلك يرجع إلى حد بعيد إلى استخدامه لتوجُّهات علم الاجتماع وعلم النفس وتقنياتهما .

والواقع أن شهرة مالينوفسكى وتأثيره كانا على نطاق أوسع فى انجلترا أكثر من الولايات المتحدة . فهو فى انجلترا يحتل المكانة التى يحتلها رادكليف براون كمطبّق نموذجى للنزعة الوظيفية فى الأنثروبولوجيا . ولقد عملت طرقه التجريبية وصياغاته النظرية الحاسمة على حمل الدارسين على الاهتمام ببحوثه للإفادة من تقنياته وما توحى به من اتجاهات ، ولكنهم اعتبروا أن بحوث رادكليف براون أكثر قدرة على الدفاع عن النزعة الوظيفية .

ومما لا شك فيه أن وضع مالينوفسكى فى تاريخ الأنثروبولوجيا لم يُحسم بعد . وفى النهاية فإن ذلك سوف يعتمد على ما سوف تحتله الأنثروبولوجيا كفرع من فروع العلم فيما يتعلق بالسلوك البشرى . فإذا ما أصرت الأنثروبولوجيا فى اهتماماتها على « الدقائق ذات القيمة » بينما تنظر بالشك إلى « النزعة التكاملية » ، فإن هذا سوف يعنى أن مالينوفسكى سوف يُغض من قيمته كبطل . ولكن إذا ما ساد الاعتقاد بأن الأنثروبولوجيا يمكن أن تقدم إطارًا ووجهة نظر للدراسة المتكاملة للإنسان فى كفاحه من أجل البقاء وتحقيق الذات ، فإن

مالينوفسكى سوف يحسب كعالم أنثروبولوجى عظيم . فالواقع أن اهتمامه الدءوب وانهماكه فى دراما الحياة الإنسانية اليومية ، قد جعله على اتصال دائم بالمشكلات الأساسية التى تتعلق بجهود الإنسان التعاونية لتحقيق استمرار بقائه ولإحراز السعادة فى حياته .

ومن المؤسف أن المنيّة قد وافت مالينوفسكى وهو ما يزال منهمكًا فى أحد بحوثه المهمة ، وكان موته غير المتوقع خسارة كبيرة مُنيت بها العلوم الاجتماعية والمجتمع . لقد كان منهمكًا بعمق فى بحوثه مكرّسًا نفسه للأنثروبولوجيا ، كما أن هذا التكريس كان ينطوى على مشاركة وجدانية عميقة لصالح الإنسان الفرد .

★ ★ ★

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الحادى والعشرون

ألفريد لويس كروبير

Alfred Louis Kroeber

عندما توفى ألفريد لويس كروبير فى أكتوبر عام ١٩٦٠ بعد أن بلغ الرابعة والثمانين ، كان عميدًا للأنثروبولوجيين الأمريكيين ، كما كان لا يزال من أكثر الباحثين جدية ومثابرة فى البحث فى العلوم الاجتماعية . ولقد استمر نشاطه العلمى فى مجال الأنثروبولوجيا ستين عامًا ، وربما كان فى هذه الفترة من التخصص ، آخر أنثربولوجى تمتد اهتماماته وإسهاماته إلى كل الموضوعات الأنثربولوجية . وكان من أكثر الناس حظًا من الاحترام بين الأنثروبولجيين والعلماء فى العالم .

ولد كروبير فى هوبوكن Hoboken فى ١١ يونية عام ١٨٧٦ ، وكان والده من تجار الجملة الأثرياء ، فكان بمقدوره أن يرسل ابنه إلى أعظم المعلمين والمدارس فى نيويورك .

والواقع أن حياته ونشاطه العلمى يعكسان تباعدًا بشكل عام عن العلاقات الشخصية برغم أن الأفراد هم الذين شكّلوا فى نظره الأشكال والأنماط والصيغ الثقافية التى أغرم بها إلى حد بعيد . وفى أواخر حياته صار مهتمًا بالأفراد أكثر من ذى قبل . فبينما كان قبل ذلك مستخدمًا دراسة الحضارة بإصرار باعتبارها « مقوّمًا أساسيًا فى ذاتها ، وأنها ذات نظام مباين للحياة » فإنه بدأ فى أواخر حياته فى الاعتراف بأنه ربما كان قد غالى فى الماضى فى الميل إلى « القول بسببية قائمة برأسها ومستقلة عن قوام الحاملين البشريين للثقافة » .

ومن ثم تبدى لديه اهتمام بالناس الذين كان يتصل بهم فى حياته الشخصية والمهنية . فقدرته على سبيل المثال على العثور على مزايا مخبوءة فى قوام الطلبة غير المبرّزين ، قد صارت معروفة عنه بين زملائه .

وتقع بحوث كروبير فى فئتين أساسيتين : بحوثه الميدانية فى الأنثروبولوجيا الوصفية ، ونظرياته الخاصة بالتقدم الثقافى وبفلسفة التاريخ . ولا شك أن بحوثه المتعلقة بالأنثربولوجيا الوصفية رائعة . أما نظرياته حول الثقافة والتاريخ الثقافى فإن ثمة خلافًا بإزاء تقييمها .

والواقع أن كروبير كباحث عظيم فى الإنثروبولوجيا ، قد غطى بمهارة الكثير من مجالاتها ، كما كان ماهرًا بإزاء موضوعات معينة مثل بقايا الأوانى الفخارية ، والسلال . وكان بمقدوره أن يلقى المحاضرات الطويلة بتفصيل دقيق فى المناسبات التى تتطلب ذلك . وكان مغرمًا بجمع الوقائع المتعلقة ببحوثه وجمع منها الشىء الكثير وقام بتسجيلها . ولقد اتبع المنهج الاستقرائى وأولاه باهتمام عظيم .

ويعتبر كتابه « المرجع فى هنود كاليفورنيا » Handbook of the Indians of California (١٩٢٥) المرجع الأساسى فى هذا المجال ، والمعترف به فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية المتعلقة بكاليفورنيا. وهو يعتبر أكثر المراجع أهمية فى الإنثروبولوجيا الوصفية . وهذا الكتاب كما يذكر كروبير فى مقدمته ، عبارة عن سلسلة من الأوصاف المتعلقة بحياة القبائل . وكان يحاول أن يقدم فيه الحقائق التاريخية المتعلقة بها . وذلك بمحاولته إعادة صياغة الطريقة التى كان هؤلاء الناس ينهجون وفقها فى الماضى ، وما تطوروا إليه فى حياتهم الحالية .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد صار كروبير بفضل خبرته فى الأنثروبولوجيا الوصفية على درجة عظيمة من بلْورة المفاهيم الدقيقة . والواقع أنه تجاوز مرحلة وصف المنطقة أو مجموعة الناس الذين يتناولهم بالدراسة ، وأحل « محلها محاولة لتقديم تفسير تاريخى » . ولقد أدخل مفاهيم جديدة مثل الشدة "intensity" والأوْج "climax" حتى يتسنى له وصف وتقييم المنجزات التى اضطلعت بها المجموعات الاجتماعية بالقطاعات المختلفة من المنطقة الثقافية التى يتناولها بالدراسة ويقوم بتقييمها ، والعمل على إبراز العلاقات القائمة فيما بين المجالات الثقافية المتباينة .

أما الطرائق الإحصائية التى استخدمها كروبير فى قياس « شدة الثقافة » ، فإنها الطرائق الاستقرائية التى أسهم بوس فى انتشارها ، والتى بدأ تيلور باستخدامها بشكل منتظم . فقياس شدة الثقافة يمكن أن يتم بحساب عدد العناصر الثقافية المتمايزة فى إحدى المجموعات الاجتماعية . فالعناصر التى تحصل على العدد الأكبر تمثل درجة التخصص ، أو من الممكن قياس ذلك بتقييم الطرائق التى تتبعها المؤسسات التى يجب أن تكون فى نظر كروبير أكثر وزنًا للشواهد الثقافية . وهذه يجب أن تشتمل على الفئات الدينية فى نطاق المجموعة ، كما تشتمل على الفنون الجمالية والموسيقية والمحاولات العقلانية ، ونظم القرابة الدموية .

وعلى الرغم من أن كروبير ارتد إلى حد ما فى سنواته الأخيرة إلى النظرية الفوق عضوية superorganic ، فإن هذه الفكرة كما تبدت فى عام ١٩١٧ قد هيمنت على فكره فى مجال الثقافة . ولقد كانت مقالته فى عالم ١٩١٧ هجومًا إلى حد ما ضد علماء التطور الاجتماعيين الذين ذهبوا إلى حد النظر إلى المجتمع كموضوع

عضوى خاضع « لقوانين التطور » فى أوج نظرية التطور فى مجال البيولوجيا . وهو فى نقده لوجهات النظر التى شاعت فى القرن التاسع عشر ، كان معبرًا عن وجهة نظر كانت شائعة بين العلماء الاجتماعيين على الأقل . فمقال بوس الشهير بعنوان « حدود المنهج المقارن فى الأنثروبولوجيا » "The Limitations of the Comparative Method in Anthropology" كان قد نشر قبل ذلك بواحد وعشرين عامًا ، ونال قبولاً عامًا باعتباره دحضًا لمنهج التطور فى الأنثروبولوجيا . على أن كروبير قد أحس بأن من الضرورى العمل على تحقيق استقلال الأنثربولوجيا عن علم الأحياء . وبعد ذلك فى عام ١٩٥٢ ذكر أن هدفه الرئيسى من كتابة ذلك المقال لم يكن للاحتجاج على إلحاق الأنثروبولوجيا بعلم الأحياء ، بل بالأحرى لتصحيح وجهة النظر الشائعة على مستوى كبير وقبولها لوجهات النظر البيولوجية بإزاء المجتمع . فقد قال فى عام ١٩٢٥ « أكتب لكى أصحح مفاهيم رجل الشارع وأولئك الذين يكتبون له من الفلاسفة الاجتماعيين من أمثال هربرت سبنسر ولستر وارد Lester Ward وجوستاف لو بون Gustave Le Bon » فهو بحمله هذا عرّض بسخرية للفظ قام هربرت سبنسر بنحته وهو « الفوق عضوى » "superorganic"

وتبعًا لتصنيف كروبير فإن هناك ثلاثة مستويات متمايزة من الظواهر هى : مستوى الجوامد inorganic ومستوى الكائنات الحية organic ومستوى فوق العضوى superorganic (الحضارة) . ويبدأ المستوى فوق العضوى مع إدخال الثقافة على يد الإنسان البدائى ، ولقد بدأ التطور الحضارى الذى كان مستقلاً وغير متأثر بالحياة العضوية انطلاقًا من هذه النقطة .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد استخدم كرويبر المكتشفات العديدة فى مجال العلم بشكل خاص لدعم وجهة نظره . فالأمثلة العديدة التى ذكرها ومن بينها اثنان هما دارون ووالاس Wallace والتى تشير إلى توصُّل المفكرَيْن إلى فكرة بعينها بغير مشاركة أو تعاون فيما بينهما قد أوحت لكرويبر بأن القوى المطلقة أو التسلسلات التى تتضمنها الحضارة ، هى التى تنتج تلك الأفكار ، وأنها تحاول أن تجد لها تعبيرًا عن نفسها من خلال الأفراد الذين تصل إليهم . وهذا هو ما يعنيه الناس عندما يقولون : إن فكرة معينة كانت « فى الهواء » "in the air" تنتظر شخصًا ما لكى يكتشفها .

وبالنسبة لما كتبه كرويبر حول فكرة فوق العضوى منذ عام ١٩١٧ ، فإن من العدل أن نتغاضى عن تعبيراته المتطرفة حول استقلال الثقافة عن الأفراد ، وأن نقول : إنه استخدم هذا المفهوم كوسيلة تبصيرية لتسهيل الدراسة العلمية الموضوعية للثقافة . ذلك أنه اعتقد أن من الضرورى أن نفصل مستويات الظواهر بعضها عن بعض . وهو فى سياق ذلك أحدث فجوة فيما بين ما هو اجتماعى وما هو نفسى برغم اعتقاده أنهما متفقان فى التعبير عما هو قائم بين ما هو عضوى وما هو غير عضوى . ولقد حاول باستخدامه النظريات الإحصائية والاحتمالية ، أن يبرهن على أن الحضارات قد تقدمت وفق قوانين وتسلسلات ، لا يمكن عزوها إلى التصرفات الفردية ، وهو لم ينكر على الإطلاق الحقيقة الواضحة بأن الحضارة محمولة ومتواجدة من خلال الأفراد البشريين .

والواقع أن الصعوبة التى يتضمنها مجرد استخدامه لهذه الفكرة ، تتبدى فى أن أى تفسير بالمعنى العلمى ، إما أن يستبعد المصطلحات التى استخدمها كمصطلح « القوى العظمى » "Majestic Forces" أو

التى تتوارى فى طياتها ، وغيرها من مصطلحات ضمنية . فوظيفة العلم لا تقف عند حدود الوصف ، بل تتبدى فى الشرح أيضًا . فالوصف قد يكون ميسورًا بوساطة نظرية كرويبر ، ولكنه لا يتضمن ، الشرح . فكرويبر قد فشل فى استيعاب طرائق العلوم الفزيائية التى حاول أن يقلدها بوسائل عديدة . وشأنه فى ذلك شأن بوس . فهو يقرر على سبيل المثال أن كوبرنيك قد وقع على نظريته من حسن حظه بأن تناول ظواهر كان من الممكن انضباطها بالفعل . فكان من الميسور إثباتها أو التنبؤ بدحضها سلفًا ، فيكون التفسير بذلك مناسبًا أو غير مناسب . والواقع أن هذا لم يكن الحال فى الوقت الذى قدم فيه كوبرنيك فرضه ، وهو أيضًا ليس الحال بإزاء معظم النظريات التى يقدمها العلماء فى نطاق العلوم المتباينة . فلقد كانت هناك شواهد قليلة ترجّح كفة فرض كوبرنيك يوضح بها أن حركات الكواكب ليست أكثر مما كان متوافرًا لنظرية بطليموس . فلم تكن هناك فرص أمامه لإثبات ترجيح التنبؤات أكثر مما كان متوافرًا لبطليموس . وظل الأمر كذلك ثمانين عامًا منذ أن قام بتقديمها إلى أن اكتشف جاليليو بوساطة تليسكوبه نظام الأقمار التوابع حول كوكب المشترى ، كما شاهد أوجه عطارد والزهرة والمريخ . وبذا تسنى لفرض كوبرنيك أن يتأيد وينال قبولاً غير مباشر . ولقد اعتبر كرويبر مذهبه فوق العضوى مشابها لافتراض كوبرنيك .

وبعد ذلك ببضع سنوات حاول كرويبر أن يقدم المبررات لجمود الظواهر الثقافية على المستوى الثقافى وذلك باسترجاع العوامل الشكلية "Formal" والعوامل الفعلية "Efficient" لمضاهاتهما بالمستوى الثقافى والمستوى الفردى على التوالى . بيد أنه بالنسبة للعلم الأرسطى ، كان لابد أن يوضح ما عليه الأشياء ، ولماذا هى عليه هكذا . والواقع أن التمسك بالأسباب الشكلية يلزمك بأن تتمسك

Looloo
www.dvd4arab.com

بالأسباب الفاعلة ، تبعًا لما ذهب إليه أرسطو ، فلا تستطيع أن تفعل كما فعل كرويبر بأن تكتفى بأنك غير مهتم بالأسباب الفاعلة ، أعنى أنك غير مهتم بما يصدر عن الأفراد من تصرفات .

وليس هناك شك فى أن فكرة فوق العضوى تساعد فى التمييز بين الوراثة العضوية ، وبين التراث الاجتماعى ، ومن ثَمَّ فإنها تساعد فى تحقيق هذا الهدف . ولكن عند استخدام هذه الفكرة كمفهوم أساسى لتقديم تفسير علمى فى دراسة الإنسان والمجتمع ، فإنها تكون موضع شك من حيث قيمتها ، إن لم تكن عاملاً يؤدى إلى الوقوع فى الخطأ الشنيع . ولكن لسلى هوايت Leslie White قد تناول مفهوم فوق العضوى وتقدم به بقوة تناظر القوة التى دفعه بها كرويبر أو فاقه فى ذلك . وتبعًا لهوايت فإن الظواهر الثقافية تتفاعل فيما بينها على المستوى « فوق العضوى وتشكل ترابطات جديدة ومركبات لم تكن موجودة من قبل . والواقع أن دراسة وتفسير هذه الأحداث يمكن أن تتم ليس فقط بغير الإشارة إلى الأفراد فحسب ، سواء أكانوا موهوبين أم غير موهوبين ، بل حتى بغير إشارة إلى الجنس البشرى نفسه . صحيح إن دراسة كهذه يمكن أن تتم ، ولكن السؤال هو : فى أى شىء تكون هذه الدراسة مفيدة ؟

والواقع أن فكرة كرويبر حول فوق العضوى تبدو من السطح مشابهة لمنهج دور كايم الخاص « بالوقائع الاجتماعية "Soccal Facts" التى تناولها باعتبارها أشياء "Things" تخضع للدراسة التجريبية . صحيح أن هناك تشابهات فيما بينهما ، ولكن الاختلافات فيما بينهما على جانب أكبر من الأهمية . فبالنسبة لدوركايم فإن الفرد كان على أكبر جانب من الأهمية ، ثم إنه أضفى

الحيوية على الواقع الخارجى للمؤسسات الاجتماعية لكى يدعم القوة الضاغطة على الفرد . وما كان مهمًا بالنسبة لدور كايم ، كان الطريقة التى يصير بها المجتمع ممتصًا فى قوام الفرد . أما كرويبر فإنه لم يكن مهتمًا بأى حال بهذا النوع من التوظيف ، بل إنه حاول أن يلقى الضوء على التفاعل المتبادل فيما بين الفرد والمجتمع .

ولقد قام كرويبر فى دراستين منفصلتين تفصل بينهما إحدى وعشرون سنة ، بمدارسة موديلات ملابس السيدات خلال فترات من الزمن . فقام بالدراسة الأولى فى عام ١٩١٩ ومسح فيها الفترة فيما بين عامى ١٨٤٤و١٩١٩ . أما الدراسة الثانية فإنها كانت بالاشتراك مع جين ريتشاردسون Jane Richardson واستوعبت فترة تمتد إلى ثلاثمائة سنة . والواقع أن هاتين الدراستين مثالان جيدان للبحث المستهدى بمفهوم إرشادى هو مفهوم فوق العضوى . وتمت الدراسة الأولى كما يقول كرويبر فى « الفترة التى كان يفكر خلالها فى مفهوم فوق العضوية » .

ولقد وجد كرويبر فى هذا المجال المتسم بكثرة التغيرات المتلاحقة بشكل واضح ـ أعنى أشكال وألوان الأزياء ـ أن ثمة « إيقاعات "Rhythms" يخضع لها التغير ، وهى الإيقاعات التى تستمر فيها الموجة الواحدة لفترة تمتد إلى حوالى مائة سنة. وهو يخلص من ذلك إلى أنه بالنسبة للموضة ، فإنها تتغير بنفس الطريقة التى تخضع لها التغيرات الاقتصادية . فهناك شطحات تتذرع بها فى مسارها ، أو فى اتجاهها ، وفى دوائرها المتراكبة أو المتذبذبة . وهنا نجد مثالاً واقعيًا يصل إليه كرويبر بطريقة استقرائية هو « القوى المهيمنة » التى تبدو على المستوى الاجتماعى الثقافى . على أن الفرد يُستبعد من هاتين الدراستين ، لا لأن كرويبر ينكر وجود البواعث السيكولوجية التى

Looloo
www.dvd4arab.com

تعتمل فيها ، بل لأن تلك المعلومات السيكولوجية غير قابلة للقياس ، وغير خاضعة للتحديد فى نظره . فمن الممكن تبعا له أن تحدد العلاقات الوظيفية بغير إقحام الفرد فيها . والمشكلة هى أن تلك العلاقات هى علاقات رياضية بحتة ، وأنها لا تتصل من قريب أو من بعيد بقوام الإنسان بشحمه ولحمه بأى حال .

وفى مدارسة لمقال لكروبيرعن « فوق العضوية » فى عام ١٩١٧، لاحظ إدوار سابير Edward Sapir أن كروبير قد استمد الأمثلة التى أوردها من مجالى العلم والاختراع ، حيث تؤدى تراكمات المعرفة إلى حتمية عامة بإزاء المكتشفات ، وقال : لو أن كروبير كان قد شغل نفسه بقدر أكبر بالأنشطة الدينية والفلسفية والجمالية والإرادية والميول المعتملة لدى الإنسان ، لكانت قضيته المتعلقة بعدم الأهمية الثقافية للفرد على جانب أكبر من الصعوبة . وفى عام ١٩٤٤ نشر كروبير كتابا بعنوان « أشكال نمو الثقافة » Configurations Of Culture Growth الذى عكف على تأليفه ثلاثين عاما . ويمكن اعتبار هذا الكتاب بمثابة قبول لتحدى سابير . ذلك أنه حاول فيه أن يعثر على أشكال على هيئة أمواج تعتور النمو الثقافى فى مجالات الفلسفة والفيلولوجيا والنحت والتصوير والدراما والأدب والموسيقا بالإضافة إلى العلم ، وكان يقصد من طريقة أدائه فى هذه الدراسة تحديد « انحناءات القيمة » "Value Curves" فى ضوء الوقت والموقع الجغرافى الذى تتم فيه الأنشطة العقلانية والجمالية المعترف بها . أما نوعية الوقت المقضى فى صياغة الصور Quality-time Configurations فقد تحددت بالنسبة للفلسفة وغيرها من ميادين فى ست ثقافات رئيسية بالعالم ، وهذه الأشكال المنفصلة قد خضعت للمقارنة بعضها ببعض .

وعلى أساس أن الكليات يمكن أن توجد فى الخصائص والعمليات المجرّدة وليس فى الظواهر المحددة ، فإن كروبير تناول العباقرة من الأفراد عبر التاريخ باعتبارهم آليات لا مناص منها أو قياسات للتعبير الثقافى وقد استخدمهم كأعراض "Symptoms" لإعادة صياغة أشكال الأمواج فى سياق النمو الثقافى . ولاحظ أنه كان من الشائع بالمجتمعات فى العادة أنها تقوم بتطوير ثقافاتها إلى أعلى مستوياتها بطريقة متقطعة ... وأن هذا التكرار الثقافى العام والمتقطع هو الذى يجب القيام بدراسته . أما الخلاصة الرئيسية التى توصل إليها فهى أن أعظم المنجزات الجمالية والعقلانية فى التاريخ ، قد حدثت على هيئة تفجرات مؤقتة للنمو ، كما يتضح ذلك فى تجمع العباقرة المشهورين فى وقت واحد وفى مكان واحد .

وهو يحدد القيم العليا لأى مجتمع ، أعنى القيم الجمالية والعقلانية والعلمية ، بأنها تلك الخصائص التى تتسم بها النتاجات البشرية التى تتبدى بشكل طبيعى فى التشكيلات التاريخية التى تحددت وأخذت أشكالها . وهو يرى أن مقومات الإنتاج الفردية بالأنماط أو الخطط الثقافية ليست هى العوامل الفاعلة ، بل إنها بالأحرى مجرد مركبات أو أدوات للثقافة . فأعمال العباقرة من الأفراد تشير إلى توصلهم إلى قمة نمط معين ، أو إلى خطة ثقافية معينة . والتوصل إلى القمة يتأتى فى اللحظة التى يحدث فيها الشعور بالمدى الكامل للإمكانات المتاحة فى إطار النمط ، بينما يحدث التدهور عندما لا تبقى سوى مجالات قليلة لاستثمارها . وعلى هذا فإن هناك نبضات حية "Pulses" من جهة وتدهورات "Lulls" من جهة أخرى فى نمو الأنماط الثقافية ذات القيمة الكبيرة . بيد أن الأنماط الثقافية ذات المستوى المنخفض لا تبدى مثل هذا التلاشى السريع . فهى قد تستمر فى

Looloo
www.dvd4arab.com

الوجود الظاهرى دون أن يطرأ عليها تغير كبير لمدة طويلة . أما السبب فى هذا فإنه غير واضح فى نظر كروبير . فهو لا يستطيع إلا أن يقول : إنه ربما يكون هناك شيء ما غير معروف فى بنية العقل البشرى .

ولقد كان هدف كروبير من القيام بهذا البحث ، أن يبرهن على ما تنهجه الظواهر الثقافية بطريقة « تجريبية » Empirical بدلاً من التذرع بالطريقة الحدسية أو القبْلية "Intuitively Or Apriori" . فكان أن انتحى إلى النزعة السلوكية ، وليس إلى النزعة التفسيرية . أما معالجته لشخصية القديس أوغسطين فإنها توضح كيف أن الطريقة الاستقرائية يمكن أن تحتل مكانها فى هذا المجال . فظهور رجل مثل أوغسطين خلال فترة خفوت ثقافى يشكل مشكلة . بيد أن كروبير قام بحلها وذلك بإنكاره أن أوغسطين كان عبقريًا ، وقد أخذ فى البرهنة على أن النجاح الذى حظيت به المسيحية كمؤسسة ، هو الذى جعله شخصية مهمة كفيلسوف . ولكن هل معنى هذا أنه لولا تطور العلم إلى ما تطور إليه واحتلاله مكانة مهمة ، ما كنا إذن قد سمعنا عن أرسطو كعلامة مهمة فى تاريخ الفلسفة ؟

الواقع أن كتاب « أشكال نمو الثقافة » يعتبر قمة الدعوة الملحة التى وجهها كروبير لدعم مفهومه عن « فوق العضوية » . ففى بداية هذا الكتاب يقرر كروبير أنه يبدو أن هناك أشكالاً معينة من الأحداث التى تتكرر أو تتوالد . وربما يكون تكرارها أو توالدها ضروريًا وشاملاً . وفى نهاية الكتاب يقول : « أنا أريد أن أقول : إنى لا أرى أية شواهد تشير إلى وجود أى قانون حقيقى يعتمل بإزاء الشواهد التى عرضت لها . فليس هناك ما هو دورى أو ما يتكرر بانتظام أو بالضرورة . » وفى عام ١٩٣١ كتب قائلاً : إن من الأفضل أن يكون

عنوان هذا الكتاب « ملامح مقومات النمو الثقافى » "Profiles Of Cultral Growth" وقد يكون المبرر لانتحائه هذا المنحى الجديد هو رغبته فى التأكيد على الطبيعة الوصفية "Descriptive" البحتة لهذا البحث ، وليس الطبيعة الشرحية Explanatory . على أن من الواضح أنه بالرغم من عدم اعتقاده فى أهمية تقديم الشروح ، فإنه يعتقد إلى حد ما فى أن الأنماط الثقافية تعتمل كأسباب بدرجة كافية . وعلى الرغم من أنه ينعتها بأنها أسباب صورية ، فإنه يشير إلى الأنماط الثقافية باعتبارها قوى أو نبضات ، كما يتحدث عن مسيرتها أو اتجاهها ونموها وتحققها ثم نفاد قوتها وموتها . وهو يشير فى هذا النقد إلى أن قصور التعبيرات التقنية فى مجال العلوم التاريخية الاجتماعية ، قد أجبره على اللجوء إلى استخدام اللغة الرمزية والمجازية . بيد أن الواقع أن الصعوبة ، لاتكمن فى الحدود الضيقة للغة ، بل ترجع إلى ذلك التناقض الذى يتبدى فى محاولة فصل جهود الأفراد عن إبداعاتهم الثقافية .

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة قد فشلت فى تقديم أى تفسير بإزاء السلوك الثقافى ، فإنها تعتبر فى الواقع عملاً بارعًا وشهادة على مدى التمكن البحثى الذى حققه ألفريد كروبير ، وعلى مدى اهتمامه وتدقيقه . فهو بحث وصفى عظيم القيمة فى مجال التاريخ الثقافى المقارن ، وفى إبراز مجموعة من المشكلات المهمة . فعلى الرغم من أن كروبير لم يقدم الإجابة عن المشكلات التى أثارها ، فقد كان مدركًا على الأقل للصعوبات والمشكلات التى تعتور طريقه ، ولم يفعل كما فعل آخرون بتقديم حلول سهلة ومضللة فى مجال لا يزال يشكل أعظم تحد للعلماء الاجتماعيين .

Looloo
www.dvd4arab.com

والواقع أن كروبير قد أخذ بعد ذلك فى إقامة جسور من التكامل بين أفكاره التى تستبعد الأفراد من عمليات التطور الحضارى ، وبين النظريات التى تتضمن الفرد فى نطاقها ، وذلك كمحاولة من جانبه لتقديم تفسيرات سببية ودينامية فى مجال التاريخ والعلوم الاجتماعية . وعندما عاد إلى مدارسة كتاب فرويد بعنوان الطوطم والتابوه Totem And Taboo فى عام ١٩٣٩ ، فإنه عدل إلى حد بعيد عن نقده السلبى الذى كان قد قدمه فى عام ١٩٢٠ وحفزه على كتابة مقاله الثانى بعد حضور ندوة انتقد خلالها أحد الدارسين بحث فرويد بشدة .

والواقع أن النقد الأول الذى قدمه كروبير لكتاب الطوطم والتابوه ، قد انبثق عن اعتقاد جازم لديه بأن علم النفس لا شأن له بالمجال التاريخى . فقام بنقد المادة التاريخية التى استخدمها فرويد فى بناء نظرياته متهمًا اياه بالتخمين وعدم اليقين . فلقد أشار على سبيل المثال إلى أنه ليس لنا الحق فى الاعتقاد بأن التنظيم الاجتماعى البدائى لدى الإنسان القديم كان شبيها بذلك النظام الذى تنتهجه الغوريلا ، أو أن الذبائح البشرية كانت ممارسة عامة ، أو أن غشيان المحارم والزواج من الأباعد كان أقدم التابوهات ، كما أننا لسنا موقنين من أن الأبناء كانوا يقتلون آباءهم . وفى عام ١٩٣٩ كان كروبير على استعداد أن يقول إن مزاعم فرويد التاريخية ليس لها صلة بالموضوع ، ولكنه الآن يتناول كلام فرويد فيقول : لكى نعلم ما إذا كانت نظرية فرويد تتضمن أى احتمال لأن تكون تفسيرًا شاملاً ، وليست منحصرة فى نطاق ما يقدمه علم النفس فيما يتصل بظواهر تاريخية معينة تتكرر أو تتصل بمعتقدات مثل الطوطمية والتابو . ولقد استمر كروبير فى الزعم بأن بحوث فرويد قد ساعدت الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع فى بحثهم عن تفسير للتكرار

وللتباينات المتبدية فى الثقافة ، وقال : إن فرويد ربما يكون قد ساعدهم فى العثور على شىء معتمل كأساس لفهم الثقافة .

بيد أن كروبير قد أخذ يكرر الكثير من النقد الذى وجهه إلى كتاب فرويد الطوطم والتابو ، ولكنه أضاف أن فرويد قد أسهم إلى حد بعيد ودائم عن طريق المفاهيم المتعلقة بالكبت والنكوص وعناد الطفولة والرموز ، التى تتبدى فى أثناء الأحلام واعتمال الشعور بالذنب والعواطف بتجاه أعضاء الأسرة . بيد أنه لم يعتقد أن مفاهيم فرويد كمفهوم الأنا الأعلى وعقدة الإخصاء قد أسهمت فى إلقاء بعض الضوء على مجال الأنثروبولوجيا ، وانتهى إلى أن مذهب فرويد ، لا يمكن أن يستخدم ، لا فى العلم ولا فى التاريخ ، ولكن كليهما يمكن أن يقبلا وأن يستخدما بعضًا من المفاهيم التى يتضمنها هذا المذهب فى سياق البحث فيهما .

وفى عام ١٩٥٠ عبر كروبير عن رغبته فى الرجوع بالطبيعة البشرية إلى دراسة سيكولوجية الإنسان ، وحذّر من تجاهل التفسيرات السيكولوجية كما أراد ذلك لسلى هوايت . فالصيغ الثقافية مهمة بالتأكيد ولكن بالنسبة للتفسيرات السببية والدينامية ، فإن على المرء أن يوجه بصره إلى الفرد ؛ لأنه بصدد تفسير الثقافة ، فإننا نجد أنفسنا بحاجة إلى ما هو أكثر من التسلسل التاريخى .

وفى عام ١٩٥٢ حاول كروبير بالتعاون مع كلكهون أن يقدم إيضاحًا تفصيليًا عن موقفه النظرى بإزاء الثقافة والفرد . فاعترف بوجوب الربط فيما بين الثقافة وعلم النفس ، ولكنه عبّر عن مخاوفه من أن هذا قد يعنى ضمنًا أن هذه الجهود قد تفسر بأنها محاولة

Looloo
www.dvd4arab.com

للتخلص من الثقافة بالعمل على إذابتها أو إضاعة ملامحها ، كما اعتقد فى الوقت نفسه أن علم النفس قد يتسرب فى نهاية المطاف أكثر فأكثر ليصير العامل المسبب للثقافة ، ولكن بالنسبة للمستقبل المنظور فإن أفضل أمل بالنسبة للوصف والشرح المحدود للظواهر الثقافية ، يكمن فى دراسة الأشكال والعمليات الثقافية فى ذاتها فى انفصال عن الأفراد وعن الشخصيات .

وليس هناك شك فى أن كرويبر يحتل مكانة رفيعة بين الأنثروبولوجيين العظماء . فبحثه بإزاء هنود كاليفورنيا ، لا يمكن أن يبارى . فلقد أسهم بأعظم الإسهامات فى الأنثروبولوجيا واللغويات والآثار والإثنوغرافيا . وبقى أن نرى ما إذا كانت نظرياته فى مجالى الثقافة والتاريخ الثقافى سوف تثبت أمام سهام النقد . فثمة الكثير من الآراء المتضاربة بإزاء فلسفة التاريخ وفلسفة العلم ، مما يجعل من الصعب القيام بتقييم قيمتهما الحقيقية . ولكن وجهات نظر كرويبر الصريحة والمثيرة قد تستحث على الأقل بحوث الكثير من العلماء الذين يعملون فى مجال الأنثروبولوجيا ويقومون بمدارسة مشكلاتها .

★ ★ ★

الفصل الثانى والعشرون

روث بنيديكت Ruth Benedict

ولدت روث بنيديكت بمدينة نيويورك عام ١٨٨٧ ، وكانت مغرمة بالشعر وعلى جانب كبير من الذكاء ، ثم تحولت من الشعر إلى البحوث الميدانية للبدائيين ، فكانت خبرتها الأولى مستمدة من مدارسة قبيلة بيما Pima وكان همها الأول والرئيسى أن تفهم الناس من خلال تحليل « أنماطهم الثقافية » المتميزة . وسجلت دراستها فى بحثها الأول بعنوان « الأنماط السيكولوجية فى ثقافات الجنوب الغربى » "psychological types in the Cultures of the Southwest" ثم صارت مشهورة بين قرائها بكتابها المسمى أنماط الثقافة Patterns of Culture الذى صدر فى عام ١٩٣٤ .

وبالإضافة إلى بحوثها الميدانية حول هنود الجنوب الغربى التى اضطلعت بها وهى فى العشرينيات ، فإنها أخذت فى دراسة أنماط الثقافة الآسيوية والأوربية وهى فى الأربعينيات عن طريق المعلومات التى قامت بتجميعها من المناطق الحضارية بذلك الإقليم . والواقع أن كتابها عن الثقافة اليابانية الذى صدر عام ١٩٤٦ ، يعتبر أفضل بحث قامت به فى هذا الميدان . وكانت تقوم بالبحث الميدانى خلال الصيف عندما كانت تنقطع عن التدريس فى كولومبيا حيث كانت منوطة بالتدريس وبمسئوليات إدارية مرهقة . وفى خلال الحرب أسهمت بخدمات عظيمة للحكومة كمحللة اجتماعية فى مكتب المعلومات العسكرى . وفى عام ١٩٤٨ حضرت سيمينار اليونسكو فى

Loofoo
www.dvd4arab.com

تشيكوسلوفاكيا ، ثم توفيت فى أواخر ذلك العام بعد عودتها إلى نيويورك وقد بلغت الحادية والستين .

والواقع أن ما جبلت عليه بنيديكت من النظر إلى الأمور بتكامل وتعميم ، قد حفزها منذ البداية على أن تتخذ موقفا يتصف بالشمولية بإزاء الثقافة . فبدا لها أن تسجيل السمات الثقافية غير المترابطة والقيام بتحليلها لا يكفى لإلقاء الضوء على الثقافة . فهى بتذرعها بالنزعة الوظيفية كما فعل مالينوفسكى ، كانت تصر على دراسة الثقافات باعتبارها كليات متكاملة . ولكن بينما بدأ مالينوفسكى دراسته بالفرد ، وقد اعتبر الظواهر الثقافية مجرد انبثاقات من الحاجات الفردية ، فإن بنيديكت بدأت « بالأشكال الثقافية » "cultural configurations" ، بينما اعتبرت السلوك الفردى بمثابة مطابقة للمتطلبات الثقافية التى تحيط به .

وتبعا لبنيديكت فإن لدى معظم المجتمعات « باعث مسيطر "dominant drive" » ينحو إلى العمل على تكرار مواقف إنسانية بإزاء الميلاد والموت والسعى للحصول على الطعام والمأوى فى ضوء ميول كل منها . فالهنود بالسهول الغربية عندما يموت أحد من ذويهم على سبيل المثال ، فإن ذلك الحدث يشكل بالنسبة لهم حزنا عميقا لا يحتمل ، ويستمر انتحابهم مدة طويلة . أما بالنسبة للبوبيلو بالجنوب الغربى ، فإن توجههم الثقافى ، يحملهم على نسيان الأشخاص الذين يموتون بأسرع ما يمكن وبهدوء كامل . فهاتان الثقافتان تتسمان « بباعثين » "drives" متعارضين وقد لخصتهما بنيديكت فى ضوء مصطلحين اقتبستهما من نيتشة Nietzsche هما الديونيسينى Dionysian (فى السهول) والأبولونى Apollonian . (بالجنوب الغربى) . والباعث الأول يتسم بالنوبات والإفراط ، بينما يتسم الباعث الثانى

بالاعتدال والنظام . أما الممارسات الدينية والشئون العسكرية والجنسية فى كلتا الثقافتين فإنها تتلاءم بحيث تستخدم كمناسبات لتحقيق مطالب البواعث الثقافية لدى كل من الطرفين . وعلى هذا فإن معنى ووظيفة هذه المؤسسات تتباين بتباين هاتين الثقافتين تبعا لتباين بواعث كل منهما .

من هنا فإن بنيديكت ترى أن من الممكن أن يكون هناك تفسير وظيفى لكل ثقافة من الثقافات المتباينة ، ولكن هذا مستحيل بالنسبة للثقافة بشكل عام . ويُشتم من كلام بنيديكت أن من المستحيل أن يكون هناك علم للثقافة وإن كانت هى لم تعلن ذلك بصراحة . ذلك أنه طالما هناك تباين « لا نهائى تقريبا » فإن من المستحيل إذن تقديم تفسير علمى للثقافة يضمها جميعا فى نطاقه . وهذا هو المعنى المهم بإزاء النسبية الثقافية الرئيسية لدى بنيديكت ، ويمكن أن تكون قد تأثرت ببوس أستاذها فى هذا الصدد .

والواقع أن من الممكن تناول البحوث الأولى لبنيديكت وما بذلته فيها من جهد كبير لدعم فكرة النسبية الثقافية . فهى تصر على أنه ربما يكون هناك قدر ضئيل جدًا من الحرية الفردية ، ولكن ثمة حرية ثقافية غير محدودة . وهى فى برهانها على التعريف النسبى للسوية تقول « يبدو لى أن الثقافات قد تتبنى بمتانة وبانسجام على أساس من الأوهام والخوف والتصورات الذهنية ، أو حتى على أساس من عقد النقص والانغماس فى النفاق والمزاعم الباطلة » فهى ترى أن من الممكن أن نشير دائما إلى وجود — أو إلى احتمال وجود — موقف ثقافى يكون فيه الانحراف عن السوية فى أى ثقافة موجودا . وعلى الرغم من أن هذا المعنى المتضمن ليست له قيمة عملية بالنسبة لأى فرد نشأ بينه وبين مجتمعه نزاع ، فيبدو من المناسب لبنيديكت تقييم سلوكه فى ضوء الموقف الثقافى الملائم .

Looloo
www.dvd4arab.com

ولقد قامت بنيديكت فى أفضل بحث قامت به وهو أنماط الثقافة Patterns of Culture بتجميع العديد من المقالات والدراسات الميدانية التى اضطلعت بها خلال اثنتى عشرة سنة واستفادت جدًا من الدراسات الميدانية التى قام بها بوس ، وروث بونزل ، وريوفورتون .

وعندما كانت بنيديكت فى العشرينيات أخذت تلاحظ من خلال خبرتها الميدانية بصدد الهنود فى الجنوب الغربى أن ثقافة البويبلو Pueblo كانت مختلفة اختلافًا جذريًا فى أنحاء كثيرة عن ثقافة هنود أمريكا الشمالية بوجه عام على الرغم من أن الواقع أنه لم تكن هناك عوائق طبيعية تعزلهم عن الشعوب المجاورة . ولقد بدا لها أن الشعب البويبلو معزول بشكل لا يكاد يصدّق عن التأثير الثقافى لجيرانهم . فبينما كان سلوك الهنود بشمال أمريكا يتسم إلى حد كبير بالنشوة والعربدة كما تقول بنيديكت ، فإن البويبلو كانوا يتسمون بالاعتدال والرزانة . فالبويبلو وجيرانهم يقدمون مثالاً واضحًا فى رأى بنيديكت للتقسيم الشهير الذى قرره نيتشة عن التعارض بين الديونيسى Dionysian والأبولونى Apollonian فى العالم اليونانى القديم .

ولكى تعقد بنيديكت مقارنة بإزاء البويبلو ، فإنها اختارت قبيلة كواكيوتل Kwakiutl من بين قبائل الشاطئ الشمالى الذين قام بوس بتقديم وصف تفصيلى لهم . فجميع الأنشطة ابتداء من رقصات المجتمع الكانيبالى Cannibal Society حتى الشئون العملية المتعلقة بنظمهم الاقتصادية ، تكشف النقاب عن البواعث الأساسية المتعلقة بالعنف وتمجيد الذات . وثمة نتيجتان كان من الممكن التوصل إليهما بالنسبة لأى نوع من العلاقات أو الأنشطة : إما الانتصار الكامل ، وإما الشعور بالخزى واحتقار الذات . وبالتعبير الطبى فإنهم كانوا فى نظر بنيديكت مصابين « ببارانويا جنون العظمة » megelo-maniac" paranoid" . وما تتصف به حياتهم من نشوة واكتئاب ، يمكن أن يعتبر من السمات الديونيسية ، وقد اشترك فى هذا الشعور المزدوج معظم الهنود الأمريكيين ، باستثناء بويبلو بالجنوب الغربى .

ويبدو أن بنيديكت قد التقطت الدوبو Dobu بغانا الجديدة كنموذج لدراسة تاريخ حالة للبرهنة على أن الثقافة يمكن أن توظف بطريقة ناجعة عندما تحصل على ما تنعته الحضارة الغربية بأنه أكثر السمات البشرية انحرافًا عن الخلق القويم . تقول بنيديكت : « إن الدوبيانى يمارس حياته دون أن يكبت أسوأ كوابيسه المتعلقة ببغضه للكون ، ووفقًا لنظرته إلى الحياة . فالفضيلة تتشكل لديه من اختياره لضحية يقع عليها متمثلة فى أحد الناس المحيطين به ، وعن طريقه يستطيع أن ينفس عن الطبيعة الشريرة التى يعزوها فى الوقت نفسه إلى المجتمع البشرى وإلى قوة الطبيعة » فالكراهية والخيانة هما الفضيلتان المتأصلتان فى ذلك المجتمع وهما تمارسان فى إطار الأشكال الثقافية المحددة . « فالإنسان الصالح » لديهم هو الإنسان الذى يعيش صراعات يومه ، وقد اكتسب قدرًا من النجاح فى مغالبة تلك الصراعات . فمن المسلم به هناك أنه يكون قد سبق له أن سرق أطفالاً وقتلهم كما أنه يغش أقرب المقرّبين إليه بوساطة السحر بقدر ما يتسنى له ذلك ويستطيعه .

والثقافات التى قامت بنيديكت بوصفها فى كتابها أنماط الثقافة Patterns of Culture ، قد ألقت الضوء على فكرتها التى تذهب إلى أن من الممكن النظر إلى الثقافة باعتبارها مؤلفة من تصورات ثقافية تتكامل بعضها مع بعض فى ظل نمط عام واحد مهيمن . من هنا فإن الثقافة تناظر كائنًا حيًا قائمًا برأسه ، إذ إنها نمط منسجم إلى حد بعيد بهذا الصدد من حيث الفكر والتصرف . والواقع أن المصطلحات

Looloo
www.dvd4arab.com

السيكولوجية يمكن أن تستخدم هنا لتحليل وتلخيص الخصائص الثقافية . فبنيديكت تقرر أن الثقافات « بمثابة قوام سيكولوجى فردى مطروح على نطاق واسع فوق ستارة ، وقد احتل مكانا كبيرا واستمر ردحا كبيرا من الزمن » . والواقع أن هذا الاستخدام لعلم النفس هو الذى يضع بنيديكت بين الأنثروبولوجيين المُحْدثين الذين حاولوا التذرع بطريقة تربط فيما بين العلوم بعضها وبعض فى سبيل دراسة الفرد والمجتمع . ومن الواجب أن نلاحظ أن بنيديكت فى بحوثها الأولى بصفة خاصة لم تكن تستخدم الجوانب الوظيفية والتوافقية التى تتبدى فى النظرية السيكولوجية فى محاولة لتفسير الأسباب التى تجعل إحدى الثقافات مباينة عن لسواها من ثقافات أخرى . ويبدو الطابع الذى يميز مجموعة من الناس ببساطة ـ كما يتبدى فى دراسة بنيديكت ـ على نحو مطابق إلى حد بعيد لما انتحى إليه كروبير فى استخدامه « الموضة » style فى دراسته للأزياء . والواقع أن بنيديكت قد استخدمت هى الأخرى لفظ style بما يشتمل عليه من معان إضافية طارئة لكى توحى بالطبيعة السيكولوجية التى تتسم بها الثقافة .

بيد أن الخلفية التى تستند إليها « عبقرية القبيلة » "tribal-genius" لدى بنيديكت ليست من طبيعة سيكولوجية . والواقع أن بحوث ولهلم دلثى Wilhelm Dilthey وأوزوالد شبنجلر Oswald Spengler قد أثرت فى تفكير بنيديكت إلى حد بعيد ، كما كان لنظم التفكير العظيمة لدى كانط Kant وهجل Hegel الأثر العظيم أيضا فى تفكيرها . فكانط يتحدث عن « خطة الطبيعة » "plan of nature" فى صياغة التاريخ ، وهى الخطة التى تناظر « قوانين الطبيعة » فى مجال العلم . فكانط يتصور الإنسان باعتباره منفذا لهذه الخطة دون أن يكون له علم بها . وبالنسبة لهجل فإنه لا توجد فى نظره خطة للطبيعة تعتمل خلف

الأحداث التاريخية ، ولكن تلك الخطة منوطة بعقل الإنسان وانفعالاته ، سواء أكان يعقلها أم لا . وعلى الرغم من أن الأحداث التاريخية تعلن عن نفسها من حيث الظاهر ، فإن أفكار الناس التى تعتمل فى قوامهم لا تشتمل بالضرورة على ارتباطات منطقية . من هنا فإن على المؤرخ أن يعمل من الخارج ومن الداخل فى الوقت نفسه . فعليه أن يسبر أغوار الأحداث لكى يعثر على « الأفكار » التى تترابط فيما بينها منطقيًا خلفها ـ أعنى أن يسبر « روح الزمان » spirit of the time . والواقع أن دلثى Dilthey يقترب من هجل عندما يتحدث عن ضرورة معايشة « النشاط الروحى » الخاص مرة أخرى ، وهو النشاط المتعلق بالثقافة التى يتناولها المرء بالدراسة ؛ حتى يتسنى له فهمها . فالنظم الفلسفية فى نظر دلثى إنما هى تعبيرات عن الأمزجة الثقافية المتباينة ، أعنى الأمزجة التى لا يمكن ردها بعضها إلى بعض . أما شبنلجر Spengler فإنه يؤكد على السمة الخاصة بكل ثقافة . فالثقافة تعبّر عن شخصيتها فى جميع تفاصيل وجودها . فكما هو الحال عند دلثى ، فإن ثمة إصرارا لديه على استقلال الثقافات بعضها عن بعض .

والواقع أنه بفضل تأثير علم النفس الجشطلتى فى التأكيد على أهمية أطر البحث الذاتية ، فإن بنيديكت قد طبقت فكرة النظرة الكلية التى استمدتها من التراث التاريخى الألمانى بإزاء المعلومات المتعلقة بالأنثروبولوجيا الثقافية . وحتى فى بحوثها المتأخرة التى استخدمت فيها علم النفس التكيُّفى لتفسير الاستمراريات فى نطاق الثقافة ، فإن منهجها يظل قائما على فكرة عبقرية القبيلة . ومما لا شك فيه أن هذا المنهج ـ كما هو واضح ـ يرتبط ارتباطا حميما بها كشاعرة تجتهد فى أن تستقطر جوهر الخبرة أو مجموعة مركبة من الأحداث ؛ لكى

Looloo
www.dvd4arab.com

تحصل منها على الخلاصة . والواقع أن المبالغة بالإضافة والحذف اللذين يفرضهما تصور مركزى مسبق ، ضروريان لهذا الفن . بيد أن العالم عندما يمارس الشعر ، فإن ثمة أخطارًا واضحة للعيان تعترض طريقه .

أما النقد المستمر الموجّه إلى بحوث بنيديكت ، فهو أنها قامت باختيار سمات ثقافية من مجتمع معين تستعين بها فى دعم تصورها حول عبقريتها الخاصة ، وقد أغفلت تلك السمات التى تبدو أنها تعكس باعثًا متصارعًا . والواقع أن الروح الديونيسية والروح الأبولونية توجدان فى الغالب جنبًا لجنب فى الثقافة الواحدة ولدى الفرد الواحد على الرغم من أن واحدة منهما تكون هى السائدة . والواقع أن الوجود المتزامن لهذين الباعثين فى العالم اليونانى القديم هو الذى جذب اهتمام نيتشة وحمله على تأليف كتابه ميلاد التراجيديا **The Birth of Tragedy** .

أما وصف إحدى الثقافات بأنها أبولونية أو ديونيسية ، فيمكن أن يكون مفيدًا للدلالة على المنحى العام الذى تنتحى إليه ، ولكنه يمكن أن يكون مضللاً عندما يستخدم كمقدمة منطقية علمية للنظم المتعلقة بتفسير المدى الكامل لنهج الثقافة والفرد فى مجتمع ما وتفسيرها . ولقد حذرت بنيديكت من الأخطار التى تتأتى عن هذا المنحى . فهى تقول فى كتابها أنماط الثقافة : إنه من الخطأ أن تُجزّئ كل ثقافة إلى أقسام متجانسة بوسائل اعتباطية فى ظل شعار معين . فالواقع أن من الخطورة بمكان بتر الحقائق المهمة التى لا تشرح الفرض الأساسى الذى يحمله الباحث فى ذهنه .

ولقد أشارت مارجاريت ميد **Margaret Mead** فى إيجاز مستحب إلى نقاط القوة ونقاط الضعف فى بحوث بنيديكت الأنثروبولوجية

العلمية قائلة : ثمة خصيصتان لديها يذكرها بوضوح جميع أولئك الذين تعاملوا معها عن كثب : هما الابتسامة التى كانت تتقبل بها الفرض العام الذى لم تستوعب من تفاصيله سوى نصفه ، ثم إعادة صياغة السؤال الذى يوجهه إليها السائل بحيث تجعل منه سؤالاً على مستوى أعلى من مستوى الذكاء الذى يتضمنه السؤال الأصلى ، وكلتا الخصيصتين كانتا مرتبطتين بما أصيبت به من صمم بالإضافة إلى استعدادها لأن تثق فيما كانت تحس به أنه يشكل العناصر الرئيسية لدى الناس والمشكلات . أما الصمم الذى أصابها نتيجة إصابتها بالحصبة فى طفولتها ، فإنه لا يبدو تفسيرًا كافيًا لميل بنيديكت لأن تخلق البساطة من التعقد ، وذلك بإعادة صياغة ما يوجه إليها من أسئلة فى صيغ شعرية .

والواقع أن مساهمة بنيديكت تكمن فى محاولتها أن تُكسب الظواهر الثقافية التى تجابه دارس الثقافة مذاقًا أدبيًا . فهى لم تكن تكتفى بأن تأخذ فى تسجيل المعلومات وتأجيل التفسير إلى مستقبل بعيد كما فعل بوس ، وذلك عندما يتسنى لأجيال تالية من الأنثربولوجيين كشف النقاب عن تعميمات استقرائية مكينة حول الإنسان والمجتمع . فهى لم تكن صبورة بأن تتخذ هذا الموقف ، بل سيطر عليها مفهوم التكامل الثقافى كوسيلة لفهم وتفسير الدراسات الثقافية . فإذا كانت فى حماسها قد تعجّلت ، فإن ذلك يشكل إذن خطأ يعزف بها عن الاتجاه الصحيح .

ولقد أشار كثيرون إلى أن إلحاح بنيديكت على النسبية الثقافية لا يتماشى مع اهتمامها بأن تعمل على تحسين الجنس البشرى ، وهو اهتمام يتبدى فى بحوثها النظرية وفى جهودها العملية فى سبيل نشر الحرية والتمسك بالتسامح الدينى . فلقد كانت تأمل أنه فى نهاية المطاف سوف يكون هناك نظام عقلانى يسود الأبعاد اللاشعورية

Looloo
www.dvd4arab.com

الفصل الخامس عشر : سيخينوف وبختيريف وفاجنر ولانج ١٣٦
الفصل السادس عشر : إدوارد تيلور ١٧١
الفصل السابع عشر : جيمس فريزر ١٩١
الفصل الثامن عشر : إميل دوركايم ٢١٠
الفصل التاسع عشر : فرانز بوس ٢٣٧
الفصل العشـــــرون : برتيسلو مالينوفسكى ٢٥٣
الفصل الحادى والعشرون : ألفريد لويس كروبير ٢٧٨
الفصل الثانى والعشرون : روث بنديكت ٢٩٣

رقم الايداع : ٢٢٦٣

الترقيم الدولى : ٨ / ٠٥٩ / ٢٦٦ / ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالمعصرة

القاهرة ـ ☎ ٨٢٣٧٩٢ ـ ٨٢٣٥٥٥٤

Looloo
www.dvd4arab.com

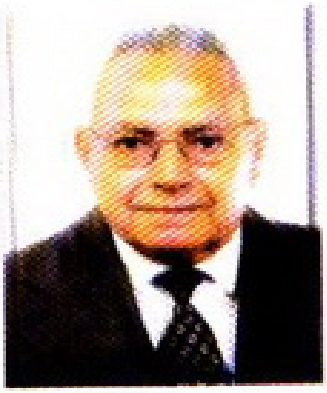

أسرار شخصية الإنسان

يوسف ميخائيل أسعد

هذا الكتاب دراسة سيكولوجية هامة ، إذ أنها عبارة عن بانوراما لما قام به الأساطين من علماء علم النفس وعلم الإنسان من بحوث حول شخصية الإنسان . فمن يتناول هذا الكتاب بالقراءة المتمعنة ، سوف يحوز تفهمًا عميقًا لعلم النفس بعامة ، ولما يتصل بشخصية الإنسان بخاصة .

والواقع أن من يضيف هذا الكتاب إلى مكتبته بالإضافة إلى ما سبق أن نشر للمؤلف من كتب عن شخصية الإنسان وهى الشخصية القوية ، والشخصية المحبوبة . والشخصية الناجحة ، والشخصية المتكاملة ، وشخصيتك بين يديك ، والشخصية المنتجة ، والشخصية المبدعة ، والشخصية القيادية ، والشخصية السوية ، والشخصية المتطورة ، فإنه يكون قد امتلك ناصية موضوع الشخصية بما يشمل عليه من زوايا متعددة ؟

الناشر

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ ٢٨٣٥٥٥٤ ٢٨٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٩٧٠٠٤